الرَّدُّ عَلَى المُلْحِدِينَ

فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

عفا الله عنه

الرَّدُّ عَلَى المُلْحِدِينَ

www.fb.com/RslanText

{مقدمات عن الإلحاد والملحدين}

{أولًا : تعريف الإلحاد؟}

الإلحاد هو: مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى. فيدّعي الملحدون بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

وهناك معنى ثان للإلحاد يعد من إضافات أفلاطون وهو: إثبات وجود خالق أو صانع ولكنها لا تعنى بشيء من حياة الخلق فهي موجدة للخلق لكنها تركت التصرف في الكون وتفرغت لحياتها المثالية وقد كان يقول بهذا القول من الفلاسفة أبيطور.

ومما لا شك فيه أن كثيراً من دول العالم الغربي والشرقي تعاني من نزعة إلحادية عارمة جسدتها الشيوعية المنهارة وتجسدها العلمانية المخادعة.

{كيف نشأ الإلحاد؟ ومن أسسه في العالم؟}

الإلحاد بدعة جديدة لم توجد في القديم إلا في النادر في بعض الأمم والأفراد وكانت الكنيسة الأوروبية المسئول الأول عن ظهور الإلحاد فحماقاتها هي التي أدت إلى جعل العلم بديلاً عن الدين وجعل الصدام الذي وقع بين العلم المادي وأفكار الكنيسة المتحجرة مما ليس بدين أصلا سببا لتحلل الناس من الدين فالسبب الظاهر جعل بديلا عن السبب الحقيقي وتوقف الناس عند حدود ما تثبته وتدركه حواسهم وجعلت الطبيعة خالقة بديلاً عن الله جل وعلا وذلك حين حاربت الكنيسة الغربية العلم والعلماء وخيرت الناس بين اتباع الخرافة للمحافظة على الدين على دينها الذي ابتدعته وشكلته على حسب أهوائها خيرت الناس بين اتباع الخرافة واتباع العلم والخروج من الدين وقد اختار العلماء الماديون لما وصلوا إليه من الحقائق العلمية الثابتة اختاروا

اتباع العلم لأنهم يعرفون قدره ويعلمون أنه أحق بالاتباع من الخرافة التي تمسكت بها الكنيسة الغربية فلما طردت الكنيسة العلماء من الدين كان العلم بالنسبة إليهم البديل عن الدين لا لأنه في الحقيقة بديل عنه ولا لأنه بطبيعته يغني عن الدين ولكن لأن حماقة الكنيسة الغربية وضعت الأمور في هذا الوضع والسبب الظاهر ليس بديلا عن السبب الحقيقي لأن السبب الظاهر يفسر فقط كيف تحدث الأشياء على النحو الذي تحدث به ولكنه لا يفسر لماذا كانت الأشياء على هذا النحو وحين جعلت أوروبا الطبيعة بديلا عن الله عز وجل لم يكن ذلك إلا مهربا من اله الكنيسة التي تستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الإتاوات والعشور باسمه وتخضعهم وتذلهم لرجال الدين مع محاربة العلم والحجر على حرية النظر في أسرار الله في الكون ومع الوقوف الظالم مع رجال الإقطاع ضد الذين كانوا يطالبون بالإصلاح لم يكن الأمر قط حقيقة علمية وكان هذا كله الحاد العلماء والفلاسفة والمفكرين أما الجماهير فكانت ما تزال تؤمن بالدين على ما به من تحريف وتشويه وخرافة فيعد أتباع العلمانية المؤسسين الحقيقيين للإلحاد ومن هؤلاء: أتباع الشيوعية والوجودية والداروينية والعقلانية وقد استغلت الحركة الصهيونية كل هذا وعملت على نشر الإلحاد في الأرض فنشرت العلمانية لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والمادية المفرطة والانسلاخ من كل الضوابط التشريعية والأخلاقية كي تهدم هذه الأمم نفسها بنفسها وعند يخلو الجو لليهود حتى يستطيع اليهود حكم العالم كله وقد نشر اليهود نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ ونشروا نظريات فرويد في علم النفس وكذلك نشروا نظرية داروين في أصل الأنواع ونشروا نظريات دور كاين في علم الاجتماع وكل هذه النظريات من أسس الإلحاد في العالم.

{أول كتاب مصرح بالإلحاد}

أول كتاب مصرح بالإلحاد وداع له ظهر في أوروبا سنة ١٧٧٠ من التاريخ الصليبي

{متى نشأت حركات الإلحاد المنظمة في العالم العربي والإسلامي؟}

أما حركات الإلحاد المنظمة في العالم العربي وأما المجاهرة بالإلحاد في العالم الإسلامي وإعلانه على الملأ : فقد نشأ بعد منتصف القرن التاسع عشر حينما بدأ العالم الإسلامي والعربي يتصل بالعالم

الغربي عن طريق إرساليات الدراسة أو التدريب وتسبب ذلك في رجوع مجموعة من الطلاب متأثرين بالفكر الأوروبي المادي الذي كان يقوم على أساس تعظيم علوم الطبيعة ورفع شأن العقل وكذلك كان يقوم على تنحية الدين والشرع عن حكم الحياة والناس وإدارة شؤونهم وفي بداية الأمر لم ثم دعوة صريحة للإلحاد في العالم الإسلامي والعربي وإنما كانت هناك دعوات للتحرر أو للتغريب أو لفتح المجال أمام العقل أو إلى محاكمة بعض النصوص الشرعية إلى العقل أو الحس أو الواقع أو إلى محاولة إنشاء خلاف وهمي وصراع مفتعل بين العقل والشرع ومع مرور الوقت وزيادة الاتصال بالغرب وتراثه وانتشار موجة التغريب بين الناس ظهرت بعض الدعوات الصريحة للإلحاد وفتح باب الردة باسم الحرية الفردية وحينما نشط اليهود في تركيا ودعوا إلى إقامة قومية تركية تحل محل الرابطة الدينية ظهرت مظاهر عدة في الواقع تدعو إلى نبذ الدين وتظهر العداء لبعض شعائره ومع مرور الوقت تطورت هذه الحركة حتى جاء مصطفى كمال أتاتورك وقام بإلغاء الخلافة وأنشأ الدولة التركية العلمانية وحارب جميع العلماء وسجنهم وراج على اثر ذلك الكفر والإلحاد وظهرت عدة كتب تدعو إلى الإلحاد وتطعن في الأديان ومنها: كتاب بعنوان {مصطفى كمال} لكاتب اسمه: قابيل ادم يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي وفي ذلك الكتاب دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة صريحة بالعقلية الأوروبية هذه الجرأة في تركيا قابلها جراءة مماثلة في مصر سميت ظلما وزورا {عصر النهضة الأدبية والفكرية} بينما هي في حقيقتها حركة تغريبية تهدف إلى إلحاق مصر بالعالم الغربي والتخلق بأخلاقه واحتذائها في ذلك حذو تركيا التي خلعت جلباب الحياء والدين وصبغت حياتها بالطابع العلماني وبالسفور والتمرد.

في تلك الحقبة ظهر في مصر العديد من المفكرين والأدباء يدعون إلى التغريب والإلحاد وفتح باب الردة باسم التنوير تارة وباسم النهضة الأدبية تارة أخرى ومرة باسم الحريات الفكرية وتلقفت مصر في تلم الفترة دون تمييز جميع أمراض المجتمع الأوروبي وكذلك تلقت أخلاقه المنحلة وحاولت جاهدة بفعل أولئك الذين أرادوا لها التغريب حاولت أن تصبح قطعة من أوروبا ومن فرنسا تحديدا وعاث في أرض مصر بعض المستشرقين فسادا وإفسادا ثم سلموا دفة الإفساد إلى

بعض المصريين ممن لن يتوانوا في نشر الكفر والإلحاد وسعوا سعيا حثيثا إلى إلغاء الفضيلة والأخلاق الإسلامية وإحلال النفعية والمادية محلها حتى أصبح دعاة الإسلام والمحافظة غرباء على المجتمع دخلاء عليه يوصفون بالجمود والتخلف والرجعية والعداء للحضارة ومن مصر انتقلت حمى الردة والإلحاد إلى جميع دول الجوار ابتداء من الشام ومرورا بالعراق والخليج بما فيها: السعودية وانتهاء ببلاد اليمن.

وأما أعلام الإلحاد في أوروبا: هم أتباع الشيوعية ويتقدمهم:

كارل ماركس وقد هلك سنة ١٨٨٣ وهو يهودي ألماني؛ أنجلز وهو رفيق دربه التقى به في انجلترا وأصدرا معا: ألماني فيستو أو البيان الشيوعي سنة ١٨٤٨ وقد هلك أنجلز سنة ١٨٩٥.

{أعلام الإلحاد في أوروبا}

أعلام الإلحاد في أوروبا : أتباع الشيوعية وعلى رأسهم: ماركس وأنجلز.

اتباع الوجودية أيضا من أعلام الإلحاد في أوروبا وعلى رأسهم: جامبول سارتر وسيمون دبفوار والبير كامي.

وكذلك أتباع الداروينية وكذلك من أعلام الإلحاد في أوروبا من الفلاسفة والأدباء: نيتشا وهو فيلسوف ألماني وهو من أكبر الملحدين في العصر بل في التاريخ؛ بيرتراندراسل وهو فيلسوف انجليزي؛ وهيجل وهو فيلسوف ألماني قامت فلسفته على دراسة التاريخ؛ و هربرت سبنسر ١٨٢٠ – ١٩٠٣م وهو إنكليزي كتب في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق.

{أعلام الإلحاد في العالم الإسلامي}

وأما أعلام الإلحاد في العالم الإسلامي فعلى رأسهم: إسماعيل أحمد أدهم الذي هلك سنة ١٩٤٠ كان من دعاة الشعوبية وحاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان {لماذا هو ملحد} وهو جعل مكانها {أنا} لأنه يتكلم عن نفسه لكن لا يجمل أن نعيد ذلك كما قيل كما قال النبي صلى

الله عليه وسلم عن الشيطان: إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ. والشيطان يدعو بالويل على نفسه ولكن أتى النبي صلى الله عليه وسلم بضمير الغائب حتى لا يحكي ما قاله الشيطان كما في هذا النص فكتب إسماعيل أحمد أدهم رسالة بعنوان {لماذا هو ملحد؟} وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندرية حوالي سنة ١٩٢٦م.

إسماعيل مظهر الذي هلك سنة ١٣٨١ من التاريخ الهجري وهو أحد دعاة الشعوبية والداروينية أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت قبل توبته تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعناً قبيحاً. معيداً تاريخ الشعوبية تماما كما فعل إسماعيل أحمد أدهم فإنه كان من دعاة الشعوبية وكذلك إسماعيل مظهر أصدر هذه المجلة التي كانت تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعناً قبيحاً. معيداً تاريخ الشعوبية، ومتهماً العقلية العربية بالجمود والانحطاط، ومشيداً بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وقد تاب إسماعيل مظهر إلى الله بعد أن تعدى مرحلة الشباب وأصبح يكتب بعد ذلك عن مزايا الإسلام وألف كتابا أسماه :{الإسلام لا الشيوعية} وقد أسست في مصر سنة١٩٢٨ جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب واتخذت دار العصور مقراً لها واسمها رابطة الأدب الجديد وكان أمين سرها كامل كيلاني.. وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور.

الشاعر عبد اللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره..

والشاعر جميل صدقي بن محمد بن فيضي الزهاوي وهو شاعر عراقي يعد عميد الشعراء المشككين في عصره.

وكذلك صادق جلال العظم وهو أحد أساطين الفكر الشيوعي المادي ممن أخذ يجاهر بالإلحاد ويدعو إليه وألف كتابا يقرر فيه الإلحاد أسماه { نقد الفكر الديني} زعم أنه أقام فيه براهين تثبت عدم وجود الله وأن كل ذلك ـ يعني : ما عليه المؤمنون من إثبات وجود الله جل وعلا والرسالة والوحي والبعث والقيامة ـ أن كل ذلك من الأوهام والأساطير وقد رد على هذا الرجل الكثيرون كذلك من أعلام الإلحاد في العالم الإسلامي : عبد الله بن علي القصيمي وهو أحد أشهر الملاحدة المعاصرين له كتب عن الإسلام وكان العلماء يستملحونها ويثنون عليها ثم أعلن بعد ذلك ردته

وإلحاده وجاهر بدعوته الجديدة إلى الإلحاد وألف مجموعة كبيرة من الكتب الداعية للتحرر من سلطة الدين والفضيلة والأخلاق منها : {هذه الأغلال} ومنها :{أيها العقل من رآك} ومنها :{الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات} وهو من دعاة الصهيونية العرب وله مقالات وعبارات بشعة في حق الله تبارك وتعالى وحق رسله وممن رد عليه كما هو معلوم: العلامة السعدي رحمه الله تعالى فان كتابه في قطع وإبطال أصول الملحدين إنما كان موجها إلى هذا الرجل والى دعوته وقد أبطل الله رب العالمين دعوته وأخمل ذكره كما هو معلوم في كل من حاد دين الله جل وعلا فان الله عز وجل يخمله ويجعل آثاره بعد ذلك في مزبلة التاريخ لأنه لا يبقى إلا الحق ولا يبقى إلا الخير والله جل وعلا لا يصلح عمل المفسدين.

{من الشعراء الملاحدة}

كذلك من أعلام الإلحاد في العالم الإسلامي: فهد بن صالح بن محمد العسكر، وهو شاعر كويتي ماجن، وداعية إلى التمرد على الأخلاق والفضيلة، ومن كبار المتشككين والساخرين بالأديان في شعره، وقد هلك سنة ١٣٧٠ من التاريخ الهجري.

ومنهم أيضا: أحمد لطفي السيد، وطه حسين، وزكي نجيب محمود، وعلي أحمد سعيد المعروف ب{أدونيس}الذي يقال عنه أنه شاعر.

فهؤلاء بعض أعلام الإلحاد في العالم الإسلامي.

{مِن أفكار الإلحاد، والمعرفة الدينية في رأي منتحليه}

وأما أفكار الإلحاد: إنكار وجود الله سبحانه، الخالق البارئ، المصور، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً.

من أفكار الإلحاد: أن الكون والإنسان والحيوان والنبات وجد صدفة وسينتهي كما بدأ ولا توجد حياة بعد الموت. وهذا كله تفريع عن الأصل الذي أنكروه على أصل الأصول وكبرى اليقينيات وهو: وجود الله جل وعلا فان الإنسان إذا أنكر وجود الله جل وعلا فانه حينئذ يقول: إن الخلق

الذي لا بد له من خالق إنما خلقته الصدفة أو أوجدته الطبيعة أو أوجد نفسه فلا بد أن يجيب عن أسئلة فتأتي هذه الأسئلة مؤسسة على الأصل الذي أنكره وهو: وجود الله جل وعلا؛ ولذلك تجد من أفكارهم: أن المادة أزلية أبدية وهي الخالق والمخلوق في الوقت نفسه.

وهم ينظرون نظرة غائية للكون، وكذلك للمفاهيم الأخلاقية تعيق تقدم العلم.

وأيضا ينكرون معجزات الأنبياء؛ لأن تلك المعجزات لا يقبلها العلم كما يزعمون، و هم ينكرونها ابتداء؛ لأنهم ينكرون من أرسلهم وهم ينكرون وجود الله الذي أرسل الرسل ونبأ الأنبياء وأنزل الكتب والذي كان منه الوحي المعصوم.

من العجب: أن الملحدين الماديين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينية ولا سند لها إلا الهوس والخيال؛ لأن الداروينية ليس عندها تفسير للتطور ثم إن دارون كما سيأتي إن شاء الله النقل عنه من كتابه في طبعته الثانية هو لم يقل في نظريته: إن التطور خالق وإنما هو يريد أن يفسر شيئا فجعل التطور مفسرا لا خالقا فيبقى السؤال على حاله فمن الذي خلق؟!!

إذاً دارون حتى في أصل نظريته لم يقل إن التطور الذي زعمه وجاء به في أصل الأنواع هو الذي أحدث الخلق وهو الذي أنشأه وإنما هو يفسر به أمراً على حسب نظريته التي ابتدعها.

فهؤلاء الملاحدة يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة :أن الإنسان كان قردا فجاءت طفرة فنقلته من القردية إلى الإنسانية!

فإذا قيل لهم: كيف جاء ذلك؟

قالوا: هذا يأتي بالطفرة فمن الحيوان الأول من الخلية الوحيدة ثم بعد ذلك إلى ما ارتقى إليه الإنسان حتى صار قردا ثم ارتقى بعد ذلك حتى كان إنساناً!

يقولون: إن هذا الانتقال من هذه الأنواع إنما يحدث بما يسمي بالطفرة الوحيدة!

فيقال لهم: وهذه الطفرة في كل مرة تحدث على هذا النحو من أجل تنشئ شيئاً أحكم؟ من أجل تنشئ شيئاً أتقن؟ فلماذا تقبلون هذا؟ وهذا في حد ذاته مخالف لمقررات العقل مخالف للبدهيات الفطرية ولكن همهم وقصدهم: أن ينكروا وجود الخالق العظيم ولأجل ذلك لا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية ولا بالحق والعدل ولا بالأهداف السامية، ولا بالروح والجمال.

ولذلك كنت تجد في فترة استحواذ الاتحاد السوفييتي على الدول الإسلامية التي ابتلعها فلم يهضمها حتى خلصها الله رب العالمين من نيره كنت تجد الصناعة الروسية على الضد من الصناعة الغربية فالصناعة الروسية لا جمال فيها من حيث الشكل الظاهر لأنهم لا يعترفون بالروح ولا بالجمال و لا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية ولماذا يعترفون بالمفاهيم الأخلاقية والماديون يعتقدون أن الحياة نهاية كل كائن حي وأنه بعد ذلك لا بعث ولا قيامة فإذا كان الإنسان في هذه الحياة يحيى حتى إذا ما مات لم يبعث ولم يحاسب على شيء ولماذا يتمسك بالأخلاق؟! بل لماذا توجد الأخلاق أصلا؟!

وحينئذ يحيى الإنسان في الحياة أحط من الحيوان البهيم يحصل اللذات ويستحوذ على الملذات والشهوات وليس له ارتقاء في خلق ولا نظرة إلى هدف سام.

و ينظر الملاحدة تبعا للأصل الذي قرروه في أصل الوجود والخلق ينظرون للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل ويقولون أن قصته لا تعني شيئاً.

وأما المعرفة الدينية، في رأي الملاحدة، فتختلف اختلافاً جذريًّا وكليًّا عن المعرفة بمعناها العقلي أو العلمي!! لأنهم لا يخضعون للعقل ولا يخضعون للعلم وبداهة لا يخضعون للنقل والشرع.

الإنسان عند الملاحدة: مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية.

الكائن الإنساني عندهم لا ميزة فيه ومثل الحيوان البهيم بل هو مثل الحجارة مثل الجماد تنطبق على هذا الإنسان قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية.

وعند هؤلاء الملاحدة أن الحاجات هي التي تحدد الأفكار، وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات.

{مِن أهم أسس الإلحاد في العالم}

نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ ونظرية فرويد {وهي نظرية جنسية محضة} في علم النفس، ونظرية داروِن في أصل الأنواع، ونظرية دور كهايم في علم الاجتماع من أهم أسس

الإلحاد في العالم.. وجميع هذه النظريات هي مما أثبت العلماء أنها حدس وخيالات وأوهام شخصية ولا صلة لها بالعلم.

{ما هي القواسم المشتركة بين الملاحدة العرب؟}

القواسم المشتركة بين الملاحدة العرب هي: إنكارهم للغيب جملة وتفصيلا وقصرهم الإيمان بحدود الملموس والمحسوس فقط دون ما غاب عن العين أو ما يمكن إدراكه بالحس.

ومن القواسم المشتركة بينهم: استهزاؤهم بالشعائر الدينية جميعها ووصفهم للمتمسكين بالشعائر الدينية بالرجعيين والمتخلفين.

ومن القواسم المشتركة بينهم :محاربة أي دعوة تدعو إلى التدين أو صبغ الحياة بمظاهر الدين.

ومن القواسم المشتركة بينهم: ميلهم نحو احتقار العرب وهي الشعوبية التي مر ذكرها وكان أوائل الدعاة إلى الإلحاد في العالم العربي والإسلامي فهم يميلون نحو احتقار العرب واحتقار عاداتهم وسلوكهم ويمدحون الشعوبية والباطنية بل منهم دعاة للصهيونية كما كان القصيمي فانه كان داعية من دعاة الصهيونية.

ومن القواسم المشتركة بينهم: الدعوة للتغريب لأنهم إذا احتقروا الجنس العربي؛ احتقروا العروبة يريدون بذلك احتقار الدين وإذا احتقروا اللغة العربية؛ فأي شيء يقدرون ؟!!

هم يدعون للتغريب والالتحاق بالغرب والأخذ بجميع ثقافاتهم وأمورهم الحياتية والتعلم منهم ومن سلوكياتهم حتى ان من غلاة الداعين إلى ذلك وهو: طه حسين كما في كتابه {مستقبل الثقافة في مصر } وهو الآن يعاد طبعه وينشر نشرا موسعا والرجل يقرر فيه: أنه ينبغي علينا من أجل أن نلحق بالركب العالمي في التقدم والتقنية أن نتخلى عن كل ما نحن عليه وأن بما هم عليه في كل مجالات الحياة حتى تكون فضلاتنا كفضلاتهم.

وهم يشنون الحرب الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة.

ومن القواسم المشتركة بينهم: أنهم يزعمون أنه لا شيء ثابت مطلقا فكل الأمور نسبية: الدين نسبي يتغير ويتطور ويرتقي الناس فيه والشرف كذلك نسبي فما كان يقاتل المرء عنه ودونه في

القديم صار شيئا مبذولا لا تهتز شعرة في مفرق أحد ما اعتدي على عرضه وإذا ما دنس فراشه كذلك عنده من الأمور العادية.

فهؤلاء شنوا الحرب الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة وادعوا أنه لا يوجد شيء ثابت مطلقا وأن الحياة والعادات والأخلاق في تطور مستمر وأن الثبات على الشيء إنما هو من شأن الغوغائيين والمتخلفين والرجعيين.

وعندهم أن الأخلاق تتطور وترتقي وكذلك الأديان تتطور وترتقي وبالتالي المثل والقيم تتطور وترتقي فما كان يتمسك به الناس قديما ينبغي أن يهجر وينبغي أن يطلق البتة وأن لا يلتفت الناس إليه.

ومن القواسم المشتركة بينهم: أنهم يعظمون المادة والطبيعة ويعظمون جميع العلوم الطبيعية ويجعلون ذلك أساس كل الحضارات بافتعال الصراع المزعوم بين الدين والعلم المادي التطبيقي.

ومعلوم أن ذلك إنما كان في الغرب لما تحجرت الكنيسة علي معتقداتها البالية وحاربت العلم التطبيقي المادي بحقائقه الثابتة فلما وقع الصدام بين العلم والدين بسبب تعنت وجهل الكنيسة الغربية تم الفصل بين الدين والعلم هذا وقع في الغرب ثم أرادوا أن يمدوا ذيل ذلك علي المجتمعات الإسلامية فتسللوا لما ذهبت البعثات إلي تلك الديار من أجل أن تنقل لا العادات ولا الأخلاق ولا التقاليد وإنما من أجل أن تنقل ما وصلوا إليه من التقدم التقني ومن العلم المادي فما عادوا إلا بنقل العادات والتقاليد كما فعل الطهطاوي وغيره عندما كان شيخا مرافقا للبعثة من أجل أن يأمهم في الصلاة وأن يفتيهم في ديار الغربة فيما يعرض لهم من مسائل الدين فلما رأى المسارح الفرنسية وأبصرت عيناه النساء الفرنسيات وقد تهتكن وتبذلن وتعرين وكان الرجل من الجنوب في مصر والمرأة فيه في غاية المحافظة فلما انتقل هذه النقلة عاد مبهورا بالذي رآه يدعو إليه وكتب في ذلك كتابا سماه ب{تلخيص الإبريز في أحوال أو في شئون باريز} أو كما سماه.

والتنويريون الآن في هذا العصر يبعثون هذه الكتب من كهوفها وقبورها ويريدون أن يقرأها الناشئة من المسلمين لما وجدوا أن الناشئة من المسلمين قد أقبلوا في الجملة على معرفة الدين وعلى

التمسك بالتعاليم فجاءهم الشيطان بهذه الأفكار الشيطانية من أجل أن يحرفوا الناس عما وصلوا إليه من الحق.

الملحدون الماديون في الدول الإسلامية العربية من القواسم المشتركة بينهم : أنهم من محاربة الاحتلال يقفون دائما ضد مقاومة الاحتلال يدعون إلى الرضا بالأمر الواقع وأن هؤلاء إنما جاءوا لتنويرنا وإخراجنا من الجهالة والمرض والفقر فينبغي علينا أن نشكرهم كما وقع ذلك بالنسبة للحملة الفرنسية على مصر وما زالوا إلى يوم الناس هذا يحتفلون بذكرى الاحتلال الفرنسي لمصر على أنه بداية التنوير في العصر الحاضر وفي الواقع المعاصر للأمة المصرية وكذلك للشرق بأجمعه وهذا محض الوهم وإنما جاءت الحملة الفرنسية لوئد النهضة الإسلامية في مصر وكذلك في العالم الإسلامي العربي وكانت هذه النهضة الإسلامية على وشك أن تؤتي أكلها وأن تقوم على سوقها فتستوي عليه فجاءت الحملة الفرنسية من أجل وأد هذا.

ومن القواسم المشتركة بينهم: تعاونهم الوثيق مع الصهيونية والماسونية ومدحهم اللامحدود للصهاينة واليهود وهذا سمة غالبة على جميع الملاحدة والمرتدين لأن الملحد في الحق مشرك وقد يستغرب من ذلك لأن الملاحدة المعاصرين على وجه الخصوص لما أنكروا وجود الخالق العظيم فذهبوا إلى نظريات يفسرون فيها الخلق وينظرون فيها إلى سبب الوجود.

وبعضهم يقول: الطبيعة فجعلها إلها معبودا فهذا مشرك بالله جل وعلا.

وأما الملحد: فهو الذي لا يثبت خالقا في الأصل فينكر وجود الله تبارك وتعالى وينكر أن يكون سبب ما قد أدى إلى خلق الخلق وإيجاد الوجود فأما هؤلاء: فهؤلاء مشركون يشركون على هذه الصورة وعلى هذا النحو وسيأتي بسط هذا إن شاء الله جل وعلا.

يزعم الملاحدة أن الدين سبب للتناحر ونشر البغضاء في الأرض وأنه تسبب في إشعال وإذكاء نار الحروب في كثير من بقاع الأرض وقد حان الوقت لتركه والتخلي عنه.

هؤلاء الكذبة من الملاحدة الماديين يقولون: أن الدين سبب للتناحر ونشر البغضاء في الأرض وهل قامت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية لأسباب دينية؟

ألم تقم الحرب العالمية الأولى وكذا الثانية بأسباب علمية؟

بأسباب تقنية؟ لم تقم بأسباب دينية.

فهؤلاء الكذبة يقولون: ان الدين هو الذي يؤدي إلى نشر التناحر ونشر البغضاء في الأرض فينبغي التخلي عنه هذه هي فكرة الماسونية التي تجمع تحت لوائها كل منحرف على ظهر الأرض مهما كان دينه ويقولون : نحن لا نناقش هذه الأمور ثم إذا استمر مريره مع الماسون صار بعد حين ملحدا بلا دين لأنه يتخلى مع الوقت سبب التعايش السلمي بين هذه الأديان المتضادة والمتباينة فانه بعد حين يتخلى عن دينه حتى يصير ماسونيا ملحدا.

{بداية انتشار الإلحاد في أوروبا وانتقاله بعد ذلك}

انتشر الإلحاد أولا في أوروبا وكانت له أسبابه وسيأتي بسطها إن شاء الله جل وعلا .

انتقل بعد ذلك الإلحاد إلى أمريكا ومن أوروبا وأمريكا إلى سائر بقاع العالم .

عندما حكمت الشيوعية بما كان يعرف بالاتحاد السفيوتي قبل انهياره وتفككه فرغت الإلحاد فرضا على شعوبه وأنشأت له مدارس وجمعيات كانوا يحاربون الدين الإسلامي خاصة فان الدول التي وقعت تحت الحكم الشيوعي كان أفرادها يؤمرون بل يجبرون على تغيير أسمائهم وكان الواحد منهم إذا ضبط تاليا لآية من كتاب الله جل وعلا أعدم بأبشع صور الإعدام.

وكان التفتيش لا يفتر أبدا في البيوت للنظر إلى ما عند المسلمين في بيوتهم لأن هذه الدول كانت دولا إسلامية فلما جاءت الشيوعية على يدي ماركس ومن تبعه ثم انتشرت بعد ذلك احتلت الدول الإسلامية التي تجاور روسيا الشيوعية وهي دول إسلامية وأهلها كانوا من المسلمين وكان لهم مواقف صدق في نصرة دين رب العالمين فبسطوا النفوذ عليهم واحتلوا ديارهم وأدخلوها فيما سمي بالاتحاد السفيوتي الشيوعي وفرضوا الشيوعية عليهم فرضا فنقلوهم من الإسلام إلى الشيوعية هذه نقلة لا تقبلها الطبيعة البشرية أمن الإسلام؟من الحق إلى سواء الباطل؟ ففرضوا عليهم ذلك فكانوا في جملتهم في البداية يقاومون بعض المقاومة السلبية يعلمون أبناءهم في الخفاء ما تيسر مما يعرفونه من دين الله وربما كان الواحد منهم مالكا لنسخة من القران العظيم فيخفيها

حيث إذا وجد غفلة من السلطات انتحى ناحية في خفاء من أجل أن يتلو آية من آيات الله جل وعلا إذا ضبط عنده ورقة من المصحف أعدم بل وأعدم أهله حتى أجبروهم على تغيير أسمائهم حتى تصير كأسماء أولئك القوم فلما جاء هذا الاتحاد بهذا البلاء أنشأت للإلحاد وللشيوعية في تلك الدول الإسلامية مدارس وجمعيات حاولت الشيوعية نشر الإلحاد في شتى أنحاء العالم عن طريق أحزابها وسقوط الشيوعية في الوقت الحاضر ينبأ عن قرب سقوط الإلحاد بإذن الله جل وعلا في العالم كله لأن الإلحاد لم يجد على مدار تاريخ البشر في الأرض سلطة تنشره بالسيف تفرضه بالقوة المفرطة مع ما الناس عليه من الضعف والمسكنة لم يحدث ذلك في تاريخ البشر إلا في هذا العصر لما نشأ الاتحاد السفيوتي ونشر الإلحاد في الدول التي احتلها بالسيف وبالسلاح ولكن كثيرا من المسلمين بعد أن سقط وانهار عادوا إلى دين الله رب العالمين وأكثرهم يتلمس طريق الحق وهم معذورون في الجملة في بعض الأمور لأنهم خرجوا من هذا التهرء الأخلاقي بل من الانعدام الأخلاقي إلى دين الله رب العالمين من الجهل المحض بدين الله رب العالمين وتجهيل الخلق به إلى محاولة معرفة الدين والتوحيد مسئولية المسلمين في العالم قائمة على كواهلهم من أجل تعليمهم دين الله رب العالمين ونشر التوحيد والسنة بينهم.

يوجد الآن في الهند جمعية تسمى بجمعية النشر الإلحادية هذه الجمعية حديثة التكوين وتركز نشاطها في المناطق الإسلامية ويرأسها جوزيف إيديامار وكان نصرانيا من خطباء التنصير ومعلما في احدي مدارس الأحد وعضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

ألف سنة ١٩٥٣ كتابا يسمى {إنما عيسى بشر } غضبت الكنيسة وطردته فتزوج بامرأة هندوكية وبدأ نشاطه الإلحادي وأصدر مجلة إلحادية باسم: اسكرا أي: شرارة النار ولما توقفت عمل مراسلا بمجلة {ارالاشبتم } أي: صوت كيرالا الأسبوعي وقد نال جائزة الإلحاد العالمية.

الإلحاد صارت له جوائز عالمية !!

نال جائزة الإلحاد العالمية سنة ١٩٧٨ ويعتبر أول من نالها من آسيا.

فيتضح مما سبق: أن الإلحاد مذهب فلسفي يقوم على إنكار وجود الله سبحانه وتعالى ويذهب إلى أن الكون بلا خالق.

مذهب فلسفي عند الملاحدة من المفكرين والفلاسفة والأدباء وغيرهم.

وأما الملاحدة من العوام والجهلاء الذين يتبعونهم: فإلحادهم ليس إلحادا فلسفيا إنما هو إلحاد بطن وفرج من أجل تحصيل اللذات ومن أجل تحصيل الملذات.

يعد أتباع العقلانية المؤسسين الحقيقيين للإلحاد الذي ينكر الحياة الآخرة ويرى أن المادة أزلية أبدية وأنه لا يوجد شيء اسمه: معجزات الأنبياء فهذا مما لا يقبله العلم في زعم الملحدين الذين لا يعترفون أيضا بأية مفاهيم أخلاقية لأن الذي يؤسس المفاهيم الأخلاقية هو الدين هو الوحي فإذا أنكروه وإذا أنكروا وجود الخالق العظيم أنكروا وجود الرسالة والوحي وأنكروا البعث والجزاء فلا شك أنهم ينكرون الأخلاق وتصير الحياة مادية محضة حتى ان الإنسان ليتسفل حتى يكون أقل من البهائم.

لا يعترفون بقيم الحق والعدل ولا بفكرة الروح ولذا فان التاريخ عند الملحدين كما مر هو : صور للجرائم والحماقات وخيبة الأمل .

وقصة التاريخ عندهم لا تعني شيئا والإنسان مجرد مادة تطبق عليه القوانين الطبيعية وكل ذلك مما ينبغي أن يحذره الشاب المسلم عندما يطالع أو يسمع أفكار هذا المذهب الخبيث وهو الآن كما مر يجد مؤسسات تدعو إليه ومجلات وجمعيات وجوائز للحض عليه والترغيب فيه وهو يزين للشباب المسلم بل للمسلمين في كل مكان من أجل أن يتهافتوا عليه تهافت الفراش على النار وقد وصلوا من ذلك إلى درجة ما حتى ظهر في مصر في هذه الآونة من الملاحدة من يخرج للمناظرة على جهاز التلفاز فيناظر عن مذهبه الإلحادي وهذه من أعظم الدعوة إلى الإلحاد بين المسلمين وفي المجتمع المسلم وأيضا ظهر من الملاحدة في مصر من طالب اللجنة التي كانت تعد مشروع الدستور المصري من طالب اللجنة باقرار حقوق الملاحدة في الدستور المصري الجديد وذهب بعضهم للاجتماع برئيس تلك اللجنة من أجل أن يبين له ما هم عليه ومن أجل أن يعرض عليه وعلى اللجنة تبعا مطالب الملاحدة في مصر ولا شك أن الذي يظهر من هذا إنما هو قمة جبل الثلج وجبل الثلج كما هو معلوم لا يظهر منه الا قمته وهي بالنسبة إلى قاعدة جبل الجليد الذي يكون مطمورا أو مغمورا

تحت سطح الماء هذه القمة لا شيء بالنسبة لبقية جبل الجليد فالذي يظهر الآن إنما هو قمة جبل الجليد في هذا الإلحاد المعاصر وما خفي كان أعظم والله المستعان وعليه التكلان .

كثير جدا من المسلمين يحاولون كل بطريقته وكل في تخصصه يحاولون صد الهجمة الإلحادية يكتبون الكتب وينشرون النشرات ويبينون للمسلمين في المحاضرات وفي الخطب وغير ذلك خطورة الإلحاد ولا يلتفت إلى خطورة الإلحاد في الجملة الا جمع قليل بالنسبة إلى المتكلمين في الدين فأكثر الذين يتكلمون في الدين في هذا الوقت قوم فارغة عقولهم غلبت عليهم حماقاتهم يشغلون المسلمين بأمور غريبة ويشتتونهم ويفرقون صفهم ويدعون إلى احداث الفوضى والفساد في مجتمعاتهم وهي أفضل بيئة للإلحاد لأن الإلحاد من غرضه : أن يحدث الفوضى فإذا وقعت الفوضى فهذه هي البيئة المناسبة للإلحاد لذلك لم يسمع في هذا الوقت ولا في وقت شبق عن الدعوة إلى الإلحاد في مصر الا لما وقعت الاضطرابات التي وقعت فيها ووقع من الفوضى في مصر ما وقع وظهر الإلحاد برأسه وأطل على هذا المجتمع المسلم بوجهه الكالح القبيح وارتفع صوت الإلحاد يدعو إلى تقرير حقوقه لا بالأمر الواقع وإنما بقوة القانون يريدون أن يفرضوا لأنفسهم فروضا في هذا المجتمع بقوة القانون.

ما الذي دعاهم إلى هذا ؟!!

ما الذي أفسح لهم المجال ؟!!

ومن أفسح لهم المجال ؟!!

الجواب : ما وقع في مصر من هذه الاضطرابات وهذه الفوضى التي إنما كانت في معظمها باسم دين الله رب العالمين فانظر إلى أي شيء صارت من النقيض إلى النقيض من الدعوة إلى تطبيق الشريعة والالتزام بها وإقامة دين الله في الأرض وإقامة وإعادة الخلافة الإسلامية والى غير ذلك من هذه الدعاوى الفارغة إلى ظهور الإلحاد في المجتمع المسلم .

وأما ما دون الإلحاد فحدث عن انتشاره وفشوه بلا حرج من انحلال الأخلاق ومن انهيار المنظومة الأخلاقية في المجتمع المسلم وفي مصر على وجه التحديد فانك ما عدت تجد صغيرا يحترم كبيرا ولا

كبيرا يحنو على صغير ولا وجدت أحدا ينظر إلى فضيلة الا من رحم الله وصار البنات والنساء يتهافتن على أمور فيها من الانحلال ما فيه باسم الحرية .

ألم تقم ثورتهم من أجل الحرية ؟!!

هذه هي الحرية في جانب من جوانبها .

الله وحده يعلم إلى أي شيء تؤول الأمور والله المستعان .

في كتاب {الفيزياء ووجود الخالق } بحث عن الإلحاد في العصر الحديث .

{الإلحاد في العصر الحديث}

كان الناس في العصور الماضية يعتقدون اعتقادا جازما بوجود خالق مدبر للكون وكانوا يعدون هذا من البدائه العقلية وكان الإلحاد بمعناه الحديث الذي هو إنكار وجود هذا الخالق كان أمرا شاذا لا يقول به الا فرد بعد فرد من الناس وكان الناس يجتنبونه كما يجتنب المرض الشديد ويجتنب المريض الذي يخشى من مرضه فكان الواحد بعد الواحد يلحد هذا الإلحاد وظل الأمر على ذلك حتى القرن الثامن عشر الميلادي على وجه التقريب ثم بدأ الإلحاد يحل محل الإيمان عند كثير من قادة الفكر الأوربي وصار بعد مقدم الشيوعي الدين الرسمي لدولها ولما صارت للإلحاد هذه المكانة في الغرب ولما كانت الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة في هذا العصر فقد انتشر هذا الإلحاد وانتشرت أكثر منه لوازمه في أرجاء المعمورة انتشارا لم يعهد له مثيل فيما مضى الزمان على طول تاريخ الإنسان في الأرض وكان من نتائج ذلك أن صار الإلحاد من الناحية العلمية والعقلية الموقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان وصار المؤمن هو المطالب بمثل هذا الدليل أي انعكست الصورة وانعكس الوضع والقاعدة .

قديما كان من ألحد يطالب بالدليل على الالحاده فلا يملك دليلا فلما فشي الإلحاد صار الدين الرسمي لكثير من الدول الأوروبية صار الملحد هو الذي يطالب المؤمن بأن يأتي بالدليل على وجود الخالق العظيم هذا انعكاس للوضع انعكاس للحقيقة صار الملحد الذي يتحدى المؤمن

ويتهمه بعدم العلمية وعدم العقلانية ويتهمه بالتقليد والانسياق وراء العواطف وصار إظهار الاهتمام بالدين لاسيما في وسائل الإعلام العامة أمرا مستغربا بل منكرا .

قال صاحب كتاب {ثقافة الكفر}:

انه ما أن انتشرت بعض الأخبار ونشرت في مجلة نيوزويك فنشر فيها مقال عن الدين ما أن نشر حتى جاء المجلة خطاب نشرته من قارئ يلومها على إفساح المجال لمثل هذا الهراء .

ثم يعلق على ذلك قائلا من حيث الإحصاء فان كاتب الخطاب ينتمي إلى الأقلية أي هذا الملحد ينتمي إلى الأقلية وأما سياسيا وثقافيا فانه ينتمي إلى التيار الأمريكي الغالب وأن أولئك الذين يصلون بانتظام بل أولئك الذين يؤمنون بالله يحرصون على إبقاء ذلك في السر بل على عده سرا يخجل من إفشاءه وذلك أنه فيما عدا الالتجاء إلى الله الشعائري الظاهري المتوقع من سياسيين .

هذا ما نشرته المجلة .فان الأمريكي الذي يأخذ دينه مأخذ الجد ويعده شيئا مأمورا به لا مجرد خيار يخاطر بأن يعد من المارقين صار الدين هو الظاهرة الاجتماعية التي تحتاج إلى تفسير فيقال : هؤلاء المتدينون لماذا هم متدينون ؟!!

هذه المجتمعات المتخلفة الرجعية لا بد من اتخاذ الوسائل من أجل إخراجها من رجعيتها وتخلفها كيف بإخراجها من دينها ؟!!

فصار الدين الظاهرة الاجتماعية التي تحتاج إلى تفسير أما عدم التدين فهو الأمر الطبعي الذي لا يحتاج دراسة ولا بحثا ولا تنقيبا صار الإلحاد القاعدة المعلنة أو المضمرة التي تقوم عليها فلسفة العلوم طبيعية كانت أو اجتماعية أو إنسانية فصار الإلحاد لذلك جزءا من مفهوم العلم ومن هنا جاءت المقابلة بين ما يسمى بالتفسير العلمي والتفسير الديني .

فالتفسير العلمي هو : التفسير الذي يفترض أن الكون مكتف بنفسه لم يخلقه ولا يصرف أمره خالق.

وأما التفسير الديني : فهو الذي يجعل يجعل للإرادة الإلهية تدخلا في حوادث الكون .

فصار عندنا تفسيران :

تفسير علمي وهو : التفسير الإلحادي الذي ينكر وجود الخالق العظيم وتفسير ديني .

وتفسير ديني وهو : الذي يجعل للإرادة الإلهية تدخلا في حوادث الكون .
واذا كان العلم قد وضع بسبب فلسفته الإلحادية في مقابل الدين وقد وضع الدين مهما كان نوعه في زمرة الكهانة والسحر وسائر أنواع الشعوذة والأساطير أو عد حين يحترم أي : الدين من قبيل الأدب والفن الذي يعبر عن المشاعر ولا يقرر الحقائق .
صاحب هذا الإلحاد في أوروبا تطور هائل لم يعهد له مثيل في مجالات العلوم الطبيعية وما يقوم عليها من تقنية دخلت نواحي الحياة المختلفة وسهلتها وربط الناس في الغرب بين هذا وذاك واعتقدوا أن هذا التطور ما كان ليحدث لولا اطراح الدين وإحلال الفلسفة المادية الإلحادية العقلانية التجريدية محله وتبع الغربيين في هذا الاعتقاد خلق كثير من الأمم الأخرى فظنوا أنهم لا يمكنهم أن يبلغون شأو الغربيين في التقدم العلمي والتقني الا إذا هم حذوا حذوهم في اطراح الدين واعتماد الفلسفة الإلحادية وهو ما جاءنا به من بعث إلى الغرب من أجل أن ينقل إلينا ما وصل إليه الغرب من التقدم العلمي المادي فرجعوا إلينا بأمثال هذه العقائد وجهدوا في أن ينشروها بين المسلمين ووجدت بين المسلمين صدى لأنه تم احتضانهم من جهات بعينها وفرضت أفكارهم فرضا وغيب الإسلام بدرسه عن المدارس والجامعات وصار عندنا اتجاهان في العلم وكان الاتجاه قبل ذلك واحدا وهو العلم الديني وكان يشمل تحت عباءته العلم المادي فلما وقع الفصام بين هذا وذاك صار العلم الديني مقصورا على قوم بأعيانهم هؤلاء لا يرتقون في الحياة أي مرتقي ولا يعود عليهم دينهم وتدينهم ما يرقي حياتهم المادية بحيث يحيون في كفاية فضلا عما وراء ذلك من الترفه .
وأما الذين سلكوا مسلك العلم المادي أو سلكوا مسلك التعليم المدني هؤلاء فتحت لهم الأبواب وأعدت لهم الوظائف وأغدق عليهم من الأموال ما أغدق من رواتبهم ومكافأتهم حتى صار الناس يحتقرون من يسلك مسلك طلب العلن الديني ويحترمون من يسلك مسلك طلب العلم المدني اللا ديني ثم جاءت أمور شوه فيها من يتمسك بالدين في مظهره أو في كلامه وصارت الرطانة الأعجمية هي السائدة والغالبة فالدين إذا ما احترم فانه يعد من قبيل الأدب والفن الذي يعبر عن المشاعر ولا يقرر الحقائق .

أساطير !!ولكن كذلك في الأدب أساطير فلماذا نقبل أساطير الأدب ولا نقبل أساطير الدين فلنجعل هذا مع هذا في قرن ولننظر إليه على أنه من نتاج الأدب والفن فهو معبر عن المشاعر وليس بمقرر للحقائق فان {جملتن} في الفردوس المفقود أخذ يبين طبقات الجحيم ويجعل الناس في طبقات الجحيم كما يحب وتصور أنه قد نزل إلى الجحيم وتجول في طبقاته ومر على الناس الذين يعرفهم إلى غير ذلك من تخاريفه وكان في ذلك تابعا ل {دانتي}في الكوميديا الإلهية حذو النعل بالنعل ولكن هي نسخة معاصرة .

صاحب هذا الإلحاد في أوروبا تطور هائل كما مر فربط الناس بين هذا وهذا وقالوا : هذا الذي بلغناه من التطور المادي إنما بلغناه بسبب المعتقد الذي صرنا إليه وهو الإلحاد ولم يقتصر أثر هذا الفكر الإلحادي على مجال العلوم بل دخل حياة الناس الاجتماعية والسياسية فكما أن الدين أقصي عن المجال العلمي المشترك بين العلماء صار في أحسن حالاته مسألة خاصة بالعالم ولا يجرؤ على ذكرها فليتدين ما شاء ولكنما علاقة تدينه بالعلم الذي يزاوله دعك من الدفاع عن معتقده أو الدعة إليه هذا في مجال العلوم .

وأيضا أقصي الدين عن المجال السياسي حتى في البلاد الإسلامية الا ما رحم ربك وكاد أن يصير كما صار في الغرب مسألة ذاتية تخص الفرد ولا تتعلق بدساتير البلاد أو قوانينها أو ساساتها الداخلية أو الخارجية أو التعليمية أو الإعلامية .

هذا شيء من مكونات الثقافة في المجتمعات فالدين من مكونات الثقافة لا أنه الأصل الذي تصدر عنه جميع المقومات ولكن يقولون : لا يمكن أن نستغني عن الدين ولكن على أنه من مقومات الثقافة في المجتمع مع ما يدخل معه من هذه المقومات فهكذا بدأ الإلحاد في هذا العصر وعلى هذا النحو انتشر في العالم .

{أسباب انتشار الإلحاد في العصر الحديث}

أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر الذي جعل الأمر تنقلب هكذا رأسا على عقب بعد أن كان الملحد قد يتوارى ناحية واذا طولب بالدليل عل إنكاره وجحده للخالق العظيم لم يأت بدليل صار هو الذي يتعجب من وجود من يؤمن بوجود الخالق العظيم .

العصر الذي جعل الأمر تنقلب هكذا رأسا على عقب وكان سببا في تحول كثير من الناس في الغرب هذا التحول العجيب من الاعتراف بربوبية الخالق إلى إنكار وجوده بل إلى محاربة المؤمنين بوجوده حربا ضارية بالأقلام وأحيانا بحد السنان كما حدث في البلاد الشيوعية .

حاول كثير من الغربيين أنفسهم أن يفسروا هذه الظاهرة وأن يجيبوا عن مثل هذه الأسئلة وكتبوا في ذلك كتبا كثيرة وما ذكروه من الأسباب يجمل في ما كان من التناقض الشديد بين كثير من دعاوى الدين الذي ورثوه والعلم التجريبي الذي اكتشفوه كما مر تقرير ذلك فقد وجدوا وما زالوا يجدون كثيرا من دعاوى دينهم مخالفة لما أثبتته علومهم التجريبية والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ويكفي أن تنظر في كتاب {موريس بوكاي : العلم والكتاب المقدس والقران أو : القران والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث }كما هو في الطبعة المترجمة إلى العربية .

كذلك كان من الأسباب : التناقض بين العلم التجريبي القائم على الدليل الحسي أو العقلي ومنهج دينهم التسليمي لأن قادتهم الدينيين لم يكونوا يقبلون نقاشا ولا يلتزمون بالإتيان بدليل وإنما هكذا يقررون فما قرروه فهو الحقيقة التي لا يشك فيها فوقع التناقض بين منهج العلم التجريبي الذي يقوم على الدليل الحسي أو العقلي هذا المنهج التسليمي بين منهج العلم الذي يشترط الاتساق المنطقي ومنهج دينهم الذي يقبل التناقضات العقلية على أساس أن حقائق الدين يقبلها الخلق وان رآها مخالفة لصريح العقل .

كذلك كانوا يوهمون أتباع الكنيسة الغربية أنه ينبغي عليك أن تقبل هذا وأن تعتقده وألا تناقش فيه فان ناقش كان مهرطقا وربما حكم بقتله .

كذلك كان من أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر : قود كثير من علماء الدين وغيرهم من المثقفين المتدينين بالمسائل الغيبية والحديث عنها بمجرد الرأي الذي لا سند له من كتابهم ولا دليل عليه من غيره .

من ذلك مثلا : ما كتبه نيوتن من كلام مفصل عن طبوغرافية جهنم تكفل نيوتن بأن يبينها لنا من أين جاء بهذا أمن كتابه ؟ أمن غيره ؟ أليس عالما ؟! فما دام عالما في فرع من فروع العلم المادي فليتكلم فيما شاء .

كذلك تعصب بعض العلماء الطبيعيين المتدينين تعصبا جعلهم يحاولون لي أعناق الحقائق العلمية لتوافق الدعاوى الدينية .

من ذلك : أن المطران جيمز أشو هو دارس مشهور للكتاب المقدس استنتج من تحليل متأن لنصوص الكتاب المقدس أن الأرض خلقت في عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد هكذا ونشرت هذه النتيجة التي توصل إليها رئيس الأساقفة في ١٦٥٠ من التاريخ الصليبي ولم تلبث أن ألحقت بهامش سفر التكوين إلى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس كأنها أنزلت وحيا معصوما وظلت به حتى زمان دكتوريا ولا يزال من الممكن وجودها أحيانا حتى اليوم .

لم يكن غيبا أن يأتي هذا الزعم من رجل دين يعتمد على كتابه لكن الغريب أن معاصرا لهذا الأسقف وهو مدير جامعة {كامبرتش}آنذاك أيد هذا الزعم بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ زعم أن الثالوث خلق الإنسان في ٢٣ من أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد عند الساعة التاسعة صباحا .

ما أوضح {رونالد ملر }قال : ان مدير جامعة {كامبرتش}هو وحده الذي تبلغ به الجرأة أن يجعل تاريخ خلق الإنسان ووقته موافقا لبداية العام الدراسي .

إذا رأى الناس هذا كفروا بالدين يقولون : هذا من الدين ونطق به الكتاب فالناس حينئذ لا بد أن يشكوا في هذا الدين أو أن يكفروا به فكان هذا من الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الإلحاد الأوروبي وانتشاره .

كذلك من أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر : الخلاف بين العلم والدين الذي لم يقتصر على مسائل الدين الفرعية بل شمل مسائله الأصولية فمن المعروف الآن ـ حتى عند علماء اللاهوت ـ : أنه ليس هناك من دليل علمي على أن الكتاب الذي يقوم عليه الدين كله هو من قول المسيح بل المعروف أنه كتبه أناس آخرون منهم من هو معروف ومنهم من ليس بمعروف .

هذا مقرر حتى عند علماء اللاهوت وأنهم كتبوه بعد رفعه بآماد طويلة هم يقولون : بعد موته أو بعد صلبه وأن هناك تناقضا في أقوال هؤلاء الكتاب حتى صارت دراسة مثل هذا التناقض تسمى عندهم ب { النقض الأعلى } هذا مشهور عندهم ليس بمنكر فالدين لم يدخل في الصدام مع العلم بالمسائل الدينية الجزئية بل بأصل الأصول فيه هذا كله هو دين الكنيسة الغربية .

كذلك من أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر : أنه قد شمل التناقض فكرة الألوهية نفسها فبينما يوصف الإله بأنه هو الخالق ينسب إليه الولد !!

بينما يقال : ان عيسى ابن الله يقال : انه صلب !!

وبينما يقال : أن الإله واحد يقال : انه مكون من ثلاثة أقانين هي : الأب والابن وروح القدس !!وهكذا .

ووقع التناقض حتى فكرة الألوهية ذاتها .

رأى بعض المؤمنين من النصارى أن وصفا كهذا لله إذا أخذ على ظاهره التي تدل عليه اللغة جعل الخالق تعالى مشابها للمخلوقات ففروا من هذا التشبيه إلى ما سماه علماؤنا من أهل السنة بالتعطيل فلم يكتفوا بتأويل هذه الصفات التي تدل على المشابهة بل أولوا كل الصفات الأخرى فجعلوا الخالق شيئا مجردا وهو لا يوصف بالعلو ولا بالمباينة للمخلوقات ولا بأن له ذاتا ولا أن له صورة وإنما هو شيء مجرد لا يوصف بصفة من الصفات الثبوتية كالسمع والبصر والكلام وما أشبه.

كتب أحد الفلاسفة قريبا كتابا أسماه { الإله الباطني } زعم فيه أنه ليس لله تعالى وجود خارجي وأن الإيمان بالله إن هو الا إيمان بمجموعة من المثل والمبادئ الخلقية هذا التصور التعطيلي للخالق أصبح الآن التصور الشائع بين جماهير المثقفين من أهل الديانتين النصرانية واليهودية فهذا الإيمان بالله عندهم صار هذا التصور التعطيلي للخالق العظيم بل ربما كان الأمر قريبا من ذلك حتى بين كثير من المثقفين من المسلمين أنفسهم .

إن المسافة ليست بعيدة بين هذا التصور التجريبي للخالق وبين الإلحاد .

الإلحاد : إنكار لوجود الخالق .

هذا إنكار لكل صفاته ، وهل يكون وجود أي ذات إلا بصفات ثبوتية ؟!

من أنكر كل الصفات الوجودية ؛ فقد أنكر الوجود ، شعر بذلك أم لم يشعر ؛ ولذا كان مثل هذا التصور لوجود الخالق قائمة ممهدة للإلحاد ، وقد فطن أئمة علماء السنة قديما إلى مثل هذا ، فكانوا يقولون : إن المشبه يعبد صنما ، والمعطل يعبد عدما .

المشبه هو : الذي يجعل صفات الخالق كصفات المخلوقين وهكذا مع فارق واحد هو : عظم هذه الصفات حين يوصف بها الخالق لكن يجعلون المشابهة بل المماثلة واقعة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين .

وأما المعطل : فهو الذي يفر من تشبيه الله بالمخلوقات ؛ ليقع في تشبيه شر منه هو : تشبيه الخالق العظيم بالمعدومات والمستحيلات ؛ لأن المعدوم هو الذي يوصف بكل صفة سلبية ؛ كأن تقول : هو ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا أمام ولا خلف ، ولا فوق ولا تحت ، ولا عن يمين ولا عن شمال ، وهكذا لا يوصف بصفة ثبوتية ولا تثبت له صفة من الصفات الثبوتية كالعظمة والكبرياء والبصر والسمع والحياة والعلو ، وقد أدرك علماء أهل السنة خطر هذا التصور للخالق ، فألفوا الكتب الكثيرة في الرد على أصحابه من الجهمية والمعتزلة قديما ، ولو لا ذلك لوجد الإلحاد في العالم الإسلامي قديما كما وجد في العالم الغربي تبعا لما قرره المعطلة الذين ما زادوا في وصف الله جل وعلا بسلب الصفات عنه على أن جعلوه معدوما .

ولو أن إنسانا أراد أن يبين حقيقة المعدوم أو صفة المعدوم أو حد وتعريف المعدوم ما وجد أبلغ مما أتى به أهل السلوب الذين سلبوا عن الله جل وعلا كل الصفات ولكن أنواعا من هذا التصور التعطيلي تعود الآن وتنتشر بين المثقفين في العالم الإسلامي بسبب ذلك التاريخ القديم ثم بسبب الإلحاد المعاصر.

{ بعض القواعد الفكرية }

ففي كتاب { الفيزياء ووجود الخالق } : ذكر لبعض الأسباب التي أدت إلي الإلحاد في العصر الحديث ، ومن هذه الأسباب : أن الخلاف بين العلم والدين لم يكن خلافا علميا ؛ بل كان أيضا خلافا أخلاقيا وسياسيا مع الكنيسة التي تتحدث باسم هذا الدين لأسباب مثل هذه. اعتقد كثير من المؤمنين بوجود الخالق والمدافعين عن هذا الإيمان أنه ينبغي أن لا يربط الإيمان بالله بالدين .

قال أحد مؤرخي الإلحاد في الحضارة الغربية : أن يكون هذا - يعني الدفاع عن وجود الخالق - من غير لجوء إلي الكنيسة - يعني الكنيسة الغربية-. قال: أن يكون ذلك كذلك ؛ فهذا يبدو بديهيا ؛ فقد كانت الكنيسة جزءا من المشكلة ، جزءا من المرض الذي كان يصيب كل معرفة بالله لا جزءا من العلاج ؛ فقد كانت الكنائس الغربية هي الأرض التي أنبتت الإلحاد .

قال : هذا احد مؤرخي الإلحاد في الحضارة الغربية .

فكان من أكبر أسباب الإلحاد : بعض القواعد الفكرية التي أصل لها ودافع عنها فلاسفة مشهورون مؤثرون كانوا في أنفسهم مؤمنين ،أي : كانوا مؤمنين بوجود الخالق ؛ لكن قواعدهم الفكرية كانت في حقيقتها قواعد الإلحاد ؛ ولذلك اقتنع كثير ممن جاء بعدهم بتلك القواعد الفكرية ، وأسسوا عليها إلحادهم ، واعتبروا إيمان أولئك الفلاسفة الذين قعدوها اعتبروا إيمانهم أمرا شخصيا لا يتناسب مع ما قعدوا من قواعد عقلية .

كان من هؤلاء الفلاسفة :[رينيدي كارد]الذي أتي بنظرية للطبيعة ، ومن ثم للعلوم الطبيعية ، فحواها : أن الطبيعة بعد أن خلقها الله ؛ صارت مستقلة تماما بقوانينها التي أودعها إياها ، ولم يعد الخالق يتدخل في شؤونها ، أو يوقف فاعليتها .

صار الخالق إذا علي كلام هذا شيئا بعيدا عن حياة الناس اليومية واهتماماتهم الحالية ، صار شيئا يمكن أن تستمر الحياة من غير لجوء إليه ، أو حتى من غير تذكره ، ولم يعد من ضرورة لذكره إلا إذا كان الحديث عن بداية الخلق .

لم يلبث هذا الخالق السلبي الذي دل عليه ديكارد أن تحول عند كثير من العلماء الطبيعيين إلى مجرد اسم مجازي للمبدأ أو المبادئ التي يقوم عليها نظام الطبيعة .

كثير من الناس يظنون أن أينشتاين كان مؤمنا بالله حين يسمعون ذكره لله في عبارات ؛ مثل قوله المشهور {إن الإله الرب لا يقامر} ؛ لكن أينشتاين إنما كان يستعمل هذه العبارة مجازا ليعرب عن رفضه للنظرية التي تقول بأن المصادفة حقيقة موضوعية في بنية الكون ، وليست أمرا نسبيا خاصا للمشاهد للكون .

في أيامنا هذه قال الفيزيائي جورج سموت الذي اكتشف وجود تجعدات في الإشعاع الكوني الخلفي ترجع إلى ثلاث مائة ألف سنة الأولى لعمر الكون - كما يقول - ، والتي كانت النواة التي تكونت منها الأجسام الكونية على حسب ما ذهبوا إليه من نظرية الانفجار العظيم.

قال وهو يعلن ذلك الاكتشاف ويشرحه لغير المختصين في مؤتمر صحفي سنة ١٩٩٢ من القرن المنصرم قال :

إذا كنت متدينا فكأنك ترى الله .

وكانت هذه العبارة من بين كل ما قال في شرح اكتشافه هي التي تناقلتها وسائل الإعلام ، ونشرتها على نطاق واسع في العالم كله ؛ لكنه حين كتب كتابه المسمى { تجعدات في الزمان } قال : وكأنه يعتذر لإخوانه الفيزيائيين في علم الكون : يتلاقى علم الطبيعة بالفلسفة عندما يقترب البحث من السؤال الأقصى عن وجودنا العقلاني للكون .

قال ذات مرة : إنني أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم ؟ أريد أن أعرف أفكاره .

لقد قصد أن يكون هذا مجازا ، لقد كان يعبر به عن المدى العميق الذي ذهب إليه في البحث .

يقول : وقد كانت ملاحظتي ـ كذلك هو يقول ؛ لأنه عندما يتكلم عما قاله أينشتاين في تلك العبارة التي مرت : أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم ؟ أريد أن أعرف أفكاره ؟ راح يعتذر عن هذه المقولة -

قال : لقد قصد أن يكون قصد هذا مجازا ، لقد كان يعبر به عن المدى العميق الذي ذهب إليه في البحث ، ولقد كانت ملاحظتي التي كثر الاستدلال بها مصوغة في هذا القالب نفسه - يعني كانت مجازا ؛ لأنه يعتذر لإخوانه الفيزيائيين عما قال بأنه لا يؤمن بوجود الخالق أصلا -.

فهذا أمر عندهم مما يستحيا منه ، وإذا اعتقده معتقد ؛ فعندهم ينبغي عليه أن يخفيه ، وأن يكون ذلك خاصا به .

من الأسباب التي أدت إلى الإلحاد في هذا العصر أيضا: ما يتكرر ذكره في كتابات الغربيين تعليلا بنفورهم من الدين ؛ فإنه يتكرر في كتابات الغربيين أن كثرة الحروب والمآسي التي حدثت في تاريخهم إنما حدثت بسبب الخلافات الدينية .

فيقولون : هذا هو المبرر الذي يجعلنا لا نحب الدين ولا نعتقده ؛ لأنه لم يأت منه خير كما يقولون ؛ وإنما حدثت بسببه في تاريخهم المآسي والحروب ، وكل ذلك إنما وقع بسبب الخلافات الدينية كما يزعمون.

يقول عالم الأحياء البريطاني بيتر بجور كما نقل عنه تيلر : لقد كان الثمن الذي اضطرت البشرية في عمومها لتدفعه مقابل الراحة والانتعاش الروحي الذي آتاه الدين قلة من الناس ، كان الثمن الذي دفعته البشرية اضطرارا ؛ كان دما ودموعا ، وهو من الغلاء بحيث لا يسوغ لنا أن نأتمن الاعتقاد الديني علي الخلقي .

ولا جدال في أنه حدث باسم ما يسمي بالدين حروب ومآس ومظالم في البلاد الغربية وفي غيرها ؛ ولكن هل يعد هذا مسوغا لرفض كل دين أيا كان ؟ هذا لا يقبل ؛ فإن المنهج العلمي المنصف يستدعي أن ننظر في هذه الأديان لنميز بينها ؛ فاسم الدين : اسم تندرج تحته معتقدات وقيم ودعاوى مختلفة اختلافا لا يجعل بينها صلة إلا ذلك الاسم . ويستدعي أن ننظر في هذه المعتقدات والقيم والدعاوى المختلفة ؛ لنتبين ما هو منها حق ، وما هو باطل .

وإذا كان بينها أمر مشترك ؛ فهل كان هو السبب في تلك المآسي حتى نحكم على الأديان كلها هذا الحكم العام ؟ أو أن السبب كان أمرا خارجا عن تلك المعتقدات ، ولا تتحمل جريرته ؟ .

يعني : قد يكون بسبب استغلال تلك الأديان ، أو بسبب سوء فهم لها ، أو بسبب ظلم واقع على الفئة المتدينة ؟ لأن استغلال الدين كاستغلال كل شيء حسن ، فيكون استغلالا سيئا في كثير من الأحوال كما هو الواقع في كثير من البلدان وكثير من المجالات ، والدين الحق يبين هذا ، ويحذرنا منه .

لا نعرف كلاما هو أشد في التحذير من الذين يستغلون الدين لتحقيق مآرب دنيوية .

والذين يرتكبون الفظائع بسبب التصور المنحرف للدين مثلما نجد ذلك في كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله عز وجل يقول

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ، هذه صورة من صور استغلال الدين استغلالا سيئا ، وقد ذكرها الله رب العالمين للتحذير ومن الوقوع في شبهها .

وأيضا يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوارج كما في الصحيحين :{ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ ﴾} ، فهذا أيضا من استغلال الدين في إراقة الدماء ، وما فوق ذلك وما دونه من تنفير المسلمين ، ومن سلب أموالهم ، وانتهاك حرماتهم .

فعندنا في كتاب ربنا وفي سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ما يحذر تحذيرا لا تجد تحذيرا مثله من استغلال الدين استغلالا سيئا .

فالآخرون يقولون : إن الدين قد استغل استغلالا سيئا ، ووقع ما وقع من الحروب والمآسي بسببه .

فيقال لهم: إن المنهج العلمي يفرض عليكم أن تبحثوا في كل دين دين ، فإذا ما نظرتم في الدين الإسلامي مثلا ؛ وجدتم الكتاب والسنة يحذران من استغلال الدين استغلالا سيئا على نحو ما مر في النصين الكريمين ، ثم على افتراض أن المعتقدات الدينية هي التي أدت إلى تلك الحروب ؛ فهل توقفت الحروب بعد أن حلت العلمانية في الغرب محل الدولة الدينية ؟!!

هم أزاحوا الدين ، وأحلوا العلمانية محل الدين ، ووقعت الحروب الكبرى التي لم يشهد العالم من قبل لها مثيلا مع غياب الدين ، ومع وجود العلمانية .

إن القتل والقرح والأذى والتدمير والإفساد الذي حدث بسبب الحربين العالميتين لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية كلها ؛ فهل كان هذا بسبب الدين ؟!!

الحروب التي شنتها الدول الغربية الرأس مالية والشيوعية على الشعوب الضعيفة لاستعمارها وسرقة خيراتها ؛ هل كانت حروبا
دينية ؟!!
الحروب التي حدثت في السنوات الأخيرة في العراق وإيران والصومال واليمن وغيرها ؛ هل كانت بسبب معتقدات دينية ؟! أم بسبب استلاب الثروات ، إذلال الشعوب ؟!!
فإذا كانت الحروب والمآسي التي حدثت باسم الدين سببا في النفور من الأديان كلها ، وعدم الثقة بها ؛ فلتكن هذه الحروب والمآسي سببا أقوى للنفور من العلمانية وعدم الثقة بها !!
وهذا على حسب قياسهم ، وإلا ؛ فإنهم يتناقضون .
يجب إذا إذا أردنا أن نكون منصفين في تقويمنا للدين ؛ أن نضع كل هذه الأمور في اعتمادنا ؛ وإلا كان رفضنا للدين وفورنا منه أمرا عاطفيا يقوم على الهوى ؛ لكنه يتزيى بزي العلم والعقل .

{ اتباع الملحدين لطرق خداعة : أن يضعوا الدين في مقابل العلم الطبيعي ، ثم يتكلموا عن المزايا التي يمتاز بها منهجه العلمي }

من الأسباب التي أدت إلى الإلحاد : أن الملحدين اتبعوا طريقة خداعة ، هي : أن يضعوا الدين في مقابل العلم الطبيعي ، ثم يتكلموا عن المزايا التي يمتاز بها منهجه العلمي ، وعن الثمار التي جناها الناس من المخترعات التي قامت على أساسه ، وعن توسيعه لدائرة معارف الناس بالكون ، وقضائه بذلك على كثير من الخرافات المتعلقة بطبيعة الكون أو طبيعة الأسباب الفاعلة فيه ، إلى غير ذلك .
ثم يقولون : إنه لهذا كله ينبغي أن يكون الاعتماد على العلم الطبيعي إلى الدين في معرفة الحقائق .
وهذه الحجة كانت تصلح لو أن الدين والعلم الطبيعي كانا أمرين متناقضين لا يمكن للعاقل أن يجمع بينهما ، وربما كانت تصلح هذه الحجة لو أنه كان من الممكن أن يستعمل منهج العلم

الطبيعي في كل المجالات التي يحتاج إليها الناس ، بما في ذلك – مثلا – : الهدف من حياتهم على هذا الكوكب العظيم ؛ فهل يستطيع العلم المادي أن يبين لنا هذا الهدف ؟!

وكذلك ما يصير إليه الناس بعد هذه الحياة .

وكذلك القيم التي يستهدون بها في حياتهم ؛ لكن العلم الطبيعي بطبيعة منهجه ، وكذلك باعتراف أساطينه لا يستطيع أن يفصل لنا في هذه الأمور .

فالذي يقول للناس – والحال هذه – : خذوا العلم الطبيعي واتركوا الدين ، وكإنسان يقول لك : إن الناس يتفقون على ما يشاهدون بحواسهم أكثر من اتفاقهم على ما يستنتجون بعقولهم .

فإذا ما وافقته على ذلك ؛ مضى ليقول : إذا ؛ فيجب أن نعتمد على الحواس ونترك العقل جانبا ، فالقياس واحد ، وأنه لا تناقض بين الاعتماد على الحس في معرفة ما من شأنه أن يعرف بها – أي : بالحواس – ، والاعتماد على العقل في معرفة ما لا يعرف إلا به .

إنه لا تقابل بين العلم الطبيعي والدين ؛ بل إن الدين الحق يعترف بالمنهج العلمي الطبيعي وسيلة إلى المعرفة ؛ بل إن المنهج التجريبي وضعه علماؤنا المسلمون ، فأول من وضع المنهج التجريبي : هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وسرق منه ، ثم روج في الغرب على أنه من ابتكار فلان وفلان في البحث العلمي ؛ ولكن الثابت الذي لا يقبل المجادلة ولا النقض : أن أول من وضع أسس المنهج التجريبي : هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

إذا ؛ فالدين ليس مقابلا للعلم الطبيعي ؛ ولكنه يقول – أي : الدين الحق الذي يعترف بالعلم الطبيعي – : إنه ليس وسيلة – يعني : العلم الطبيعي – إلى كل المعارف ؛ فأنت لا تستطيع بالعلم الطبيعي أن تصل إلى كل المعارف ؛ بل هناك معارف لا تدرك إلا بالرواية والخبر كما مر ذلك في كلام شيخ الإسلام وغيره عند النظر في رسالة العلامة السعدي رحمه الله ؛ بل هنا أيضا معارف لا تدرك إلا بالاستنتاج العقلي ، فهذه كلها من وسائل المعرفة وطرقها .

العقل والحس والرواية والخبر .

وكذلك أيضا ما لا يمكن معرفته إلا من طريق الرسل ، وهو بالخبر الصادق ، فالعاقل هو الذي يستفيد من كل هذه الوسائل بحسب نوع المعرفة التي يريدها ، ومن لا عقل له يحسد نفسه في بعضا

، وينكر غيرها ؛ لذلك فإن الناس لشدة حاجتهم إلى تلك المعارف التي لا يوصلهم العلم الطبيعي إليها ؛ يفضلون التعلق بأي دين ؛ ولو رأوا فيه بعض الأباطيل ؛ لأنه يلبي شيئا من حاجتهم إلى هذه المعارف ؛ لأن الناس فيهم جوع فطري إلى التعبد للإله الحق ، وهم يتطلعون إلى شيء باطل . العلم الطبيعي لا يمكن أن يشبع هذه الحاجات ، ولا أن يسد تلك الجوعات ، وحينئذ ؛ يتعلق الناس بأي دين يأتي لهم ؛ ولو بالخرافات ؛ ولكن يتكلم عن أمثال هذه المعاناة الباطنة التي يجدها الكائن الإنساني في نفسه .

كذلك من المقالات المفتعلة ؛ بل هي مضحكة في حد ذاتها : ما قاله الفيلسوف بوبر الذي استشهد به واين بيرك : إنه من البديهي جدا : أن اللاعقلانية هي المسئولة عن كل الحروب والعداوات القومية قبل الحروب الصليبية وبعدها ؛ ولكنني لا أعرف حربا أشعلت لغاية علمية أو بإيعاز من العلماء .اه.

فيقال له : كذلك لم تقم حروب بسبب الاختلافات الأدبية ، والأذواق الفنية ؛ لكن المتحاربين – متدينين كانوا أو غير متدينين – يستفيدون مما يعرفون من علم بالدنيا في حروبهم ؛ فلئن لم تقم الحروب باسم هذا العلم – فقد كان خادما مسخرا فيها – ؛ فأي فرض له على الدين في ذلك ؟!!

ويقال له : إنه قد قامت حروب بسبب الاختلافات اللونية ، والانتماءات العنصرية ؛ فهل يتخلى الناس عن ألوانهم وأجناسهم ؟!!

ويقال أيضا : إن الحرب شر ما في ذلك شك ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين : { أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ } ، كما في الصحيحين .

لكن هذا الشر قد يكون عملا صالحا إذا كان وسيلة وحيدة للدفاع عن الحق أو لدرء شر أكبر .

{ دعاوى ادعاها وما يزال يدعيها الملحدون عن التناقض بين الإيمان وحقائق العلم الطبيعي ، مع ذكر أمثلة والرد عليها }

كان أيضا من أسباب الإلحاد : دعاوى ادعاها وما يزال يدعيها الملحدون عن التناقض بين الإيمان وحقائق العلم الطبيعي .

سلم بها كثير من المفكرين في الغرب ، وبدأت تتكرر مستشرية من جيل إلى جيل ، وتنقل من كتاب بعد كتاب ؛ مع أنها لا تدل على شيء مما أراد لها مدعوها .

ومن أمثلة ذلك : توهمهم أن الإيمان بوجود الخالق مرتبط بتصورات معينة للدنيا كانت شائعة عند الناس في أوروبا ، وأن العلم أثبت عدم صحة تلك التصورات ، فأزال بذلك الأساس الذي كان يقوم عليه ذلك الإيمان .

هذا ؛ مع أنه لا علاقة بالضرورة بين الإيمان وتلك التصورات .

من أكثر ما يذكرونه في هذا المجال : اعتقاد الناس فيما مضى بأن الأرض هي مركز الكون ، وأن كوبرنيكوس جاء فأثبت أن الأرض إن هي إلا كوكب من كواكب عدة ، وأنه لا ميزة لها على سائر الكواكب والنجوم .

ينسى أصحاب هذا القول أن العلم الطبيعي كذلك ارتبط في أذهان كثير من أهله بتصورات للكون ما لبث العلم نفسه أن أبطلها .

ألم يكن كثير من العلماء الطبيعيين يتصورون أن الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية ؟!! بل يعد هذا أمرا لازما للنظرة العلمية حتى جاءت نظرية الانفجار العظيم ، وهي مما يتمسك به كثير منهم ، فسببت لهم حرجا عظيما .

فإذا كان الدين سيرفض الناس التمسك به لأن بعض التصورات قد ارتبطت عند بعض الناس به ، وهي ليست بلازمة لا عقلا ولا نقلا ؛ فليرفض الناس العلم الطبيعي أيضا ؛ لارتباطه في أذهان بعض أهله بتصورات تبين البطلان ، وقد تبين واضحا فيها .

فأمثال هذه الحجج إنما أتت على حسب البيئة التي نشأ الإلحاد المعاصر فيها ؛ لأنهم كما مر إنما بدؤوا في الإلحاد وتطليق الدين والتحلل منه لما وجدوا المصادمة قائمة بين ما تطهره الكنيسة الغربية ، وتدعي أنه هو الإيمان الحق ، وأن ما عداه هرطقة وكفر ، وبين ما أثبته العلم من الحقائق الثابتة التي لا يمكن أن يجادل فيها ولا أن يمارى ، فكفروا بالدين الذي دعتهم إليه ، وتمسكوا بالعلم ، وقالوا : إن هذا الدين غير صالح لشيء ، وإنما يصل المرء إلى ما إليه ؛ بل العالم كله ؛ بل

الجنس الإنساني يصل إلى ما يصل إليه من الرقي بهجر الدين وتطليقه ، والبعد عنه ، والكفر بالإله الخالق .

هذا لم يكن عندك ، هذا كان عندهم .

وأما نحن ؛ فديننا يدعو إلى العلم ، ويحض عليه ، ويدعو الناس إلى الاغتراف من معينه ، وإلى الإكثار من طلبه ، إلى غير ذلك مما هو معلوم .

زعم واين بير – وهو فيزيائي مشهور – في كتاب له أن المتدينين كانوا يظنون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة سامية مختلفة عن طبيعة الأجرام الأرضية ؛ لذلك كانوا يعتقدون أنها هي التي تدل على وجود الخالق ؛ لكن الشمس وسائر النجوم فقدت مكانتها المتميزة ، فنحن نعلم أنها كرات من غاز ملتهب متماسك بفعل الجاذبية ، وممنوعة من التقوض بضغط يظل مستمرا بسبب الحرارة الناشئة عن المفاعلات الحرارية النووية الموجودة في قلب النجوم .

إن النجوم لا تنبئنا عن عظمة الخالق بأقل ولا أكثر مما تنبئنا به الحجارة الموجودة على الأرض حولها .اه

فيستدل بهذا الذي وصل إليه العلم الحديث إلى الكفر بالخالق العظيم ، ويقول : أولئك المتدينون كانوا يعتقدون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة سامية مختلفة عن طبيعة الأجرام الأرضية ؛ لذلك كانوا يعتقدون أنها هي التي تدل على وجود الخالق ، وما دام هذا الاعتقاد قد ثبت بطلانه ؛ إذا ؛ فلا خالق هناك .

وتعجب من كثير من أولئك عندما تعمل عقولهم بهمة كاملة ونشاط تام فيما يتعرضون له مما يزاولونه من العلوم المادية ، فإذا جاؤوا إلى هذه المسائل اليسيرة الواضحة ؛ ضلوا فيها وتخبطوا في الوقت الذي يهتدي الطفل الغرير إلى وجه الحق فيها .

ما وجه التلازم بين هذا وهذا ؟!!

وهل جاء الدين بإثبات أن هذه النجوم هي وحدها التي تدل على وجود الخالق ؛ لأننا لا نعرف طبيعتها ؟!! وإنما تدلنا على حسب ما وصل إليه العلم المادي على وجود الخالق ، وعلى عظمته

أيضا ؛ لأنها وإن كانت لا تعدو أن تكون الكرات النارية الملتهبة من الغازات المتماسكة بفعل الجاذبية ....إلى آخر ما يقول العلم المادي ؛ فمن الذي جعلها كذلك ؟!!

ومن الذي وضع لها سنتها التي تسير عليها ؟!!

ومن الذي جعل دورانها وحركتها وإشعاعها وحرارتها ومركزها وموقعها على هذا النسق ؟!!

ومن أين أتت ؟!! لأنها إنما تفقد الحرارة مع الوقت ، ولو كان الفقد يسيرا حتى تصل إلى الهمود .

فإذا ؛ من الذي أعطاها الحركة من قبل ؟!! إلى غير ذلك من الأمور العقلية التي تدلنا على أننا نستخدم هذا في الدلالة على وجود الخالق .

فالنجوم من المخلوقات ، وهي دالة على وجود من خلقها وسواها .

ويقال لهذا الرجل وأمثاله أيضا : على فرض أن بعض المتدينين كانوا يعتقدون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة سامية مختلفة عن طبيعة الأجرام الأرضية ؛ فمن الذي قال:إن كل المؤمنين بوجود الخالق كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد ؟!!

وعلى فرض أنهم كانوا يعتقدونه جميعا ؛ فمن الذي قال : إن إيمانهم بوجود الخالق كان متوقفا على مثل هذا التصور للأجرام السماوية ؟!!

ما أكثر ما يتصور الإنسان الشيء ، ثم يجده على غير ما تصور ، فلا يؤثر ذلك في إيمانه ولا في ثقته بربه ؛ بل يعزو ذلك إلى جهله ، ويسره أن الله هداه إلى التصور الصحيح .

إن كل إنسان يمر عليه زمان وهو طفل ؛ يتصور السماء والشمس والنجوم والقمر على غير حقيقتهم ، ثم يشب ويعلم أن هذه القبة الزرقاء التي تراها بالنهار ليست بأحجامها ، وكذلك بالليل ليست بأحجامها البادية للعين ؛ بل هي أكبر من ذلك بكثير ، فلا يدعوه ذلك إلى أن يتحول ما الإيمان إلى الكفر ؛ فلماذا إذا يكون خطؤه في تصوره لطبيعة الأجرام السماوية داعيا لمثل هذا التحول ؟!!

إن الملحد لا يتحدث هنا عن واقع مشاهد ، ولا عن لازم عقلي ؛ بل يعبر عن وهم توهمه ، وإلا لو كان الأمر كما زعم ؛ لما بقي على ظهر الأرض مؤمن ، ولما كان الناس محتاجين إلى العلم الطبيعي الحديث لينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ؛ لأن كانوا يكتشفون مثل هذه الأخطاء في

تصوراتهم حتى قبل مجيء هذا العلم ؛ كما مر في تطور الإنسان من الطفولة إلى اليفوعة ، إلى الشباب ، إلى الكهولة ؛ فإن الإنسان تنمو مداركه ، وتزداد معارفه ، ويعرف من الكون ما لم يكن قبل يعرفه ؛ فهل معنى ذلك : أنه كلما عرف شيئا جديدا ؛ ذهب به وهم سابق توهمه أنه حينئذ يترك الإيمان ويدخل في الكفر ؟!!

وهل الإيمان يتوقف على أمثال هذه التوهمات ؟!!

لو كان اكتشاف الإنسان أن الأجرام السماوية هي غازات ملتهبة ، لو كان هذا الاكتشاف داعيا أن يقول أن الله لم يخلقها ؛ لكان يكفيه أيضا للوصول إلى مثل هذه النتيجة : أن يعلم – مثلا – أن الإنسان برغم عقله ومواهبه وعواطفه وإنجازاته ؛ تمثل كمية الماء ٦٠ ■ من جسمه ، فهل يدعو هذا إلى ترك الإيمان ، والدخول في الكفر ؛ لأنه جد له أمر لم يكن من قبل يعرفه ، وما كان يتصوره ؟!!

من الأمثلة أيضا : ما يتوهمون من وجود التناقض بين فكرة الخلق وفكرة الأسباب .

أي : أنه لكي يكون الشيء مخلوقا لله ؛ فلا ينبغي أن تكون لحدوثه أسباب طبيعية ، فإذا اكتشفنا أسباب حدوثه الطبيعية ؛ كان هذا دليلا على أنه لم يحدث بقدرة الخالق !!

وهذه فكرة غالطة رغم انتشارها بين الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، في الشرق والغرب ، وعلى مدى تاريخ طويل ، ولا بد أن يأخذ الناس بما قرره علماء أهل السنة من أنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقا ، وأن لحدوثه أسبابا ؛ لأن الله تعالى من سنته وعادته : أن يخلق بالأسباب ، ولأنه هو سبحانه خالق تلك الأسباب ، وجاعلها أسبابا ؛ فإن الله جعل الإنسان سببا مباشرا ظاهرا في وجود ولده ؛ فهل معنى ذلك أنه هو الذي خلقه وأوجده من العدم ؟!!

فالله عز وجل خلقنا بهذا السبب الذي هو مخلوق له ، فخلق الله آباءنا ، ثم جعل آباءنا سببا في وجودنا ؛ فالله خالقنا وخالق السبب الذي كان سببا في وجودنا ، والله خالق كل شيء .

الغفلة عن هذه الحقيقة التي قررها أهل السنة قديما هي التي جعلت الملحدين يستطيرون على بعض المؤمنين ، ويتحدونهم كلما اكتشفوا لبعض الأحداث أسبابا لم تكن معروفة من قبل .

من ذلك : ما يقوله صاحب ذلك الكتاب في الفصل الذي خصصه للعلاقة بين العلم ووجود الخالق ، يقول :

بل إنه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعد دليلا بينا على وجود الخالق ، ما تزال في الطبيعة أشياء لا حصر لها لا نستطيع تفسيرها ؛ لكننا نرى أننا نعرف المبادئ التي تحكم الطريقة التي تعمل بها .

إن على من يريد السر الغامض الحقيقي اليوم أن يبحث عنه في مجال علم الفلك ، أو علم الجزئيات الصغيرة . اه

فيكفر بالله هذا الكفر الأصلع ، يقول : بل إنه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعد دليلا بينا على وجود الخالق .

يقولون انظر إلى تنوع الخلق في هذه الحيوانات ، وفي هذه النباتات .

فهو يقول مثلا : إننا إذا نظرنا إلى النبات في أصله ؛ لنستطيع أن نرجع المسألة إلى وحدة واحدة ، وهي الخلية النباتية ، وكذلك الحيوانات نرجعها إلى وحدة واحدة ، وهي الخلية الحيوانية ؛ فقد اكتشفنا السر .

أي سر ؟!!

هذه خلية حيوانية ، لماذا تتنوع هذا التنوع ؟!

ولماذا تختلف حتى في الكائن الحيواني الواحد هذا الاختلاف العظيم ؟!

إن الإنسان – مثلا – تختلف خلاياه ؛ بل إن الغدد التي جعلها الله فيه – وهي منضوية تحت عنوان واحد – ، فالغدد العرقية مختلفة بالنسبة لموضعها في الجسد البشري ، فالغدد العرقية فيما بين الفخذين والعانة مختلفة عن الغدد العرقية الموجودة تحت الإبطين ، مختلفة عن الغدد العرقية الموجودة على سطح الجسم ، وهي كلها غدد عرقية ، وتركيبها واحد ، وإفرازها هو العرق ؛ ولكنه يختلف اختلافا ما على حسب موقع الغدة في الجسد الإنساني الواحد ؛ فكيف بوجودها في أجساد متنوعة من الحيوانات ؟!!

يريد أن يقول لنا هذا الملحد - كما قال مئات الفلاسفة من علماء الغربيين قبله - : إن السر الذي يعتمد عليه الإيمان يكشف ويزول فتزول بزواله الحاجة إلى وجود الخالق ؛ حتى نستطيع تفسير حدوث الأشياء تفسيرا طبيعيا ، وأنه لم يبق هنالك اليوم من سر – أي : شيء ما زال العلم عاجزا عن تفسيره – إلا بالمجالين اللذين ذكرهما ، فهما وحدهما اليوم ملاذ من يبحث عن سر يرسي عليه إيمانه – يعني : علم الفلك وعلم الجزئيات الصغيرة - .

هذا كله وهم ؛ لأن الفصام النكد الذي وقع بين العلم والدين في أوروبا لما ركبت الكنيسة الغربية رأسها ، وأبت إلا أن تصادم الحقائق العلمية على حسب أساطيرها وأوهامها ، هذا الفصام النكد جعل الناس يلجون في طغيانهم ، ويجتهدون في السير في طريقهم الذي اختطوه لأنفسهم ، فكلما أمعنوا فيه ؛ زاد كفرهم وإلحادهم ، وإلا ؛ فإنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقا لله ، وأن يكون لحدوثه تفسيرا طبيعيا ؛ لكن غاية ما يبلغه العلم هو : أن يفسر لنا الحدوث بأسباب ثانوية – أي : بأسباب هي نفسها بحاجة إلى أسباب - ، ونحن محتاجون بلا شك إلى معرفة مثل هذه الأسباب في حياتنا اليومية ؛ لكنها ليست الأسباب التي تفسر لنا وجود الأشياء تفسيرا نهائيا .

ثم : إن الكشوف العلمية الهائلة التي ساعدت الناس على فهم كثير من الظواهر الكونية ، والتي بنيت عليها تقنية يسرت للناس معاشهم من أكل وشرب ولبس وعلاج وعمارة واتصال وغير ذلك ، هذه فتنت كثيرا من الناس ، فجعلتهم يعتقدون أن العلم التجريبي سيغنيهم عن الدين ؛ بل سينجح حيث أخفق الدين ؛ فكان مثلهم في ذلك كما قال ربنا جل وعلا :{ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧) } ، وكما قال جل وعلا :{ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)}.

قال مؤرخ العلوم : إنه لم يخفف من غلواء هذا الغرور إلا الحرب العالمية الأولى ، ثم الثانية .

لما صدم الإنسان المعاصر في نتيجة ما وصل إليه من العلوم والأبحاث ؛ لأن الذي وقع من الدمار والخراب والتقتيل والتشريد ، إنما كان بسبب ما وصلوا إليه من العلوم المادية الحديثة في مجالات صناعة الأسلحة أسلحة الدمار الشامل ، وهذا إنما أسس على ما اكتشفوه من قوانين المادة فيما

يتعلق بالفيزياء والكيمياء وما أشبه ذلك ، فتوصلوا إلى صناعة ما صنعوه من تلك الأسلحة ، ثم استخدمت بغير هدى ولا وعي ، حتى أدى استعمالها إلى النتائج الكارثية التي تمخضت عنها الحرب الأولى ، ثم تمخضت عن أقسى منها الحرب الثانية ، والعالم ينتظر على مثل الجمر الحرب الثالثة ، وما دامت مقاليد القوى البشرية في أيدي أولئك الشياطين ؛ فلا تستبعد شيئا .

{ نجاح العلمانيين في إيهام كثير من الناس بأن الحقائق العلمية تبطل الدعاوى الدينية ، وتؤيد النظريات الإلحادية }

نجح العلمانيون في إيهام كثير من الناس بأن الحقائق العلمية تبطل الدعاوى الدينية ، وتؤيد النظريات الإلحادية ؛ بل نجحوا في إيهامهم بأن النظرة الإلحادية إلى الوجود هي وحدها النظرة العلمية ، فصارت العلمانية أو الإلحاد جزءا من مفهوم العلم نفسه ، وقد ظفروا بهذا الذي أرادوه بوسائل عدة ، أهمها :

تفسير الحقائق العلمية بنظريات إلحادية ، ثم تصوير هذه النظريات على أنها وحدها القادرة على تفسير تلك الحقائق ، واستبعاد كل نظرية يمكن أن يشم منها رائحة تأييد للدين ، ثم نشر هذه النظريات الإلحادية ، والدفاع عنها ، وتدريسها للطلاب ؛ حتى ينشأوا على اعتقاد أنها جزء من الحاتق العلمية ، لا نظريات قد تصدق وقد تكذب ؛ بل هي حقائق وليست بنظريات ، ثم التعصب لهذه النظريات تعصبا يجعلهم يغفلون الحقائق التي تكذبها أو تضعف من قوتها ، وستجد من الأمثلة على هذا التعصب الذي يتجاهل الحقائق ، ستجد التعصب للنظرية الداروينية في التطور ؛ فإن المؤمنين بهذه النظرية الآن معظم الأسماء الكبيرة في مجال علم الإحياء ، ما زالوا مؤمنين بنظرية دارون في التطور ، وهم يضيقون ذرعا بكل من يتفضل فيبين للناس ضعف بعض المرتكزات التي تقوم عليها النظرية الداروينية ، ويتهمونه إما بالجهل ، أو بالتعصب الديني ، أو بغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق برجل العلم . حدث هذا – مثلا – لصاحب كتاب { حقائق الحياة } الذي نشر في بريطانيا سنة ١٩٩٢ م ، ولم يلبث أن صار من أعظم الكتب بيعا .

مما زاد من حدة البغضاء للدين ، وتحول الناس إلى العلمانية والإلحاد : أن رأوا الأمة التي حباها الله بالهداية إلى الدين الحق الذي ليس فيه شيء من تلك المآخذ التي أخذها الغربيون على الدين الذي عرفوه ، وجد الناس هذه الأمة المرحومة واقعة في معظمها تحت تأثيرهم ، ورأوها حتى بعد أن يسر لها الخلاص من الاستعمار تنهج في معظم دولها نهج مستعمريها في سياستها واقتصادها ، وفي كثير من تصوراتها ، ورأوها أمة ضعيفة متخلفة عنهم في العلوم والتكنولوجيا ، ولا يروها قادرة على أن تتحداهم بدينها ، أن تريهم الفرق بين دينهم ودينها ؛ ففتنوا بذلك إلا من رحم الله منهم ، وهذه هي الحال الغالبة على هذه الأمة المرحومة التي انصرف أكثر أبنائها عن النظر في الدين ، وتقديره حق التقدير ، فلما نظر الآخرون إلينا ؛ قالوا : ما وصلنا نحن إليه – يعني : من الإلحاد الذي صاروا إليه مع التقدم المادي الذي ربطوه بالكفر بالدين – خير من أولئك ، هؤلاء لا خير عندهم ، يعنون : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتخلفنا إذا ليس تقصيرا في حق أنفسنا فحسب ، وإنما هو فتنة للأمم المتطورة ماديا ، يغريها بالتمادي في كفرها وإلحادها .

إن هذا التقصير ظلم للإنسانية يفوت عليها فرصة الاهتداء والسعادة الدنيوية والأخروية { رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) }.

هذه جملة الأسباب وراءها أسباب سواها التي أدت إلى ظهور الإلحاد في أوروبا ، وفشوه بعد ذلك وانتقاله إلى أمريكا ، ومن أوروبا وأمريكا إلى سائر بقاع العالم .

والحقيقة : أن وجود الخالق للكون أمر تعرفه العقول بداهة ؛ لذلك لم يكن ينكر وجود الخالق فيما مضى إلا فئات قليلة من البشر كما مر ؛ ولذلك كانت الرسالات السماوية تنبني على إقرار الناس بوجود الله ؛ لأن الرسل لم يأتوا من أجل أن يقنعوا أقوامهم بوجود الله ، وإنما أتوا من أجل أن يأمروا أقوامهم بعبادة الله وحده الذي يؤمنون بوجوده ، إذا ؛ هذا أمر مقرر في الطبيعة ، وهو ما يقول له علماؤنا في التوحيد : توحيد الربوبية . فهذا مستقر في الفطر الإنسانية ، وإنما جاؤوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله الذي خلقهم ، وهو يرزقهم ويحييهم ويميتهم ، ثم ليزيدهم الأنبياء علما بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته ، ويدعونهم إلى عبادته وحده دون سواه مما يعلمون لم يخلق منهم أحدا ، ولا يرزقهم شيئا ، ولا يحيي ولا يميت ، ولا يتصف بشيء من صفات الخالق .

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) }

إذا ؛ هو لم يقل لهم : تعالوا من أجل أن أثبت لكم أن الله موجود ، لأن هذا مقرر عندهم ، ولكن أمرهم أن ينظروا إلى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، وأخبرهم بأنهم يعلمون أن الذي يرزقهم في الحقيقة هو الله .

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) } .

فبدأ بدعوتهم بأمرهم بعبادته حده ، وهذا هو توحيد الألوهية ،وأنهى كذلك الآية الثانية بهذا الأمر { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } ، وهذا هو محض الألوهية ، وجعل بين هذين الأمرين بدءا ومنتهى ما يتعلق بتوحيد الربوبية { رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } ، وهم لا يمارون في ذلك ، وهذا كله من توحيد الربوبية ، فجعله سلما لإلزامهم بتوحيد الألوهية ، فلما أقروا بتوحيد الربوبية ؛ ألزمهم بتوحيد الألوهية ؛ لأنه ما دمتم تقرون أن الله تعالى هو الذي خلق ، وهو تعالى الذي يملك ، وهو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي يحيي ويميت ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، فالأنبياء جاؤوا يدلون الأقوام على هذا .

حتى الذين أنكروا وجود الخالق ، والذين يسمون في عصرنا بالملحدين لا ينكر معظمهم وجود الخالق أي خالق ، وإنما ينكرون وجود الخالق الحق الذي دعتهم إلى الإيمان به رسالات السماء ، فهذا الذي به يكفرون ، والذي كان يؤمن بربوبيته من يشرك معه غيره في عبادته .

انظر إلى حال الملحدين في عصرنا ؛ تراهم إذ أنكروا وجود الخالق الحق ؛ يعزون حدوث الأشياء إلى أشياء أخر ، وهم وإن لم يسموها بالخالقة ؛ إلا أنها لا بد أن تقوم عندهم مقام الخالق سبحانه ؛ بل ويطفون عليها بعض صفات الخالق العظيم .

خذ الملحدين الماديين في عصرنا – مثلا – :

لقد كان عمدتهم في إلحادهم : قولهم بأن المادية أزلية لا تستحدث ولا تفنى ، وكانوا يعتقدون أن هذا شيء أثبته العلم ، فلا مجال للخلاف فيه ؛ لكن المادة التي يتحدثون عنها ، ويصفونها بهذا الوصف ليست هي المادة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية ، وفي معاملنا العلمية .

إن المادة التي نعرفها هي مادة في صورة من أجسام سماوية ، أو أجسام أرضية ، أو مكونات هذه الأجسام من الذرات ، ومكونات الذرات والفوتونات ، وما أشبه ذلك مما تتكون منه تلك المخلوقات ؛ لكن ليس شيء من هذا أزليا ؛ بل إن كل مادة في صورة من الصور تحدث وتزول ، وأما المادة التي لا صورة لها ؛ فإنها كما قال ماركس نفسه وهم في أذهان الفلاسفة لا وجود له في الخارج .

يعني : هي موجودة وجودا ذهنيا ، لا وجودا واقعيا ، فهذا هو كبير الملحدين المعاصرين ، زعيمهم وإمامهم وشيخهم الذي إليه يحجون ، وبه يؤمنون .

فإذا كانت المادة قد أعطيت صفتين من صفات الخالق هما : الأزلية والأبدية ؛ إذ الله وحده هو الأول الذي ليس لأوليته ابتداء ، والآخر الذي ليس لآخريته انتهاء ؛ فإن شيئا اسمه الطبيعة قد عزيت إليه بعض أفعال الخالق سبحانه ، فأنت كثيرا ما تسمع الملحدين ومن يقلدهم وإن لم يكن ملحدا مثلهم يقولون : إن الطبيعة فعلت كذا وكذا ، واختارت الطبيعة كذا وكذا .

لكن الطبيعة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية والعلمية هي : مجموع الكائنات الحية والجامدة والسائلة ، وهذه الموجودات هي التي تنفعل ، لا هي التي تفعل ، وهي التي توجد وتتكون وتنمو تفنى ؛ فأين تلك الطبيعة التي تفعل كل هذا من الطبيعة هذه التي نعرفها التي هي منفعلة وليست بفاعلة ؟!!

هم يقولون : الطبيعة فاعلة ، وليست بمنفعلة ، أو هي فاعلة منفعلة معا ، وأما الطبيعة التي يعرفها الخلق أجمعون ؛ فهي الطبيعة المنفعلة التي توجد وتتكون وتنمو وتفنى .

أهما طبيعتان حقا ؛ الواحدة تفعل ، والثانية تنفعل ؟! كلا ، إنما الطبيعة الحقة هي هذه الطبيعة التي نشهدها ، وأما الأخرى التي تقام في مقام الخالق سبحانه ؛ فإنما هي وهم كبير في رؤوس الملحدين ، وهم يطفون عليها صفتين من صفات الله جل وعلا كما مر : الأزلية والأبدية .

ما يقال عن الطبيعة يقال أيضا عن التطور .

إن التطور في مفهومه العلمي هو : الطريقة المتدرجة التي نشأت بها الكثرة الحاضرة في النباتية والحيوانية عن أقدم الكائنات الحية ، وأكثرها بدائية كما هو مقرر في القاموس العلمي .

فالتطور إذا هو : الطريقة التي حدث بها هذا التنوع ، وليس هو صانع التنوع – على حسب ما يعتقدون – ؛ لكن الملحدين يتحدثون عن التطور كما لو كان هو الفاعل .

يقول دارون في الطبعة الثانية من كتابه {أصل الأنواع} :

يمكن أن يقال مجازا : إن الانتقاء الطبيعي مستمر في تفحصه في كل يوم وكل ساعة ، وفي العالم كله لكل تغير وإن دق ، رافضا للسيئ ، حافظا وجامعا لكل ما هو جيد ، عاملا في صمت ولطف ، كلما سنحت فرصة لتحسين كل كائن حي بالنسبة لظروف حياته المادية وغير المادية ، ونحن لا نرى شيئا من هذه التغيرات البطيئة وهي تحدث ، حتى تضع يد الزمان علامة على الآماد الطويلة التي مضت .اه

قال استانلي – وهذا النص منقول عنه ، أي : هذا النص الدارويني –:

إن دارون لم يضف كلمة {مجازا} إلا في الطبعة الثانية من كتابه . اه ويفسر هذه الإضافة بأنه : وقد كان يعيش في عصر كان يدعى فيه أن للحياة قصدا إلهيا ، فأراد فيما يبدوا أن يبين للقارئ أنه لا مكان في حجته لمثل هذا الكلام الديني ، وأن مشروعه آلي إلى درجة مفزعة ، فأنت ترى أمثال هؤلاء يقولون : إن التطور أو الانتقاء يفعل كذا وكذا ، ويضعونه بذلك في موضع الخالق سبحانه .

هذا ؛ مع أنه وصف الطريقة التي تحدث بها الأشياء لا يتنافى مع وجود خالق لها يحدثها ويطورها بتلك الطريقة ، فنحن يمكن أن نصف الطريقة التي يتطور بها الإنسان منذ كان جنينا في بطن أمه ، إلى أن يخرج طفلا ، فينمو شابا ، فيصير شيخا ، ولا نجد في هذا ما يتعارض مع إيماننا بأن الله تعالى

هو الذي خلق هذه الأطوار الإنسانية كلها ؛ فالله تعالى يقول : { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ } ، وقال تعالى : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) } ، فليس هنالك من حيث المادة تناقض في ذلك ، وهذا لا يطعن في إيمان المؤمنين ، ولا يشككهم في دينهم ولا في إيمانهم .

{بيان شرك الملحدين}

ولا تستغربن بعد أن يقال : عن الملحدين مشركون ؛ فالشرك نقيض التوحيد ، وهم مشركون ، بل هم يريدون أن يكونوا في مرتبة أرقى من الشرك ؛ لأن الشرك يثبت وجود الله ، ثم يجعل له شريكا ، وأما هم ؛ فينكرون وجود الله تبارك وتعالى ؛ ولكن هم مع ذلك يثبتون إلها بصورة من الصور ، وأنت تعلم أن التوحيد الواجب لا يتم إلا بأمور ثلاثة :

أولا : أن يعتقد الإنسان أن الله تعالى هو الرب الخالق البارئ المصور.....إلى آخر صفات الربوبية ، إلى أن يعتقد أن هنالك أفعالا لا يفعلها ولا يستطيع فعلها إلا الله سبحانه .

ثانيا : أن يعتقد أن هذا الرب سبحانه هو وحده المتصف بكل صفات الكمال ، فلا يضيف إليه صفة نقص ، ولا يسلبه صفة كمال ، ولا يصف غيره بصفة من هذه الصفات .

فالأول هو توحيد الربوبية ، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات .

ثالثا : أن يعتقد أن هذا الرب سبحانه وحده هو الإله الذي يستحق العبادة ؛ فلا يعبد معه غيره ، وهذا هو توحيد الألوهية .

والأول – يعني توحيد الربوبية – هو أساس توحيد الأسماء والصفات ؛ لأنك لن تثبت صفة لمعدوم ، وإنما تثبت الصفات للموجود ؛ فلا بد من إثبات الوجود أولا ، وأيضا هو أساس توحيد الألوهية ؛ لأن الإنسان لا يصف الله بصفات الكمال ، ولا يراه مستحقا للعبادة ؛ إلا إذا علم أنه وحده المتصف بصفات الربوبية تلك ؛ ولذلك تجد القرآن يجعل هذه الحقيقة أساسا في دعوته للمشركين الذين يسلمون بها – يعني توحيد الربوبية – ، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده ، إلى عدم

وصفه بما لا يليق ، أو وصف غيره بشيء من صفاته ، وإذا ؛ فالذي يعتقد في وجود خالق غير الله ، أو الذي يصف مخلوقا من مخلوقات الله ببعض صفات الله – كما يفعل الملحدون عندما يصفون الطبيعة ببعض صفات الله جل وعلا - ؛ فهذا مشرك بالله ؛ سواء اعتقد أن الله تعالى هو أيضا خالق ، أو لم يعتقد ذلك ؛ لكن هؤلاء الذين أنكروا وجود الخالق الحق – وإن كانوا قلة شاذة - ؛ إلا أن بعضهم يكون مؤثرا في الناس ، فيثير الشكوك في نفوسه ، حتى بالنسبة لهذا الأمر البدهي الذي فطر عليه الخلق ، ولذلك ؛ لم يهمل القرآن الكريم ذكر هذا الصنف من الناس ، ولم يهمل الرد على شبهاتهم ، رد على الذين يزعمون أنه لا خالق ألبتة ، كما رد على الذين اتخذوا خالقين غير الله الخالق الحق ، وأبان لهم أنه لا يمكن أن يكونوا خالقين حقا ، وإنما هم مخلوقون في الحقيقة .

فهذه كلها مقدمة تتبعها أيضا بعض المقدمات بين يدي الرد على الملحدين ، عسى الله تبارك وتعالى أن يجعل ذلك هداية لضال ، أو إرشادا لحائر ، أو تثبيتا لمؤمن على الإيمان الحق واليقين الثابت .

{ الفرق بين التصور والتعقل ، وبيان أقسام المعلوم }

{الفرق بين التصور والتعقل}

في قصة الإيمان بيان للفرق بين التصور والتعقل ، فالإيجاد من العدم غير مستحيل عقلا ، وإن كان الملحد يجده مستحيلا ، ويستبعده ، ويعجز عن تصوره ؛ ولكن عقولنا في مجال الأعداد الكبيرة تكل عن تصور حقائق واضحة ، وهذه الحقائق الواضحة لا تحتاج إلا لتأمل قليل ، وحساب يسير من نوع الجمع مثلا ، ويكون كلال العقول حينئذ غريبا جدا ، حتى إنها تماري في النتيجة ؛ ولو أخبرها بتلك النتيجة أصدق الناس وأعلمهم ، وتبقى العقول عاجزة عن تصور النتيجة ؛ ولو توصلت إليها بنفسها .

ألا تعرف أحجية الورقة المقطعة ؟

لو أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة ، سمكها جزء من مائة جزء من المللي متر ، وطلب منك أن تقطعها نصفين ، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا أربعة ، ثم تقطع الأربعة لتصبح ثمانية ، وهكذا إلى أن تكرر القطع والتضعيف ثماني وأربعين مرة .

إذا سئلت قبل أن تبدأ في القطع ، وقبل أن تحسب : كم تتوقع أن تصبح سماكة هذه الأوراق الرقيقة بعد قطعها ثماني وأربعين مرة ؟ فإنك مهما بالغت في التقدير ؛ لم تقل : إن سمكها يزيد على متر واحد أو مترين أو ثلاثة .

فإذا قيل لك : إن سمكها سوف يزيد على عشرة كيلو مترات ؛ لم تصدق .

وأما إذا قيل لك : إنك إذا كررت القطع إلى المرة الثامنة والأربعين ، ثم جعلت الأوراق المقطعة ركاما مرصوصا صاعدا إلى السماء ؛ فإنه يلمس أو يكاد يلمس القمر الذي يبعد عن الأرض أربعة وثمانين وثلاثمائة ألف كيلو متر ، إذا قيل لك ذلك ؛ نفرت ، وحسبت القائل يسخر منك ، وبعد أن تتحقق أنت بنفسك من ذلك بالحساب اليسير ، لو أردت تصوره ؛ فإنك ستجد عقلك كليلا عاجزا عن تصوره .

خذ قلمك واحسب هذه المسألة السابقة ، وجرب هذا الحساب فيما بينك وبين نفسك ، والله المستعان .

إذا ؛ العقل يقر ذلك ويثبته ، ولا يماري فيه ؛ ولكن التصور لا يثبته ، ويماري فيه .

إذا ؛ هنالك فرق بين التعقل والتصور ، فالإنسان قد يتعقل الشيء ويعجز في الوقت عينه عن تصوره .

سمك هذه الورقة المقطعة يقرب من أربعة وثمانين وثلاثمائة ألف كيلو متر ، حتى إنها لتكاد تلامس القمر كما مر ؛ ولكن هل تستطيع أنت أن تتصور هذه النتيجة بعد أن صنعتها بيدك ؟!

فهذه النتيجة الرياضية التي يقر بها العقل ولا يكذبها أحد لا يمكن أن يقرها التصور ؛ فإنك ما تزال تشعر بعد إقرارها عقلا بكلال عقلي عن تصورها ؛ فهل تدرك الآن أن عقولنا تكل أحيانا عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها ؟

وذلك ؛ لأن عقولنا خلقت عاجزة عن تصور كثير من الأشياء ؛ ولكنها تستطيع أن تحكم بوجودها عن طريق البرهان العقلي القاطع ؛ فالتصور غير التعقل .

هذه الشمس التي تراها ، العقل يثبت على حسب الحساب الدقيق الذي لا يمارى فيه أنها تبلغ مليون مرة مثل الأرض ، ومع ذلك فأنت تراها في السماء على هذا النحو ، وعقلك يكل عن تصور أنها عند التضعيف تزيد على مليون مرة من هذه الأرض .

فإذا ؛ التصور غير التعقل ، قد تستطيع تعقل شيء ولا تستطيع أن تتصوره ؛ لأن التعقل يعتمد على بدهيات أولية يأخذ العقل في ترتيبها ، وتركيبها ، واستنباط بعضها من بعض ، وبناء بعضها على بعض ؛ فيصل إلى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع العقل نفسه تصوره ، وهو الذي وصل إليه .

العلم الحديث اليوم يقر هذه الحقيقة ، فلا يبالي العلم الحديث بعجز العقل عن التصور ، فيعتمد على التعقل وحده ؛ لأن الحقائق العلمية أصبحت في مجالاتها وكميتها وأعدادها فوق التصور ، ولأنهم يحسبونها ، ويعرفونها ، ويحكمون عليها عن طريق التعقل ، لا عن طريق التصور.

خذ مثلا أمواج النور :

أتحسب أن العلماء الذين حسبوا أن الأمواج التي تحدث ، فتحدث اللون البنفسجي تكون بسرعة ستين ألف موجة في البوصة ، هل تحسب هؤلاء العلماء الذين قرروا تلك الحقيقة يستطيعون تصور هذه السرعة لو أضمدوا عيونهم ، وأرهقوا خياله ؟! كلا ؛ لأن هذا العدد الهائل في هذه

المساحة الضئيلة يعجز العقل عن تصوره ؛ ولكن لا يعجز عن تعقله – أي : عن الحكم بصحته عن طريق العقل – .

وقد تصل الأعداد في الأبحاث الذرية الحديثة إلى مرتبة هائلة يكون عجز العقل عن تصورها أظهر لك ، وخذ مثلا :

إن العلماء يحسبون لك أن سرعة ذبذبات الصوت قد تصل إلى نصف مليون ذبذبة في الثانية الواحدة ، وهذا ثابت عندهم ثبوتا عقليا علميا قاطعا لا ريب فيه ؛ ولكن أتراهم يستطيعون تصور حصول هذا العدد الهائل من الذبذبات في ثانية واحدة ؟!

جرب أنت ؛ هل تستطيع أنت مهما أجهدت خيالك حصول ألف ذبذبة في الثانية ؟! فضلا عن مائة ألف ؟! فضلا عن نصف مليون ذبذبة في الثانية ؟!

ولكن هذا الشيء الذي تعجز أنت والعلماء عن تصوره هو أمر واقع لا ريب فيه ؛ فبأي شيء عرفوه ؟

إنهم عرفوه عن طريق التعقل بالحساب .

فالآن نفهم أن التصور غير التعقل ، وأن العبرة لقدرة العقل على التعقل ، ولا عبرة لعجز العقل عن التصور ، وهذا معنى قول العلماء : إن الخلق من العدم يمكن تعقله ؛ ولو كان الإنسان يستبعده أو يكل أو يعجز عن تصوره .

فهذا هو المراد من أحجية الورقة المقطعة وما تلاها من هذه الأمثلة ؛ من أجل أن يصل الإنسان إلى هذه القناعة العقلية من أنه يفرق بين التصور والتعقل ؛ لنصل في النهاية إلى أن الخلق من العدم يمكن تعقله ، ولكن العقل الإنساني مع إثباته عقلا ؛ فإنه يكل أو يعجز عن تصوره .

إذا ؛ الذين يقولون : إننا يمكن أن نثبت عقلا ، والعقل لا ينفي ذلك : أن هذا الكون وجد من العدم .

يقولون : هذا لا يمكن عقلا ؛ ولكننا لا نتصوره .

فنقول لهم : لا عبرة لنا بتصوركم ، لا نعتبره ، ولا نلتفت إليه ؛ للحقيقة التي مر ذكرها من أن العقل يثبت كثيرا من الأمور يتعقلها ، ويكل ويعجز في الوقت نفسه عن تصوره .

{أقسام المعلوم}

المباحث التي يقول عنها العلماء : الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات ؛ تتضمن أحكاما كثيرة فيما يتعلق بالوجود والجواز والاستحالة ؛ كقولنا مثلا بأن وجود الله واجب ، وأن وجود شريك له أمر مستحيل ، وكقولنا بجواز فعله سبحانه وتعالى لكل ممكن وتركه ، وكحكمنا على الأنبياء باستحالة وقوع الكبائر منهم ، وجواز المرض والموت في حقهم ، فمن الضروري إذا ما تعرضنا لهذه المسألة التي نحن بصدد التعرض لها بحول الله وقوته لها أن نعرف هذه الأحكام ، وهي : الوجوب ، والجواز ، والاستحالة ؛ لنعرف ما هو الواجب لذاته ؟

وما هو الممكن ؟ وما هو المستحيل ؟

الأمور المعلومة تنقسم إلى مستحيل وواجب وممكن ، فجميع الأمور التي نعلمها أو يمكن أن يتعلق بها علمنا تنقسم من حيث النظر إلى وجودها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : مستحيل الوجود لذاته .

الثاني : واجب الوجود لذاته .

الثالث : ممكن الوجود لذاته .

فأما تعريف المستحيل لذاته ومثاله :

فالمستحيل لذاته هو : ما كان عدمه لذاته من حيث هي ، أي : تقتضي ذاته العدم دائما بحيث لا تقبل الثبوت أصلا ، وذلك إذا نظرنا إليها دون اعتبار أمر خارجي عنها .

ومثال ذلك : اجتماع النقيضين ؛ كالوجود والعدم ، والحركة والسكون في شيء واحد بأن يكون الشيء موجودا معدوما في آن واحد ، أو متحركا ساكنا في آن واحد ، فهذا مستحيل .

فاجتماع النقيضين مستحيل لذاته ، فالشيء لا يمكن أن يكون موجودا معدوما أو متحركا ساكنا في وقت واحد .

ومن أمثلة المستحيل لذاته أيضا : وجود شريك لله جل وعلا ، فكل هذه الأمور يحكم العقل باستحالة وجودها بداهة أم عن طريق الدليل إذا نظر إليها في حد ذاتها .

وأما الواجب لذاته ومثاله :

فالواجب لذاته هو : ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، أي : ما تقتضي ذاته الوجود دائما بحيث لا تقبل العدم أصلا ، وذلك إذا نظرنا إليها دون أمر خارجي عنها نعتبره .

مثال ذلك : وجود الله تعالى ، ومنه : أخذ الجسم قدرا من الفراغ ، فلا بد للجسم أن يشغل قدرا من الفراغ ، وكذلك ثبوت الزوجية للعدد (٤) مثلا ؛ فإننا نحكم بضرورة احتلال أي جسم من لأجسام قدرا من الفراغ مهما صغر ، يتحقق فيه وجوده ، وإلا لما كان جسما موجودا ، وكذلك نحكم بضرورة كون العدد (٤) عددا زوجيا لا فرديا بمجرد تصوره ، وإلا لما كان هو نفس ذلك العدد ؛ بل كان إما ثلاثة أو خمسة أو غيرهما من الأعداد الفردية ؛ ولكن لا بد من إثبات الزوجية له .

ومن أمثلة الواجب لذاته أيضا : تقدم الأب على ابنه في الوجود ، وكون الكل أكبر من الجزء ؛ فإن هذه أمور يحكم العقل بوجودها ، وبوجوبها بداهة ، أو عن طريق الدليل بمجرد النظر إليها في ذاتها .

وأما الممكن لذاته ومثاله :

فالممكن لذاته هو : ما لا وجود ولا عدم لذاته من حيث هي ، أي : ما لا تقتضي ذاته الوجود أو العدم ، وذلك إذا نظرنا إليها دون اعتبار أمر خارجي عنها ، فإذا وجد ؛ فلأن غيره أعطاه الوجود ؛ ليس وجوده ليس من ذاته ، وهو يستوي في حقه الوجود والعدم ، فما دام يستوي في حقه الوجود والعدم ؛ فإذا وجد ؛ فلا بد من موجد له ، وإذا وجد ثم عدم ؛ فلا بد أن يكون هنالك من أعدمه ، وإذا عدم أيضا ؛ فلعدم سبب وجوده .

مثال ذلك : جميع الكائنات التي نراها أمامنا من الحيوانات والنباتات والجمادات ، وكذلك جميع أحوالها ؛ كنزول الأمطار ، وهبوب الرياح ، إلى غير ذلك من هذه الأمور التي تقع في هذا العالم ، فكلها ممكنة تحتاج إلى موجد لها ؛ لأنها يستوي في حقها الوجود والعدم ، توجد بعد عدم ، ثم يلحقها العدم بعد الوجود ، فوجودها إذا ليس ضروريا كوجود الواجب ، وإلا لما عدم ؛ لأن

الواجب لا يعدم ، وعدمها ليس ضروريا كعدم المستحيل ، وإلا لما وجدت ؛ لأن المستحيل لا يوجد ؛ بل كل واحد من الوجود والعدم جائزان في حقها .

قد يصير الممكن لذاته واجبا لغيره ، وذلك إذا اقتضى ذلك الغير وجوده بالضرورة ؛ كما إذا أراد الله وجود إنسان ، فإن وجوده يكون واجبا لذاته ، لا يكون حينئذ واجبا لذته ؛ بل واجبا لغيره ، وهو : تعلق إرادة الله به ؛ لأنه مادام أراد وجوده ؛ لا بد أن يوجد ، ولكن هم ممكن في الحقيقة ؛ لأنه استوى في حقه الوجود والعدم ، فلما أراد الله وجود ذلك الإنسان ؛ صار وجوده واجبا لا لذاته ؛ لأنه كان معدوما ، والواجب لذاته لا يكون معدوما ، وإنما يكون حينئذ وجوده واجبا لغيره ، لذلك مر في تعريف الواجب : أن وجوده لذاته حتى لا يعد منه ؛ ما يكون واجبا لغيره ؛ لأن الواجب لغيره – كما مر في المثال – من الممكنات .

كذلك قد يصير الممكن مستحيلا ؛ لكن لا لذاته ، بل يصير مستحيلا لغيره إذا اقتضى ذلك الغير عدم وجوده بالضرورة ؛ كما إذا أراد الله عدم إنسان ما في وقت معين ؛ فإن وجوده يكون مستحيلا ، لا لذاته ؛ أنه هو نفسه معدوم ، ولكن لغيره ، وهو : تعلق إرادة الله تعالى بعدمه ، فيكون مستحيلا لغيره ، لا مستحيلا لذاته .

لذلك مر في تعريف المستحيل أن عدمه لذاته ، حتى لا يعد منه ما يكون مستحيلا لغيره ؛ لأن المستحيل لغيره من الممكنات .

إذا كنا قد اعتبرنا المستحيل من قبيل الأمور المعلومة كما مر ؛ فليس ذلك على سبيل الحقيقة ، وإنما على سبيل المجاز ؛ فكل صورة ذهنية لا بد وأن تكون صورة مطابقة لأمر موجود في الخارج ، ولما كان المستحيل لا يوجد أبدا ؛ فإنه لا يمكن أن تكون له صورة ذهنية ، ولا أن يعد من الأمر المعلومة حقيقة ، وإنما المراد باعتباره من الأمور المعلومة ، وأنه من أقسام المعلوم : أن العقل فرض له مثالا ؛ ليتوصل بذلك الغرض إلى الحكم عليه بالاستحالة ؛ لأنك لا يمكن أن تتصور في الأمور المعلومة أن الشيء يكون موجودا معدوما في آن ، أو أن يكون متحركا ساكنا في آن ، هذا ليس له وجود ، ولا يمكن أن تفرض له صورة معلومة في الذهن ؛ فلماذا قلنا أنه من أقسام المعلوم ؟ لأن العقل فرض له مثالا ؛ ليتوصل بذلك الغرض إلى الحكم عليه بالاستحالة كما مر .

حكم المستحيل : أنه لا يقبل الوجود أصلا ؛ بل هو معدوم بالضرورة ، فاجتماع الحركة والسكون في شيء واحد أو في وقت واحد لا يوجد أبدا ، وكذلك تقدم الابن على أبيه في الوجود لا يتحقق أبدا ، والدليل على ذلك : أن العدم لازم من لوازم ذاته وماهيته لا يفارقها أبدا ؛ لأننا عرفناه كما مر بأنه : ما كان عدمه لذاته ، أي : ما تقتضي ذاته العدم دائما .

وإذا كان العدم لازما من لوازم المستحيل ؛ فإن المستحيل لو فرض وجوده ؛ للزم من ذلك مفارقة العدم له ، أي : لم يكن المستحيل معدوما ، وذلك يؤدي إلى كونه غير مستحيل بداهة ؛ لأن العدم لازم من لوازم ذاته ، فإذا وجد ؛ فإنه لا يكون مستحيلا ؛ كما تقول : إن التفكير لازم من لوازم حقيقة الإنسان ، فلو انتفى لازم تلك الحقيقة عنها بأن لم يكن مفكرا ؛ لما كان ذلك الإنسان إنسانا ، فلو انتفى لازم المستحيل عنه – وهو العدم – فأصبح موجودا لا معدوما ؛ للزم كونه غير مستحيل ، وكون المستحيل غير مستحيل على ذلك الفرض – وهو معنى سلب الماهية عن نفسها – أمر باطل ، فبطل ما أدى إليه ، وهو : فرض وجوده ، وثبت أنه لا يقبل الوجود ؛ سواء أكان في الذهن ، أو كان في الخارج .

ومنه : وجود شريك لله تبارك وتعالى كما مر .

وأما الممكن ؛ فله أحكام :

الممكن لذاته – كما مر – هو : ما لا وجود ولا عدم لذاته من حيث هي ، أي : ما لا تقتضي ذاته الوجود أو العدم .

بناء على هذا التعريف للممكن ؛ ثبتت له الأحكام الآتية :

الحكم الأول من أحكام الممكن : حاجته إلى السبب في وجوده وعدمه .

الشيء الممكن ؛ حيوانا ، أو نباتا ، أو جمادا يحتاج بالضرورة إلى سب في وجوده إذا وجد ، أو إلى سبب في عدمه إن معدوما أصلا ، أو طرأ عليه العدم بعد الوجود .

الدليل على ذلك : أن كلا من وجود الممكن وعدمه ليسا لذاته ؛ بل لغيره ، وأن ذاته لا تستلزم أحدهما بالضرورة دون الآخر ؛ بل تارة تكون ذاته موجودة ، وتارة تكون معدومة كما سبق في تعريفه .

فالوجود والعدم متساويان بالنسبة لذاته في جوازهما عليه – أي : على الممكن - ، وهذا مهم جدا ؛ لأن الممكن إذا كان وجوده ليس من ذاته ، وكانت هذه الأشياء كلها ممكنة بمعنى أنها حادثة ، وجدت بعد أن لم تكن ، وتصير إلى العدم بعد الوجود ؛ فمن الذي أعطاها الوجود ؟! لأن وجودها ليس من ذاتها ، فلا بد من أن هنالك من أعطاها الوجود .

فهذه المقدمة مهمة جدا في إثبات وجود الخالق العظيم سبحانه عند مناظرة الملحدين وغيرهم من الشكاكين ، وإلا ؛ فإننا لا نحتاج إلى مثل هذا ؛ لأن الله جعل الفطرة الإنسانية مقرة بوجود خالقها وباريها ومنشيها ؛ ولكن هذا كله إنما نأتي به ؛ لأننا نرد على الملحدين الماديين الدهريين الشكاكين الذين يشككون في وجود الخالق العظيم .

فنقول لهم : هذه أقسام المعلوم : مستحيل لذاته ، واجب لذاته ، ممكن لذاته .

والعقل لا يمكن أن يأتي برابع ، ثم يقال لهم : انظروا إلى هذا الخلق جميعه وإلى أنفسكم ، فأنتم وجدتم بعد أن لم تكونوا موجودين ، ثم تصيرون إلى العدم بعد الوجود ؛ فمن الذي أعطاكم الوجود ؟! ومن الذي أعطى هذا الخلق كله الوجود ؟!

لو وجد شيء ممكن يستوي في حقه الوجود والعدم بلا سبب يرجح وجوده على عدمه ؛ للزم رجحان أحد المتساويين ، وهو الوجود على العدم ، فيكون ترجيحا بلا مرجح .

يعني : إذا وجد شيء ممكن كان معدوما فوجد ، فإذا قيل : إنه وجد بلا سبب ؛ فإننا حينئذ نقول : لقد رجحتم أحد المتساويين بلا مرجح ، وهذا يرفضه العقل ؛ لأنه يقتضي كونهما غير متساويين ، وأن الوجود أرجح من العدم ؛ لأنه وجد بلا سبب !!

وإنما في التعريف رأينا أن الممكن تساوى الوجود والعدم بالنسبة لذاته.

وكذلك تقول : إذا عدم شيء ممكن بلا سبب يرجح عدمه على وجوده ؛ للزم رجحان أحد المتساويين – وهو العدم ، فقد رجحناه على مساويه ، وهو الوجود بالنسبة للممكن – بلا مرجح

، وهذا باطل ؛ لأنه يقتضي كونهما – يعني الوجود والعدم – غير متساويين ؛ لأننا رجحنا أحدهما على الآخر وهما متساويان !!

فلا يمكن أن يرجح أحد المتساويين على الآخر إلا بمرجح ، وهاهنا رجحنا بلا مرجح ، وقلنا :

هكذا ! هو عدم بلا سبب !!

هكذا ! هو وجد بلا سبب !!

ويقتضي أن العدم أرجح من الوجود بالنسبة للممكن الذي عدمه من غير سبب ، بينما رأينا في تعريف الممكن : تساوي الوجود والعدم بالنسبة لذاته ؛ ففي ذلك جمع بين النقيضين ، وهما : التساوي وعدم التساوي في شيء واحد .

واجتماع النقيضين باطل ؛ فلا بد إذا من السبب في وجود الممكن وعدمه .

وهذه المقدمة تكفي وحدها في الرد على الملحدين .

وما مضي في هذا الحكم الأول من أحكام الممكن من بسط القول في إبطال رجحان أحد المتساويين بلا مرجح ، وأن ذلك إنما كان لاستلزامه اجتماع النقيضين كما مر ، بسط القول في ذلك ؛ لحاجتنا إليه في الأحكام الآتية ، بحيث يكتفى في ذلك بما مر ذكره هنا عن إعادة القول فيه فيما بعد .

الحكم الثاني من أحكام الممكن : حدوث الممكن :

كل شيء من الممكنات الموجودة حادث ، ومعنى كون الممكن حادثا : أنه وجد بعد أن كان معدوما ، فحدوث الشيء : وجوده بعد عدمه ؛ لأنك ستجد هذا الكلام كثير الدوران على لسان العلماء من سلفنا الصالحين ؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وغيرهما من علماءنا المتقدمين .

ستجد كلمة {الحدوث} ، وأن هذه المخلوقات حادثة ، وأن الحدوث وقع ، إلى غير ذلك .

فمعنى كون الممكن حادثا : أنه وجد بعد أن كان معدوما ، فحدوث الشيء : وجوده بعد عدمه ؛ فأنت والكتاب والقلم الذي في يدك ، والورقة التي تكتب عليها ، وكل ما تراه من الأمور حادثة ؛ لأنها وجدت بعد أن لم تكن موجودة .

والدليل على حدوث الممكنات ينبني على مقدمة لا بد من بيانها أولا .
هذه المقدمة هي : أننا قد مر في الحكم السابق تقرير حاجة الممكنات إلى السبب في وجودها وعدمها ، فلو وجد أمر ممكن ؛ فإما أن يوجد قبل وجود سببه ، أو أن يوجد مع سببه فيوجد السبب والممكن معا ، أن يوجد الممكن بعد وجود السبب .
فهذه هي الاحتمالات أو الفروض العقلية الثلاثة :
الفرض الأول – وهو : وجود الشيء الممكن قبل وجود سببه - : هذا باطل ؛ لأن الممكن محتاج إلى السبب في وجوده ، وهذا الفرض يؤدي إلى تقدم الشيء المحتاج – وهو الممكن – على المحتاج إليه في الوجود – وهو السبب - ، وفي ذلك إبطال لحاجة الممكن إلى السبب في وجوده ما دام قد وجد قبل سببه ، إذا هو لا يحتاجه ؛ فقد وجد من دونه !! وقد مر أن الممكن يحتاج إلى السبب في وجوده ؛ لأن حاجة الممكن إلى السبب أمر ثابت بالضرورة كما مر .
فتقدم الممكن على سببه بالوجود فرض باطل .
الفرض الثاني – وهو : وجود الممكن مع وجود سببه مقارنا له في آن واحد - : وهذا الفرض باطل أيضا ؛ لأن وجود الممكن مع وجود سببه يستلزم تساويهما في رتبة الوجود ؛ فقد وجدا معا ، أي : لا يكون لأحدهما على الآخر ميزة في وجوده ما دام قد وجدا معا في آن واحد ، وبذلك يكون الحكم بأن أحدهما سبب في وجود الآخر ، وعلة مؤثرة فيه ؛ يكون ترجيحا لأحد المتساويين على الآخر بلا مرجح ، وهو باطل كما مر ؛ لأنه يستلزم كونهما غير متساويين ، وذلك تناقض.
وإذا كان قد بطل تقدم الممكن على سببه ، وبطل مقارنته له في الوجود ؛ صح الفرض الثالث ، وهو : وجود الممكن بعد وجود سببه ، فلا بد من تقدم الموجد على الموجود ، لا بد من تقدم الخالق على المخلوق ، وهذا هو ما يراد الوصول إليه .
بناء على هذه المقدمة – وهي : ضرورة وجود الممكن بعد وجود سببه- ؛ يقام الدليل على حدوث الممكن على النحو الآتي :
أن تقدم السبب على الممكن بالوجود يقتضي وجود السبب وحده أولا ؛ لأن الممكن يكون معدوما ، فيوجد سببه أولا من غيره ؛ لأنه لا يمكن أن يقارنه في الوجود ، فيوجد السبب أولا

والممكن يكون معدوما لا وجود له ، ثم يوجد الممكن بعد ذلك ، يوجده السبب في وجوده ، وعند وجود السبب وحده وقبل أن يوجد الممكن ؛ يكون معدوما ، أي : أن وجود الممكن يكون مسبوقا بالعدم عند وجود السبب وحده ؛ فيكون حينئذ حادثا ، أي : وجد من بعد العدم ؛ لأن معنى الشيء الحادث كما مر : هو ما يوجد بعد عدم ؛ فكل ممكن حادث ، فالابن مثلا يكون معدوما عند وجود أبيه وحده قبل أن ينجبه ، ثم إذا أنجبه ؛ كان وجود ذلك الابن حادثا ؛ لأنه وجد بعد أن لم يكن ، وهذا هو معنى الحدوث الثابت في كل أمر ممكن .

الحكم الثالث من أحكام الممكن : عدم حاجة الممكن في عدمه إلى سبب وجودي :

لكل أمر ممكن حالان : حال وجوده ، وحال عدمه ؛ لأنه يستوي في حقه الوجود والعدم .

فالممكن الموجود لا بد له في وجوده من سبب وجودي أوجده ، فكل ما تحسه بحواسك من الكائنات الموجودة لا بد وأن يكون سببها موجودا حتى يعطيها وجوده ؛ لأن السبب المعدوم لا يكون مصدرا للوجود ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، فالذي أعطى هذه الموجودات وجودها لا بد أن يكون متصفا بالوجود .

وأما الممكن المعدوم ؛ فإنه لا يشترط فيه أن يكون لعدمه سبب وجودي ؛ لأن العدم سلب ونفي ، والنفي لا يحتاج إلى إيجاد ؛ بل يكفي في عدم الأمر الممكن عدم السبب في وجوده ، وفي حفظ بقائه ، أو عدم التأثير فيه .

مثال ذلك : أنه يكفي في ظلام حجرتك – وهو : عدم النور فيها - : ألا يوجد فيها من ينيرها ، أو أن يوجد ولا يقوم بإضاءتها ، فينعدم تأثيره في إضاءتها ، ولا يبقى التيار الكهربائي الحافظ لبقاء نورها ، فيمكن ألا يوجد في الحجرة فتبقى مظلمة ، ويمكن أن يوجد وينعدم تأثيره فلا يؤثر في إزالة الظلام منها ، فيبقى في الظلام يريد أن ينام مثلا ، فيكون موجودا ومع ذلك فإنه لا يذهب هذا الظلام ، ولا يوجد النور في الحجرة .

عدم نور الحجرة يكفي في عدم وجود أحد فيها ، أو عدم تأثيره بإضاءتها ، أو عدم التيار الكهربائي الحافظ لبقاء نورها .

فالعدم لا يحتاج إلا إلى عدم مثله ؛ وبذلك يتحقق ما مر من أن الممكن لا يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي ؛ بل يكفي فيه السبب العدمي .

أو بتعبير آخر : يكفي فيه عدم وجود سببه ، أو عدم تأثير ذلك السبب فيه ، فيكون معدوما مع وجود السبب الذي يمكن أن يوجده ؛ ولكنه لا يؤثر فيه بالوجود .

إذا ؛ من أحكام الممكن : عدم حاجته في عدمه إلى سبب وجودي .

الحكم الرابع من أحكام الممكن : حاجة الممكن إلى السبب في بقائه :

فكما أن الممكن يحتاج إلى السبب في ابتداء وجوده ؛ فهو كذلك يحتاج إلى السبب في حفظ بقائه موجودا .

والدليل على ذلك : أن الممكن لا تقتضي ذاته الوجود أو العدم ، ومن ثم ؛ لا يرجح لها – أي لذاته – الوجود على العدم من حيث هي ؛ بل لا بد في وجود الممكن إذا وجد ؛ من سبب خارجي يرجح وجود ذلك الممكن على عدمه ، فحاجة الممكن إلى السبب في وجوده ؛ لازم من لوازم حقيقة الإمكان ، لا ينفك عنها في أي حال من الأحوال طالما كان موجودا ؛ سواء كان في ابتداء وجوده ، أو في بقائه ؛ لأنه يستمد وجوده من غيره ، فلا بد من استمرار سبب وجوده ، فهو يحتاج إلى موجد في ابتداء وجوده .

هذا الكون كله كان معدوما ، فأوجده الله رب العالمين ، فأوجد سبحانه هذه المخلوقات كلها من العدم ، هذا أمر عقلي يثبته العقل ، فالعقل يثبت أن الموجود يمكن أن يكون موجودا من عدم كما مر ؛ ولكن العقل لا يتصوره ، وكما مر أننا لا نعتبر التصور عند وجود التعقل ، فنحن نتعقل الشيء في كثير من الأحيان ، ولا نستطيع تصوره.

كان هذا الكون معدوما فأوجده الله ، إذا ؛ السبب في وجوده الذي أعطاه الوجود هو الله ، وهو محتاج – أي هذا الوجود – إلى من يمده في حال كونه موجودا بالوجود طالما ظل موجودا ؛ لأن

وجوده ليس من نفسه ، وهذا فيه رد على الفلاسفة الذين مر ذكر بعض أقوالهم من أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الخلق ، ثم تركه وانشغل بالمثاليات ، فيثبتون خالقا خلق الخلق ثم أهمله .

فيقال : لا ؛ لأن وجود هذا الموجود الذي كان معدوما يستمد وجوده ممن أوجده ممن ابتدأ إيجاده ، ثم هو بحاجة إليه في استمرار وجوده .

فحاجة الممكن إلى السبب في وجوده ؛ لازم من لوازم حقيقة الإمكان ، لا ينفك عنها في أي حال من الأحوال طالما كان موجودا ؛ سواء كان في ابتداء وجوده ، أو في بقائه ؛ فنحن نصف أي كائن أمامنا بأنه ممكن موجود ؛ لأنه أمامنا ، إذا ؛ له وجود ، فهو ممكن من أن لم يكن موجودا ، وهو حادث أيضا ، ثم هو موجود ؛ فنصفه ما دام أمامنا بأنه ممكن موجود ، فنحكم بحاجته إلى السبب عند ابتداء وجوده ؛ لأن وجوده لا لذاته كما مر في تعريف الممكن ، وإنما وجوده من غيره ، ثم نصفه في اللحظة الثانية والثالثة والرابعة إلى آخر أوقات بقائه بأنه موجود كذلك .

ومن هنا يجب علينا أن نثبت حاجته إلى السبب في كونه موجودا لحظة بعد أخرى ، أي : في بقائه ؛ لما مر ذكره من أن وجوده ليس لذاته ، بل لغيره باعتباره أمرا ممكنا يستوي في حقه الوجود والعدم ، فوجوده ليس من ذاته ، وإنما من غيره ، فأعطاه الوجود ابتداء ، وهو – أي هذا الموجود – بحاجة إلى السبب الذي أوجده في استمرار وجوده ، وهو ما يراد إثباته من حاجة الممكن في بقائه موجودا إلى السبب كحاجته إليه في ابتداء وجوده .

{ ما هي حقيقة السبب ؟ وما الفرق بين السبب والشرط والمعد ؟ }

معنى السبب الحقيقي الذي أثبتنا حاجة الممكن إليه في أحكامه السابقة : هو منشأ الإيجاد ، ومعطي الوجود .

قد يعبرون عنه بالموجد ، أو بالعلة الموجدة ، أو بالعلة الفاعلة ، أو بالفاعل الحقيقي ، إلى غير ذلك من الجمل التي تختلف صيغها ولا تختلف معانيها .

قد يطلق السبب أحيانا إطلاقا مجازيا على الشرط أو المعد ، ومما يتوقف عليه وجود الممكن : الشرط أو المعد ؛ وإن كان بين هذه الثلاثة فرق في الحقيقة .

فعندنا الآن ثلاثة مصطلحات : السبب والشرط والمعد .

وقبل أن نبين المقارنة بين السبب الحقيقي من جانب ، والشرط والمعد من جانب آخر ؛ نسوق لكل من هذين الأخيرين مثاله ، ونذكر حكمه بحيث يتضح الفرق بينه وبين غيره .

فمثال الشرط : البناء في بناء البيت ، فالبناء لا يعطي الوجود للبيت الذي يبنيه ، إذ لا يخلق مواد بنائه ؛ ولكنه حسب ما أودع الله في الكون من سنن شرط لا بد منه في بناء البيت ؛ وذلك لما يرسم في عقله لذلك البيت من صورة ، وما يبذل في بنائه من حركات خاصة تتعلق بالبناء ، فهو شرط في وجود هذا البيت ؛ ولكنه لم يعطه وجوده ، ومع ذلك ؛ فوجود البيت متوقف على هذا الشرط ، فالبيت يحتاج إلى البناء في وجوده ؛ ولكنه يستغني عنه في بقائه ، فقد يموت البناء ويبقى البيت بعده .

فالشرط يكون ضروريا في وجود المشروط ؛ ولكنه لا يكون لازما لوجوده .

وأما المعد ؛ فمثاله : الخطوة الأولى ، فإنها تعد وتهيأ لوجود الخطوة الثانية بحيث لا يمكن أن تكون هناك خطوة ثانية من باء إلى جيم إلا إذا سبقتها خطوة أولى من ألف إلى باء ، وهي بهذا الاعتبار تسمى معدا ؛ لأنها تعد للخطوة التي تليها ، فإذا فرضنا مثلا : ثلاث نقاط : ألف وباء وجيم .

الخطوة من باء إلى جيم لا بد أن تكون لاحقة للخطوة من ألف إلى باء ، فتكون الخطوة الأولى من ألف إلى باء معدة للخطوة التي تليها من باء إلى جيم ، فهي بهذا الاعتبار تسمى معدا .

إذا كان الشيء الممكن يتوقف في وجوده على وجود الشرط فقط ؛ فإنه يتوقف على وجود المعد ، ثم يتوقف على عدمه ، فالمعد يوجد ، ثم يعدم – يعني : يفنى – .

الخطوة الثانية تتوقف على وجود الخطوة الأولى أولا ، ثم على انتهاء تلك الخطوة الأولى وعدمها ؛ ليبدأ السائر في الخطوة الثانية ، إلا ؛ لما وجدت تلك الخطوة الثانية ، فإنها لا توجد إلا بعد فناء الأولى .

أما إذا ظل في الخطوة الأولى ؛ فلا يمكن أن يدخل على الخطوة الثانية .

لا بد من انقضاء وانتهاء الخطوة الأولى – وهي المعد – للخطوة الثانية.

فهذا هو الفرق بين الشرط والمعد .

أما الفرق بين الشرط والمعد من جانب ، والسبب الحقيقي من جانب آخر :

فالسبب الحقيقي : هو الذي يسبق الممكن بالوجود ، ثم يعطيه إياه ، ويكون ذلك الممكن مستفيدا لوجوده من سببه ، وذلك المعنى لا يتحقق في الشرط ؛ لأن البناء مثلا ليس هو الذي أوجد مواد البناء ، ولا يتحقق أيضا في المعد ؛ لأن الخطوة الأولى ليست هي التي أوجدت الخطوة الثانية ؛ بل أوجدهما معا غيرهما ، ولأن الخطوة الأولى لو كانت هي السبب في وجود الخطوة الثانية ؛ لبقيت معها ، بينما رأينا أنها لا توجد إلا بعد انتهاء الخطوة الأولى .

فإذا كان الشيء يتوقف في وجوده على الشرط أو المعد ؛ فإنه يستمد الوجود من سببه .

وهناك فرق بين توقف الشيء على غيره ، واستفادته الوجود منه :

الفرق الأول : في السبب : الشيء يستمد الوجود من غيره ، وأما الشرط والمعد ؛ فإن الشيء يتوقف وجوده عليه ؛ ولكنه لا يستمد الوجود منه كما مر ، فهذا فرق .

الفرق الثاني : أن الممكن لا يستغني عن سببه في بقائه على أي حال من الأحوال ، وذلك المعنى لا يتحقق في الشرط ؛ فالبيت يستغني عن البناء في بقائه ، إذ يموت البناء ويبقى البناء موجودا .

ولا يتحقق أيضا هذا في المعد ؛ بل إن الخطوة الثانية لا تستغني في بقاءها عن الخطوة الأولى فقط ؛ بل إنها لا تتحقق إلا إذا انعدمت تلك الخطوة الأولى .

وأما وجه إطلاق السبب على الشرط والمعد إطلاقا بصورة ما مع هذه الفوارق ؛ فلأنهما يشبهان السبب في توقف الشيء عليهما ، وفي سبقهما له بالوجود ؛ لأنك ستجد تداخلا بين هذه الإطلاقات عند كثير من أهل العلم الذين تعرضوا للدهريين ، وللفلاسفة ، وللمناطقة ، ولغير ذلك من هذه الفئات الضالة والأهواء الجامحة .

مر معنا في هذه المقدمة تعريف أقسام المعلوم الثلاثة ، وهي : المستحيل ، والواجب ، والممكن ، ومر بين حكم كل من هذه الأقسام .

{ من الأدلة العقلية على وجود الله جل وعلا }

الكائنات ممكنة ، فنحن نرى أمامنا في الكون أشياء توجد وتعدم ، أناس يولدون ، وآخرون يموتون ، ونباتات وحيوانات توجد ، وأخرى تعدم ، إلى آخر ذلك .

هذه الكائنات إما أن تكون من قسم المستحيل ، أو من قسم الواجب ، أو من قسم الممكن ؛ لأنه لا قسم وراء هذه الأقسام الثلاثة .

لا يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم المستحيل ؛ لأن المستحيل : ما عدمه لذاته ، ولا يقبل الوجود أبدا ، وهذه الكائنات نراها توجد بعد أن لم تكن موجودة .

وكذلك لا يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم الواجب ؛ لأن الواجب : ما وجوده لذاته ، ولا يقبل العدم أصلا ، وهذه الكائنات يلحقها العدم ، إما قبل وجودها ، أو بعد وجودها تصير إلى العدم .

إذا لم يصح أن تكون هذه الكائنات من قسم المستحيل أو من قسم الواجب ؛ وجب أن تكون من قسم الممكن ؛ إذ ليس هنالك قسم آخر سواه ، فهذه الكائنات إذا ممكنة ؛ لأنها تقبل الوجود تارة ، وتقبل العدم تارة أخرى ، فهذا مما يدل عليه العقل ضرورة .

وهذا الممكن – أعني : هذه الكائنات – موجود قطعا ، فإذا كانت هذه الكائنات ممكنة ، ونحن نحس بوجودها ثم عدمها إحساسا ظاهرا ؛ كان حكمنا عليها بأنها موجودة حكما بديهيا لا يحتاج إلى استدلال ، بل يكفي فيه مجرد توجيه الإحساس إلى الكون من حولنا ، بل إلى أنفسنا ذاتها .

إذا ؛ هذه الكائنات - كما مر – من قسم الممكن ، وهذه الكائنات الممكنة موجودة ، لا يماري في ذلك أحد ، بل لا نحتاج إلى دليل عقلي لإثبات وجود هذه الممكنات – أي : هذه الكائنات - ، بل يكفي أن نوجه الإحساس إلى الكون من حولنا ، بل إلى أنفسنا ذاتها ؛ لنثبت أن هذه الكائنات أو هذه الممكنات موجودة قطعا .

فالممكن موجود قطعا ، ووجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب ؛ فجملة الكائنات الموجودة ممكنة قطعا ، وكل ممكن موجود محتاج إلى سبب موجود يعطيه الوجود ، وذلك السبب هو واجب الوجود .

ما الدليل على ذلك ؟

الدليل الأول على ذلك : أن كل ممكن وجوده من غيره ؛ فجملة الكائنات الممكنة إذا محتاجة إلى سبب موجود يوجدها ، وذلك السبب إما أن يكون عين هذه الكائنات ، أو جزءها ، أو غيرها ؛ لأنك تجد الملحدين لا يمارون في أن هذه الممكنات احتاجت إلى سبب ؛ وكنهم يقولون : وجدت بالصدفة ! أوجدتها الطبيعة ! أوجدت نفسها ! إلى غير ذلك من هذه الأمور التي هي مردودة عقلا .

فإذا ؛ جملة الكائنات الممكنة تحتاج إلى سبب موجود يوجدها ، وذلك السبب إما أن يكون عين هذه الكائنات ، أو جزءها ، أو غيرها ، ولا يجوز أن تكون هذه الممكنات سبب وجودها ، إذ يلزم على ذلك تقدم الشيء على نفسه بالوجود ، أي : أن تكون هذه الكائنات موجودة باعتبارها سببا ؛ لأن السبب لا بد أن يكون سابقا للمسبب كما مر ، فإن الذي أوجد الممكن لا بد أن يكون سابقا على وجود هذا الممكن ، وقد مر إثبات ذلك بالطريقة العقلية ، فكذلك هنا : لا يجوز أن تكون هذه الممكنات أو أن يكون هذه الوجود سبب وجود نفسه - أي : أن هذا الكون هو الذي أعطى نفسه الوجود - ؛ لأن هذا يلزم عليه تقدم الشيء على نفسه بالوجود – أي : أن تكون هذه الكائنات موجودة باعتبارها سببا قبل أن توجد باعتبارها مسببة - ، وفي هذا اجتماع للنقيضين في شيء واحد وحالة واحدة ، وهما : الوجود والعدم ، والتقدم والتأخر . فبطل هذا .

ولا يصح كذلك أن يكون جزء هذه الممكنات أو أن يكون جزء هذا الوجود السبب في وجوده ؛ لأن ذلك الجزء إن فرض أنه أول جزء وجد من هذه الكائنات ؛ فإنه يكون سببا في وجود نفسه باعتباره جزءا من هذه الكائنات التي هو سبب في وجودها جميعا ، وكون الشيء سببا في وجود نفسه محال كما مر .

كذلك إذا فرض أن ذلك الجزء ليس هو الجزء الأول ، بأن كان الجزء العاشر أو العشرين مثلا – أي الذي لم يوجد في أول زمن وجدت فيه هذه الممكنات ، بل وجد في زمن متأخر – ، إذا فرض ذلك ؛ فلا يصح أن يكون هو السبب في وجود جملة الكائنات ؛ إذ يترتب على ذلك كونه علة لنفسه ولما سبقه من الأجزاء ، وقد مر بطلان كون الشيء علة في نفسه .

وأما بطلان كونه علة لما سبقه ؛ فلأن سبب الشيء – كما مر – لا بد وأن يكون موجودا قبله حتى يعطيه الوجود ، فلا يوجد بعده أبدا ، وإلا فإن الشيء لو وجد قبل وجود سببه ؛ لما كان محتاجا إلى ذلك السبب ، وعدم حاجة الشيء إلى سببه باطل كما مر .

وإذا ثبت أن هذه الكائنات أو جزءها ليست سببا في وجودها ؛ تعين أن يكون سببها غيرها ، وذلك الغير إما مستحيل ، أو واجب ، فالمستحيل معدوم ، والعدم لا يكون مصدرا للوجود ؛ فتعين أن يكون سبب هذه الموجدات واجب الوجود ، هو الله جل وعلا .

هذا برهان عقلي ، وهذا هو الدليل الأول .

الدليل الثاني : هذه الممكنات الموجودة ؛ سواء كانت متناهية في العدد أو غير متناهية ؛ قائمة بوجود ، أي : أن تحققها في الخارج إنما كان لما ثبت لها من معنى الوجود ، وإلا لما وجدت ، فوجود هذه الكائنات في الخارج إنما كان لما ثبت لها من معنى الوجود ، وذلك الوجود إما أن يكون سببه معنى الإمكان القائم بالممكنات – وهو تساوي وجودها وعدمها – ، وماهيات تلك الممكنات وحقائقها باعتبارها أمورا يجوز عليها الوجود والعدم ، وهذا باطل ؛ لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود اقتضاء ضروريا بحيث يجب وجوده ، وإلا لما كان ممكنا ؛ لأن الممكن : ما استوى في حقه الوجود والعدم ؛ فتعين أن يكون مصدر الوجود في تلك الممكنات سواها ، وهو : واجب الوجود ضرورة ؛ لأنه لن يقول قائل : نعم ، سبب ومصدر هذه الممكنات سواها ؛ ولكنه المستحيل .

فيقال : إن المستحيل معدوم ، وعدمه لذاته ؛ فكيف يعطي الوجود لهذه الموجودات ؟!!

إذا ؛ تعين أن يكون موجدها واجب الوجود ضرورة ، يعني وجوده ليس من غيره ، بل وجوده لذاته من حيث هي ، وهذا الواجب –كما يقولون – له أحكام ؛ لأنه قد مضى تعريفه بأنه : ما

كان وجوده لذاته – أي ما تقتضي ذاته الوجود دائما بحيث لا يقبل العدم أصلا – ، فهذا هو الواجب .

{ من أحكام الواجب }

بناء على هذا التعريف للواجب ؛ ثبتت له هذه الأحكام الآتية :

الحكم الأول من أحكام الواجب : أنه أول أزلي .

والأول الأزلي هو : الذي لا أول لوجوده ، ولم يسبق وجوده بالعدم ؛ لأنه لو سبق وجوده بالعدم لكان ممكنا ، فيكون محتاجا إلى من يعطيه الوجود ، ويكون هنالك من أوجده بعد العدم .

إذا ؛ فالواجب أول أزلي ، والأول الأزلي هو : الذي لا أول لوجوده ، ولم يسبق وجوده بالعدم . يقابل الأول الحادث ، وهو : الذي لوجوده أول يكون مسبوقا فيه بالعدم ، فهذا حادث ، وأما الأول ؛ فلا أول لوجوده .

والدليل على أن واجب الوجود أول : أنه لو لم يكن أولا ؛ لكان حادثا ، وفي كلام العلماء استخدام للقديم بدل الأول ، فيقولون : والدليل على أن واجب الوجود قديم : أنه لو لم يكن قديما ؛ لكان حادثا .

ولكن هو الأول الذي ليس قبله شيء ، وقد مر أن استعمال القديم وإن كان فاشيا على ألسنة بعض من كتب في العقيدة كالسفاريني وغيره ؛ إلا أنه انتقد عليه ؛ لأنه ما من قديم إلا وهو حادث بالنسبة لما هو أقدم منه ، أو لما هو أقدم منه ، فالعرجون القديم هو قديم بالنسبة للعرجون الحادث ؛ وكان هذا العرجون القديم هو حادث بالنسبة للعرجون الذي هو أقدم منه ، فاستعمال القديم استعمال حادث ، يعني لم يستعمله القرآن ، ولا السنة ، ولا السلف المتقدمون ، وإنما دخل على العقيدة عندما ظهر علم الكلام ، فاستخدمه بعض علماء أهل السنة ، حتى في تقرير العقائد كما مر ذكر ذلك فيما يتعلق بالسفاريني رحمه الله .

وعودا لما كنا بصدد الكلام عنه نقول : والدليل على أن واجب الوجود أول : أنه لو لم يكن أولا ؛ لكان حادثا ، والحادث هو : ما سبق وجوده بالعدم ، فلو لم يكن الواجب أولا ؛ لكان وجوده مسبوقا بالعدم ، وذلك مستحيل على الواجب ؛ لأن الواجب : ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، بمعنى أن ذاته تقتضي الوجود دائما بحيث لا تقبل العدم أصلا ، فإذا قلنا : إنه كان معدوما ثم وجد ؛ فكيف يكون واجبا ؟!

فلو لم يكن الواجب أولا ؛ لكان وجوده مسبوقا بالعدم ، وذلك مستحيل على الواجب ؛ لأن كل ما سبق وجوده بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود ، وإلا لزم رجحان المرجوح - وهو الوجود - على العدم بلا سبب ، وهو محال .

فلو لم يكن الواجب أولا ؛ لكان محتاجا في وجوده إلى غيره ، وقد سبق أن الواجب : ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، فلا يكون الواجب واجبا على ذلك الفرض ، وهذا تناقض محال .

إذا ؛ هو الأول الذي ليس قبله شيء .

ويمكن أن يختصر هذا الدليل فيقال : إنه لو لم يكن أولا ؛ لكان حادثا مسبوقا في وجوده بالعدم ، وذلك باطل ؛ لأن العدم مستحيل في حق الواجب ، فذاته تقتضي الوجوب دائما ولا تقبل العدم أصلا ، وبذلك يجب أن يكون أولا .

الحكم الثاني من أحكام الواجب : البقاء .

ومعنى البقاء : أنه لا آخر لوجود الخالق العظيم ، ولا يلحقه عدم ؛ لأنه لو لحقه العدم من بعد الوجود ؛ لكان ممكنا ، والممكن : ما يستوي في حقه الوجود والعدم ، وقد مر أن الواجب : ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، أي أن ذاته تقتضي الوجود دائما ، بحيث لا تقبل العدم أصلا ، فإذا ما صار هذا الواجب إلى العدم ؛ فمعنى ذلك أنه لا يكون واجبا .

إذا ؛ من أحكام الواجب : الأولية ، وكذلك البقاء .

والدليل على بقائه : أنه لو لم باقيا بلا آخر لوجوده ؛ للحقه العدم ، والعدم مستحيل في حق الواجب كما مر ؛ لأن الوجود لازم من لوازم ماهية الواجب لا يفارقها ، فلو عدم الواجب ؛ لسلب لازم الماهية عنها ، أي لم يكن الواجب موجودا ، والواجب إذا لم يكن موجودا ؛ لا يكون

واجبا ، فيكون ذلك تناقضا ، فلو لم يكن الواجب باقيا ؛ لما كان واجبا ، وذلك محال ، فثبت للواجب البقاء ، فلا بد أن يكون لا أول له ، ولا آخر له ؛ لأن وجوده لذاته من حيث هي ، ليس من غيره .

الذي وجوده من غيره هو الممكن .

والمستحيل لا وجود له .

والعدم من لوازم ذاته .

وأما الممكن ؛ فهو الذي يوجد بعد العدم ، فوجوده من غيره ، ثم يصير إلى العدم من بعد الوجود ، فإذا شاء من أوجده أن يفنيه ؛ فني ؛ لأنه متوقف في وجوده على من يعطيه الوجود ، وهو : الواجب – الذي يكون وجوده لذاته حيث لا تقبل ذاته العدم أصلا – .

فثبت إذا الوجود لله عز وجل ، حتى بالدليل العقلي ، وأنت لا ترى هنا نصا لا من الكتاب ولا من السنة ؛ لأنك عندما تواجه الملحدين ؛ فإنهم أصلا ينكرون وجود الله جل وعلا ، وينكرون الرسالة ، وينكرون الوحي ، وينكرون البعث ، وينكرون القيامة ، ويقولون : نحن نعتمد على الحس ، أو نعتمد على العقل ، فإذا ما أتيت لهم بالنقل ؛ فإنهم لا يقبلون ، مع أن النقل أثبت هذا الذي نحن فيه بطريقة أخرى هي أوضح وأجلى وأدق وأحسن وأسمى من هذه الطريقة العقلية المجردة ؛ لأن الله تعالى يقول مخاطبا أولئك القوم : { أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون } ، فهذا هو ما نحن فيه ؛ ولكنهم لا يقبلون النص القرآني ؛ لأنهم ينكرون وجود الله الذي تكلم به .

أنت إذا قلت مثلا : لو لم يكن الإنسان مفكرا ؛ لما كان إنسانا ، فالتفكير من لوازم ذاته ، أي : من لوازم ماهية الإنسان ، فلو سلب عن الذات هذا اللازم ؛ لما كان الإنسان إنسانا .

هذه هي الطريقة العقلية التي يسلكها علماؤنا رحمهم الله تعالى أحيانا فيما يتعلق بالرد على الماديين ، أو الدهريين ، أو الملحدين ، كما هو الشأن في هذا العصر ، وهي نافعة جدا بفضل الله جل وعلا في إلزامهم الحجة .

{ نقض قانون المصادفة }

عندنا الآن أمر مهم : إذا سألك سائل عن هذه الأشياء المشاهدة في هذا العالم - كما في قصة الإيمان -: كيف تكونت وتركبت وصنعت؟

وما هي الفروض التي يمكن أن نتصورها ونفرضها ؟

إذا سألك عن هذا ؛ فإنما سألك كما سأل القرآن عما في ملكوت السماوات والأرض من أشياء مركبة ومتنوعة ، كيف يفرض أن تكون خلقت وتكونت بهذا التنوع ؟

هذه الصور والأشكال من التنوعات المركبة ، ولاسيما الحية منها ، أي من هذه المخلوقات ؛ كالنباتات والحيوانات والإنسان خاصة - ، لا العقل يقول بأنها قديمة بمعنى أنها لا أول لها ؛ لأنه يستحيل وهي مركبة ومتغيرة أن تكون قديمة ؛ لأن القديم عندهم لا يكون متغيرا ولا يكون مركبا ؛ لأنه لو كان مركبا ؛ لاحتاج بعض أجزائه إلى بعض ، فيكون حينئذ محتاجا ، ويقولون : القديم لا يكون محتاجا .

إذا ؛ هذه المخلوقات لاسيما الحية منها ؛ كالنباتات والحيوانات والإنسان خاصة - ، العقل لا يقول بأنها قديمة بمعنى أنها لا أول لها ؛ لأنه يستحيل وهي مركبة ومتغيرة أن تكون قديمة ، ولا العلم المادي يقول بأنها قديمة ؛ لأنه اكتشف في طبقات الأرض أنها حادثة ، ومعنى كونها حادثة : أنها مركبة ومصنوعة بعد أن لم تكن كما مر ، فكل ممكن حادث ؛ فكيف تفرض أن تكون صنعت وتكونت ؟

هنالك ثلاثة فروض لا رابع لها أبدا :

الفرض الأول : أن تكون هذه الأشياء من صنع الله ، لاسيما الحية منها ؛ لأنها هي التي يمكن أن يذهب الذهن فيها إلى أمور ؛ لأنها أعطيت الحياة .

الفرض الثاني : أن تكون هذه التنوعات كلها من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن إرادة وقصد وغاية ، أي أن عناصر المادة الأصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي تراها.

الفرض الثالث : أن تكون هذه التنوعات قد تكونت بطريق المصادفة ، أي أن الذرات تلاقت وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق المصادفة ، فتكونت العناصر الأصلية ، ثم تلاقت العناصر وتجمعت وتمازجت بالمصادفة ، على نسب صالحة بالمصادفة ، في مدد كافية بالمصادفة ، وأجواء ملائمة بالمصادفة ، فتكونت هذه التنوعات ، وخلقت الحياة من هذه المصادفات .

هذا هو الفرض الثالث ، ولا يوجد فرض رابع يمكن تصوره .

أما الفرض الأول – وهو : أنها من صنع الله – ؛ فهذا ما يقول به المؤمنون بالله ؛ سواء كان إيمانهم عن هداية دينية ، أو عن هداية عقلية ، فالملحد الذي تأتي له بالدليل العقلي على وجود الرب تبارك وتعالى ، فيقر بوجوده ، ويهتدي هداية عقلية ، فهذه هداية عقلية ، وجملة المؤمنين هدايتهم هداية قلبية ؛ لأن الله جعل مركوزا في الفطرة الإنسانية الإقرار بوجوده جل وعلا ، فالمؤمنون يقولون بالفرض الأول.

وأما الفرض الثاني وهو : أن تكون هذه التنوعات كلها من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن إرادة وقصد وغاية ، أي أن عناصر المادة الأصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها ، فقالت : نجعل السماء سماء والأرض أرضا والبحار بحارا ، والأناسي والحشرات والطيور والحيوانات .

هذه الفرض الثاني لا يقول به أحد مطلقا ، لا المؤمنون ولا الماديون ، بل إن هؤلاء الماديين لينكرون إنكارا قاطعا أن يكون لعناصر المادة إرادة وقصد وغاية .

إذا ؛ أصبحنا أمام فرضين لا ثالث لهما ، فإما أن تكون تنوعات العالم من خلق الله وصنعه ، وإما أن تكون نتيجة للمصادفة ، فإذا بطل أنها وجدت مصادفة ؛ لم يبق إلا الفرض الأول ، وهو أن تكون من صنع الله جل وعلا ؛ ولكن :

هل المصادفة أمر مستحيل عقلا ؛ أم هي أمر في حدود الإمكان ؟

تستطيع أن تجيب بالنفي وبالإيجاب في آن واحد ؛ فالمصادفة تكون أحيانا ممكنة ، وتكون أحيانا في حكم المستحيلة عقلا ، فعليك إذا أن تصوغ هذا السؤال هكذا ؛ تقول :

ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السليم ؟

جاء الآن دور الإبر :

خذ لوحا من خشب ، واغرز فيه إبرة ، وضع في ثقبها إبرة ثانية أخرى:

إذا رأى إنسان عاقل هاتين الإبرتين وسأل : كيف أدخلت الثانية في ثقب الأولى ؟

فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذي أدخلها رجل ماهر قذف بها من بعد عشرة أمتار ، فاستطاع أن يدخلها في ثقب الإبرة الأولى ، ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أيضا أن الذي ألقاها صبي صغير ولد من بطن أمه أعمى ، فلما قذفها هذا الصبي الأكمه ؛ وقعت في الثقب بطريق المصادفة ؛ أي الخبرين يصدق ؟

لا ريب أنه سيميل إلى تصديق الخبر الأول ؛ ولكنه أمام صدق المخبرين ، يرى أن المصادفة ممكنة ، فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ، يقول : يمكن ، هذا رجل صادق مصدق عندي ، وقال : إن هذا الصبي الأكمه الذي ولد أعمى ألقى الإبرة فوقعت في ثقب التي غرزت في لوح من خشب ، فيقول : هذا ممكن ؛ ولكنه يميل إلى تصديق الأول ، ولا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ؛ لكن :

إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في ثقب الثانية أيضا ؛ فهل يبقى عدم الترجيح على حاله ؟

كلا ، بل يتقوى ترجيح القصد على المصادفة ؛ لأن هذا الصبي إنما يأتي ما يأتي منه على سبيل المصادفة ؛ لأنه لا يرى شيئا منذ ولد ، وأما الأول ؛ فيأتي ما يأتي منه على سبيل القصد ، فحينئذ أنت ترجح القصد على المصادفة ؛ ولكن يبقى على كل حال ترجيحا ضعيفا .

إذا رأى الرجل أن هنالك عشر إبر ، كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها ؛ فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على ضعفه ؟

كلا ، بل يتقوى عنده ترجيح القصد حتى تكاد فكرة المصادفة أن تتلاشى .

لو جاءه إنسان من أولئك الذين يصدق فيهم قول الله جل وعلا : {وكان الإنسان أكثر شيء جدلا} ، وأخذ يجادله في معنى الاستحالة العقلية والاستحالة العادية ، ويبرهن له على أن المصادفة هاهنا ليست مستحيلة ، لا عقلا ولا عادة ؛ ولكنها تكون أحيانا مستبعدة ، فصاحبنا العاقل لا بد أن يذعن لكلامه ، وهو كلام عقلي ، وإن كان التصور هاهنا يتخلف عنه - كما مر أن الإنسان يمكن أن يتعقل ولا يتصور ، وأن كثيرا من الأمور نتعقلها ؛ ولكن العقل يكل عن تصورها- ، إلا أنه - يعني العقل - يذعن هاهنا ؛ لكن القلب يميل إلى ترجيح القصد ، ويقول : أما هذه المصادفة التي تقول : من هذا الصبي الذي ولد أعمى ، فهذه مع أنها غير مستحيلة عقلا ولا عادة ؛ إلا أنني أستبعدها ، فيستبعدها ويميل إلى ترجيح القصد ؛ ولكن فلنترقى في تعقيد الأحجية - أي اللغز - ، كما مر في أحجية الورقة المقطعة :

الإبر العشر مرقمة بخطوط ، لكل واحدة منها رقم ، من الواحدة إلى العشرة ، وقيل لنا في الخبر : إن الصبي الأعمى أعطي كيسا فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة ، وكان يضع يده في الكيس يستخرج الإبر تباعا على ترتيب أرقامها من واحد إلى عشرة بطريق المصادفة ، ويلقيها ، فتقع الأولى في ثقب المغروزة في اللوح ، وتقع الثانية في الأولى ، والثالثة في الثانية ، والرابعة في الثالثة ، وهكذا حتى تم إدخال الإبر العشر في بعض على ترتيب أرقامها ، وأن ذلك قد حصل كله بطريق المصادفة ، وجاء ذلك الإنسان الجادل يحاول أن يبرهن على أن إمكان المصادفة لم يزل موجودا وغير مستحيل عقلا ؛ فماذا يكون موقف صاحبنا العاقل مع هذا الجادل ؟

لا ريب في أنه لا يصدقه ؛ لأن المصادفة بهذا التتابع والتعاقب بعيدة جدا جدا إن لم تكن مستحيلة ؛ بل إنها في مجال الأعداد الكبرى تصبح مستحيلة بداهة ، وهذا البداهة تعتمد في أعماق العقل الباطن على قانون عقلي رياضي لا يمكن الخروج عنه ، فقانون المصادفة يقول : إن حظ المصادفة من الاعتبار يزيد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة ، فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ؛ ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها ؛ قل حظ المصادفة ، فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ؛ يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين ، وإذا كان التزاحم بين عشرة ؛ يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة ؛ لأن كل واحد له فرصة للنجاح

مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعا ، وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريبا من المتزاحمين ، حتى لو كانوا مائة أو ألفا ؛ ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخما هائلا ؛ يصبح حظ المصادفة في حكم العدم ؛ بل المستحيل ؛ وذلك لأنه إذا اتفق للصبي الأعمى أن سحب أول مرة الرقم {واحد} ؛ قلنا : إن حظ المصادفة للرقم {واحد} تغلب على الأعداد الأخرى المتزاحمة معه بنسبة واحد إلى عشرة ، وأما اتفق له أن سحب العددين {واحد} ، ثم {اثنين} بالتتابع ؛ قلنا : إن حظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسبة واحد ضد مائة ؛ لأن كلا من العشرة يزاحم للرتبة الثانية ضد عشرة ، فيصبح التزاحم بين مائة ، وإذا اتفق أن سحب الصبي الأعمى الإبر الثلاث {واحد واثنان وثلاثة} على التوالي ؛ قلنا : إن حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف ؛ لأن كلا من العشرة يزاحم ضد مائة ، وهكذا ، فإذا افترضنا أن الصبي سحب الإبر العشر على ترتيب أرقامها من واحد إلى عشرة ؛ فإن حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات .

هذه أحجية حسابية ، وهي مثل أحجية الورقة الرقيقة التي تقطع ثماني وأربعين مرة ، فيصل سمكها إلى القمر ، جرب هذا أيضا في هذه الإبر ، واضرب كل مرة حاصل الضرب بعشرة ، وستجد أن حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات ؛ ولكن :

على وجود هذه النسبة البعيدة التفاوت ، ربما يتصور متصور أن المصادفة في سحب هذه الإبر العشر على ترتيب أرقامها ممكنة وغير مستحيلة ، فلننتقل إلى ترتيب آخر في شكل آخر وأعداد أكثر :

لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها ؛ كالمطابع اليدوية القديمة ، كانت الحروف تكون في صندوقها .

فالآن أنت تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها ، فجاءت هزة أرضية {زلزال} ، فقلبت صناديق الحروف على بعضها ، وتبعثرت تلك الحروف واختلطت ، ثم جاءك منضد الحروف ليخبرك أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني ؛ هل كنت تصدق ؟

قد تقول : نعم ، أصدق .

فلو قال لك : إن الكلمات العشرة تؤلف جملة كاملة مفيدة ؛ هل كنت تصدق ؟
ستبعد ذلك جدا كما استبعدته في مثال الإبر العشر ؛ ولكن لن تراه مستحيلا .
فلو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابا كاملا من خمس مائة صفحة ، ينطوي على قصيدة واحدة ، تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها ؛ فهل كنت تصدق ذلك ؟!
أبدا لا تصدقه ؛ فلماذا لا تصدقه ؟
لأنك ترى الاستحالة هنا بديهية ؛ لأنك عندما تتصور أن الإبر العشر ألقيت على ترتيب أرقامها بالمصادفة ؛ لا تجد وجه الاستحالة واضحا وبديهيا كما تجده في مثال الكتاب ، في هذه الحروف المبعثرة .
ما السبب في ذلك ؟
السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه ، فالتزاحم بين الإبر المرقمة يجري بين عشر إبر على عشرة ترتيبات ، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة مليارات ، وهذه النسبة على تفاوتها الكبير ليست من العظم بحيث تحدث لك في عقلك تلك البداهة في إدراك الاستحالة ؛ ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين خمسمائة ألف حرف على تكوين خمسة وعشرين ومائة ألف كلمة تقريبا ، بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا ، وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جدا جدا لو قلت عنه : إنه مليار مليار مليار ؛ لكان قليلا ، ويكفيك لكي تدرك ضخامة العدد أن تعلم الإبر لو كانت اثنتي عشرة إبرة ؛ لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار ، ولو كانت إحدى وعشرين إبرة ؛ لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار ، فتصور ماذا تكون النسبة إذا كان التزاحم يجري بين خمسمائة ألف كلمة بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى !!
هذا في كتاب المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة ؛ فما قولك في كتاب الله الأعظم ؟! في خلق الله عز وجل التي يقول عنها ربنا جل وعلا : { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)} ، وقال جل وعلا : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} ، وتأمل في كل ذرة من مياه البحار وأشجار الأرض ، وتأمل في كل ما في الكون من ذرات وعناصر ، ونظم وقوانين ونواميس ، ونسب وروابط وعلائق ، وأقدار وأحجام وأوزان ، ومدد وأوقات وأزمان ، وصور وأشكال وألوان ، وحركات وسكنات وأوضاع ، وأجناس وأصناف وأنواع ، وتعال تتصور عدد ما في العالم عالم الخالق من شيء في ملكوت السماوات والأرض من الذرة إلى المجرة ، وتصور عدد ما يربط بينها في عالم الأمر من روابط وعلائق على اختلاف النواميس والأقدار والمدد ، والأشكال والحركات والأوضاع ، ثم تعال ندرس في ضوء العلم والقرآن بعض ما في هذا العالم من تقدير واتزان وتنظيم وترتيب وإحكام وإتقان ؛ لنعرف ما هو حظ المصادفة في تكوينه .

من جملة الآيات : قال تعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) } .

وقال : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) } .

وقال : { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) } .

وقال : { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) }

وقال : { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ } .

وقال : { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } .

وقال : { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } .

وقال : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) } .

وقال : { مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ } .

وقال : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } .

وقال : { وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) } .

وقال : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } .

هذا بعض كلام الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، النبي الأمي ، سليل القبيلة الأمية ، وربيب البيئة الأمية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، فتعال فانظر – كما أمر الله عز وجل – بعض ما في السماوات والأرض في ضوء العلم ؛ لترى : هل في خلقه ذلك التقدير والاتزان والإتقان والإحسان والتقويم الذي ذكره الله رب العالمين في القرآن كما في الآيات التي مرت ؛ ليبرهن على الخلق المقصود ضد المصادفة ، ولترى كم هو عدد الأشياء المتزاحمة التي ستخضع كما مر لقانون المصادفة عند القول بالمصادفة ، فهذه الأشياء المتزاحمة : ذرات وعناصر وأشكال ومقاييس وأوزان وخاص وطبائع ونواميس وأوضاع وظروف ومدد وأزمان وأجواء ، كلها في تكوين هذا العالم ، ثم تساءل : هل يعقل أن يكون هذا قد كتب له الفوز بهذا الترتيب الشامل الكامل الدقيق المقدر المتزن المتقن الجميل بمجرد المصادفة ضد عدد هائل من الممكنات الأخرى المتزاحمة ؟!!

ماذا يقول العلم عما في هذا العالم مما سبق ذكره ؟!!

فبطل هذا الفرض ، وهو القول بالمصادفة ، ولم يبق إلا الفرض الأول ، وهو أن يكون هذا الكون كله من صنع الله وخلقه ، وهو المطلوب إثباته .

بماذا ؟ بقانون العلم نفسه ، وبما دل العلم المادي نفسه ، وليس بالوحي ؛ وإن كان الوحي أجلى من هذا كله وأظهر ؛ ولكن عند المنصف الذي يقبله الذي ينظر في الآيات ، ويتأمل في الأحاديث ، وينظر في خلق الله رب العالمين وفي آياته التي بثها في تضاعيف هذا الكون المخلوق له ، ثم حينئذ يذعن لما دل عليه العقل بعد النظر في الآيات المتلوة ولآيات المنظورة ؛ لكن أين الإنصاف من الملحد ؟! وأين العدل منه ؟!!

فإذا كان يخضع لقانون العقل ؛ فهذا قانون العقل كما مر .

فإذا كان يخضع لقانون العلم المادي ؛ فهذا قانون العلم المادي كما مر أيضا .

وإذا كان يكابر ؛ فإنه لا حيلة في المكابر .

{ تحديد الصلة بين المدنية الحديثة والإسلام ، وبيان أن العلم الحديث قرآني في موضوعه }

{ تحديد الصلة بين المدنية الحديثة والإسلام ، وبيان الفرق بين المدنية والحضارة }

بَعد المقدمات والنتائج السابقة ؛ لا بد من التعريض مع التعريج على صنم العصر الحديث الذي يعبده الماديون الملحدون ، وهو الطبيعة ؛ ولكن هذه المدنية الحديثة التي غرت كثير من الناس حتى جعلتهم يتشككون في الأديان ؛ بل ويشكون في وجود الله تبارك وتعالى ، بل وصل الأمر بهم إلى حد إنكار وجوده جل وعلا ، هذه المدنية الحديثة يظن كثير من الخلق أنها غاية عليا ونظام كامل ، وليس كذلك .

قال الغبراوي رحمه الله :

قد يسبق إلى النفس أن المدنية الحديثة غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل ، أحدها الدين .

قال : ونحن نحاول أن نحدد الصلة بين المدنية القائمة وبين الإسلام ، أو بالأحرى : تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم ويبصرها الناس ويعرفونها ، والمدنية الغائبة كما جاء بها الإسلام ، وفي الحق أن هذه المدنية الحديثة بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات التي تحقق وجودها على مر الزمان ؛ فإن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها في الواقع جزءا من الفطرة التي طر الله عليها الكون ، وآية ذلك : أن يكون

فيها ما في سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء ، وهذا لا يتحقق بأي مدنية من المدنيات إلا إذا قامت على الحق في جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التي فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات .

وشيوع الخلل والاضطراب في النواحي الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل في هذه النواحي ، ودليل بعد هذه النواحي عن الفطرة ، وحسن جدا أنه يتكلم عن المدنية ولا يتكلم عن الحضارة ؛ لأن كثيرا من الناس يخلط بين الأمرين ، مع أن الغرب فرق بينهما كما فعل اشبنجلر الذي يقال له : فيلسوف الحضارة ، فإنه فرق بين المدنية والحضارة ، حضارة مجموعة القيم والمثل التي ترقي الروح ، وتأخذ بها إلى مدارج الكمال ، وأما المدنية ؛ فهي ما يتعلق بالتقدم المادي في جوانب الحياة بلون من ألوان التبسيط ؛ لكن إذا كان الباطل قد شاع في أكثر نواحي هذه المدنية ؛ فإن هناك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام ، يعني في هذه المدنية الحاضرة الحديثة ، ودانت للحق ، فهو فيها الحاكم المطاع ، تلك هي الناحية العلمية التي أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التي فتن بها الناس ، فظنوا هذه المدنية المعاصرة أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم يقدر عله المدنيات قبلها من طيران في الهواء ، وغوص في الماء ، وتسخير للبخار والكهرباء ، وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة ، ولكن إحسان استعمال القوة في سبيل الحق ، فهذا ما تتفاضل به المدنيات ، وإلا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها إلى ما يصير إليه البطل من الزوال .

هذه الناحية العلمية التي عز على الباطل أن يخترقها في هذه المدنية المعاصرة ، هذه الناحية العلمية هي فخر هذه المدنية الحديثة ، بها ستذكر في المدنيات إذا ذكرت المدنيات بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث ، ثم هي الناحية الوحيدة التي اتحدت فيها هذه المدنية الحديثة بالفطرة ، وإذ كان الإسلام دين الفطرة ؛ فهي الناحية الوحيدة التي تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الإسلام .

{ تأييد الإسلام للعلم ، وبيان أن العلم الحديث قرآني في موضوعه }

أما أن الإسلام يؤيد العلم ويحرص عليه ويكبر منه ؛ فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة في العلم ، فالإسلام هو التعليم والتعلم ، فإذا تلا من كتاب الله مثل قوله تعالى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ، ومثل قوله تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)} ، والآيات الكثيرة التي جعل الله سبحانه العلم فيها حكما بين النبي صلى الله عليه وسلم ومجادليه ؛ كقوله تعالى على لسان نبيه : {ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)} .

إن تدبر الإنسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث ؛ أدرك أن العلم على إطلاقه لم يكبر في دين من الأديان كما أكبر في الإسلام ، وأن دينا لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الإسلام المسلمين ، هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعا التأييد التام بالعلم بمعناه الخاص الطبيعي المستعمل فيه اللفظ اليوم ؛ لكن ليس هناك من حاجة إلى مثل هذه الحجة على قوتها في إثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب ومأمور به في الإسلام ؛ فإن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة في الحض على تطلب آيات الله في الكون ، وتعرف أسرار الخلق هي في الواقع توجيه للعقل إلى مجالات العلم الذي يسميه الناس اليوم : العلم الطبيعي ، بل هي أوامر من الله بطلبه ؛ لأن آيات الله في الكون التي ندبت تلك الآيات القرآنية إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التي هي مطمع العلم ومرماه ، فأنت إذا قرأت مثل قوله جل وعلا : {هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} ، وقوله تعالى : {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)} ، وقوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } ، وقوله تعالى : {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، إذا قرأت هذا وأمثاله في القرآن ؛ لم تشك في أن العلم الحديث قرآني في موضوعه ، يعني : هو يسير على القواعد القرآنية ، أراد أم أبى ؛ لأن القرآن العظيم وضع أسس المنهج العلمي الذي يسير عليه

أولئك القوم ، صادفوه بقدر الله رب العالمين من غير أن يعرفوه أو عرفوه ، فهذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التي نبه إليها وأمر بالبحث فيها القرآن الكريم ، فإذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد في بعضها مادة {العين واللم والميم} اللغوية ؛ وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه الآيات إن لم تكن في صيغة المصدر {علم} ، ففي صيغة مشتقاته ؛ كقوله تعالى في سورة الأنعام : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)} ، وقوله تعالى في سورة الروم : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)} ، وكذلك من سورة فاطر : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)}.

فواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا : هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيما أشارت إليه هذه الآيات الكونية ، هؤلاء العلماء إذا كانوا مؤمنين ؛ حملهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة ؛ لأنهم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله سبحانه وجلاله وقدرته المتجلية في آيات صنعه ، وهذا في الواقع هو الحكمة الكبرى التي من أجلها أمر الله الإنسان في كثير من آيات القرآن بالنظر فيما خلق الله في السماوات والأرض من خلق ، وهناك طبعا إلى هذه الحكمة الكبرى حكم أخرى ، هي : ما يتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية آتية من استخدام حقائق العلم في شؤون الإنسان ؛ كالانتفاع – مثلا – بخواص الكهرباء والبخار والحديد في هذه القطارات والسفن التجارية البخارية ، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية ، والحكم كلها مرادة لله سبحانه وتعالى حين أمر الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض ، إلا أن الحكمة الأولى – وهي حكمة خشية الله التي أشار إليها في قوله : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } – هي الحكمة الكبرى ؛ إذ عبادة الله وخشيته هي الغاية الأولى والأخيرة من وجود الإنسان ، وفي الحق أن الإنسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من

التوكيد في القرآن ، ثم من تراخي المسلمين في الوقت عينه برغم ذلك في طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به في تفسير ذلك الجزء من القرآن .

إن الآيات الواردة لتلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة ، وتحثه على تفقهها ، لا تكاد تقل عن سبع آيات القرآن ، فسبع آيات القرآن فيما يتعلق بالآيات التي وردت لتلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة ، ولتحث الناس على تفقهها ، هذه لا تكاد تقل عن سبع آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل هذا التوكيد في الإسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والإحسان في المعاملة ، فكأن المدنية في الإسلام شطران : شطر يقوم على العلم ، وشطر يقوم على العدل ، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته ، لا غنى لأهل المدنية عن هذين إن أرادوا لها البقاء ، وعلى كل حال ؛ فإن حث الإنسان في نحو سبع القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص : حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة ، وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسات عنه من ثمرات ، وهذا لا يقلل شيئا من شأن العلم في الإسلام ، بل يزيده ، ثم هو أبلغ في الدلالة على أن العلم في الإسلام جزء من الدين ، على أن أمر التوافق بين العلم والإسلام قد جاوز الإجمال إلى التفصيل ، جاوز قرآنية الموضوع والاسم إلى قرآنية الروح والطريقة ، فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن ؛ فإن روح العلم التي هي في صميمها : التجرد للحق ، والصدق فيه ، والاستمساك به ، والتعاون عليه ، هي من روح الإسلام من غير شيء ؛ إذ الإسلام كله ليس إلا أمرا بالحق ، وتجردا له ، وجهادا من أجله .

وما لقيه الحق من الإكبار في العلم لا يزيد شيئا عما لقيه الحق من الإكبار في القرآن ، فإذا كان هناك فرق بين الاثنين ؛ فهو لا يتعلق بذاتهما ؛ ولكن بابتداد سلطانهما ، فروح العلم مقصورة طبعا على الميادين التجريبية التي قصر العلم عليها نفسه ؛ لكن روح الإسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الإنسان ، العلمي منها والاجتماعي ، ما يمكن إخضاعه للتجارب العلمية وما لا يمكن .

إذا ؛ العلم قرآني بطريقته .

أما أن طريقة العلم في طلب أسرار الفطرة هي نفس الطريقة التي أمر بها القرآن ؛ فيتبين من الآتي :

أن العلم لا يقول عن شيء أنه حق ؛ إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع ، فهذا من قوانين العلم المادي .

القرآن الكريم يأمر كذلك بألا يقبل الإنسان شيئا على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان ، ويتمثل ذلك في مثل قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) } ، وقوله تعالى : { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) } ، والعلم المقصود هنا : هو العلم اليقيني الثابت في الحجة القاطعة بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين في قوله : { لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } .

فكما ترى ، هذا القانون ، هذه الركيزة ، هذا الأساس من قوانين وركائز وأسس العلم الذي يبحث في الفطرة وأسرار المادة هو قرآني بطبعه : أنه لا يقبل شيئا على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع ، هذا دل عليه القرآن ، بل أمر به ، وهو بعينه ما يرتكز عليه العلم أول ما يرتكز عند بحثه عن أسرار الفطرة .

ومما يتبين به أن طريقة العلم في طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن المجيد :

أن العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينا ما ليس بيقيني ، وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، أو أن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجيح ، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار مكانة الحجة التي تشهد له ، فإذا كانت الحجة قاطعة ؛ فالقضية حق ، وإذا كانت غير قاطعة ؛ فالقضية ظن ، ويسميها العلم في هذه الحال نظرية إذا كانت أرجحيتها كبيرة ؛ إذ الواضح أن هناك في الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض ، أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها ؛ فتلك

هي القضية المجهولة التي وقعت موقعا وسطا بين الحق والباطل ، لا يدرى إلى أيهما هي أقرب ، وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة في منطقة الرجحان ، قل حظها منه أو كثر ، هي موضع النظر العلمي والبحث ، لا يزال العلم يبحث عنها ويمحصها ، حتى ينتهي فيها إلى حكم بادية وحكم قاض قاطع ، فيلحقها إما بالحق اليقيني ، وإما بالباطل اليقيني .

هذا التفريق من العلم في المنزلة بين ما هو حق وما هو دون الراجح يتفق تماما مع روح القرآن الكريم في النظر ، ومع طريقته المتجلية في آياته كلها ، خصوصا تلك الآيات التي من قبيل ما ذكر قبل ، وكقوله تعالى في سورة النجم : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) } ، وكقوله تعالى في سورة الجاثية : { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) } ، وكقوله تعالى : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) } .

فهذا التفريق القرآني هو ما وصل إليه الباحثون في أسرار المادة ، الذين يتعاملون مع الفطرة ، والفطرة هاهنا يراد بها : ما خلقه الله رب العالمين في هذا الكون من المادة بأسرارها وذخائرها ، فكما ترى : الأدلة قاطعة على أن العلم قرآني بطبيعته .

ومما يتبين به أن طريقة العلم في طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن :

أن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم القديم في هذا ؛ لأن العلماء قديما – خصوصا في القرون الوسطى – كانوا كثيرا ما يقنعون في الاستدلال على الصحة أو البطلان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان أو رأي علان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلا يتخذ حجة قاطعة في موضعه من غير أن ينظر في رأي أرسطو هذا في ذاته ، ومن غير أن يسأل : ما هو دليله ؟

هذا كان عليه العلم القديم ، وكان هذا منبع شر كبير ، ولعله كان سببا كثير من الشبه الكلامية التي قامت بين علماء المسلمين بعد أن ترجمت كتب اليونان في العصر العباسي فيما يتعلق بالعلاقة

بين الشريعة وبين ما كانوا يسمونه : الحكمة ، يريدون بالحكمة غالبا : ما أخذوه عن حكماء اليونان ؛ مثل أفلاطون وأرسطو وأضرابهما ، حتى جاء أمثال الغزالي من المسلمين عند البحث في أمثال هذه الأمور ، فأرجعوا الأمر إلى نصابه ، وحملوا على الفلسفة ، وسفهوا كثيرا من الفلاسفة في أقوالهم ومذاهبهم .

العلم في منعه التقليد الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذي شدد النكير على أناس كانوا يستمسكون بالرأي ، لا لأنهم عقلوه وفهموه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه .

ترى ذلك في مثل قوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) } ، وقوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) } ، إلى غير ذلك من الآيات التي سفهت أحلام هؤلاء وطريقتهم ؛ لأنهم كانوا فيها مقلدين هذا التقليد الأعمى من غير ما نظر في دليل قاله قائل ، أو رأي ارتآه إنسان .

فالتقليد الأعمى هو الأخذ بالرأي من غير دليل أو رغم الدليل ، فيأخذ بالرأي ولو قام الدليل على ضده ، هذا كله هو التقليد الأعمى ، يتابع زيدا أو بكرا من الناس ، هذا محرم على أهل النظر في حكم العلم وفي حكم القرآن ، فالمنهج العلي يرد هذا التقليد ، وهذا هو المنهج القرآني الذي أسسته الآيات ، وعمل عليه العلماء رحمهم الله تعالى في صدر هذه الأمة .

أيضا مما يتبين به أن طريقة العلم في طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن :

أن العلم في تطبيقه قوانين التفكير المجموعة في علم المنطق القياسي يتخذ أصلين اثنين يبني عليهما :

الأصل الأول : أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق ، فليس من الممكن أن ينقض حق حقا ، فما ينقض حقا إذا فهو باطل ، وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق .

فالعلم يرسي هذا الأساس ، بل يصدر عنه ، بل ما تقدم العلم إلا لما أخذ بهذه القاعدة وأمثالها ، وهي : أصل توافق الحقائق : أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق .

الأصل الثاني : هو أصل اضطراد الفطرة واستقلالها ، فما ثبت أنه حق في وقت ، سيكون دائما حقا ، أو بعبارة أخرى : أن الحق مستقل عن الزمان والمكان ، وهذا أصل عظيم .

وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماضية ، فإنه لم يشاهد مطلقا أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية ، أي لم يشاهد مطلقا تناقضا بين حقائق العلم ؛ سواء اكتشفت تلك الحقائق في الماضي أم في الحاضر ، في الأرض أم في كوكب آخر ؛ بل كثير من حقائق إنما استنتج بناء على هذين الأصلين : أصل توافق الحقائق أو امتناع التناقض بين الحقائق ، وأصل اضطراد الفطرة ، وكانت التجربة دائما تؤيد الاستنتاج ، بل من الواضح أن العلم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الأصلين أو كلاهما ، وهذا سبب آخر يجعل العلم يستمسك بهذين الأصلين محافظة على وجوده نفسه ؛ وإن عجز العلم عن إقامة الدليل على صحة هذين الأصلين فيما يتعلق بالمستقبل .

هذان الأصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرآنيان ، أكدهما الله تبارك وتعالى الذي تكلم بهذا القرآن المجيد سبحانه ، أكدهما كل التأكيد ، وهو أعلم بما خلق .

فأصل اضطراد الفطرة ثابت قرآنيا ، كما في قوله تعالى : { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) } ، وكذلك في قوله تعالى : { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) }، وكذلك في قوله تعالى : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) } ، فهذه آيات صريحة في اضطراد الفطرة ، وبقاء سنن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل .

والفطرة وسننها هنا تشمل كل ما وجد في ملكوت الله ؛ سواء في ذلك ما يتعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان ، أو ما تعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح في الفرد والجماعة مما لم يرتق العلم إليه إلى الآن .

فهذا أصل قرآني ، وهو أصل اضطراد الفطرة ، فإن الحقيقة ثابتة على الزمان والمكان ، ما كان حقا فهو حق دائما في الحاضر والمستقبل ، ولا يمكن أن يصير الحق باطلا .

فهذا أصل اضطراد الفطرة .

وأما أصل توافق الحقائق ، أو استحالة تناقض الحقائق ؛ فهذا أيضا ثابت قرآنيا ، كما في الآيات السابقة ؛ لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة ، ويزداد ثبوتا بقوله تعالى في سورة الملك : { مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} ، فإن التناقض هو أكبر من التفاوت ، فإذا انتفى التفاوت في خلق الله ؛ لزم أن ينتفي التناقض في خلق الله أيضا من باب أولى .

وكذلك أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم استقلال الفطرة عن الإنسان ، وذلك يوم وفاة ابنه إبراهيم ، وحدوث كسوف الشمس ، فتحدث الناس أنها كسفت لموت إبراهيم ، فخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين بألفاظ متفاوتة : «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا» ، فبين أن الفطرة يعني : ما أودعه الله رب العالمين من هذه السنن الإلهية في الكون ، هذا مستقل عن الإنسان .

فكما ترى ؛ هذا الذي وصل إليه العلم في هاتين القضيتين العظيمتين ، وبهما بقاء العلم وثباته هو يستمسك بهما في الحاضر كما استمسك بهما في الماضي ، مع أنه لا يدري ما يكون فيما يأتي به المستقبل ، هذان الأصلان أو هاتان القضيتان وردتا في كتاب الله تبارك وتعالى كما مر في آيات ربنا جل وعلا .

ومما يتبين به أن طريقة العلم في طلب أسرار الفطرة هي طريقة القرآن المجيد :

أصل المشاهدة ؛ فقد عرفنا أن العلم في بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل ، فلا يعتبر حقا إلا ما قام البرهان على أنه حق ، وكذلك العلم الذي يبحث في الفطرة - أي في أسرار المادة – لا يعتبر حقا إلا ما قام البرهان على أنه حق ، فالعلم دائم البحث إذا عن البراهين التي تثبت حقائق الأشياء .

هذه البراهين ؛ عرفنا من أنواعها : النوع القياسي ، أي الذي يتوصل إليه بالقياس الصحيح ، وإنما يؤدي إلى نتيجة صحيحة إذا صحت المقدمتان كلتاهما .

وأما إذا كانت إحدى المقدمتين باطلة أو مشكوكا فيها ؛ فإن النتيجة يصيبها من البطلان أو من الشك على قدر ذلك ؛ وإن صحت طريقة الاستنتاج .

وبعبارة أخرى : يلزم لصحة النتائج شرطان : صحة المقدمات كلها ، وصحة طريقة الاستنتاج التي هي نفس القياس .

أما صحة الاستنتاج ؛ فقد تكفل بها المنطق القياسي ؛ لكن المقدمات ما شأنها ؟ وما طريق التثبت من صحتها ؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بديهية الصحة ، لا يختلف في صحتها العقلاء ، ويصلون إليها مستقلا بعضهم عن بعض .

علم الهندسة النظرية - على تعقد نظرياته - مستنتج كله من أمثال هذه البديهيات ؛ لكن ليس كل المقدمات يمكن رده إلى بديهيات كهذه عند إثبات صحته ؛ ولا بد إذا في إثبات هذا النوع الثاني عن طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البديهيات .

هذا الطريق الآخر هو طريق المشاهدة الصحيحة ، وهو الطريق الذي سلكه - إلى حد ما - العلم قديما ، ويسلكه دائما العلم حديثا ، حتى صار طابعه الذي طبع عليه ، وميزته التي امتاز بها .

هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس ، خصوصا السمع والبصر ؛ ولكن بشرط ترتيبها وتدريبها وتربيتها من ناحية ، وبشرط إعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى .

هذه الآلات هي في الواقع : وسائل هدى الله إليها الإنسان ؛ ليزيد في مدى حسه ، فيزيد في مدى إبصاره مثلا بالمجاهر - أي : الميكروسكوبات - التي يستطيع أن يرى الإنسان بها من الأجسام ما صغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة ؛ كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية ، أو يزيد في مدى إبصاره بالمراقب - وهي : التليسكوبات - التي تقرب للإنسان الأجسام البعيدة ، يستعملها الذين ينظرون في الأجرام السماوية ، فيرى منها ما لم يكن يراه من قبل.

فأما المجاهر ؛ فتستعمل كثيرا في المعامل .
وأما المراقب ؛ فتستعمل غالبا في المراصد .
هذا الأصل - أصل المشاهدة الصحيحة - هو إذا الطريق الثاني الذي يسلكه العلم الطبيعي ؛ للوصول إلى مقدمات صحيحة ، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع ، ولا نمت هذا النمو ، ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق ؛ فالمشاهدة أصل علمي عظيم .
وهي أيضا أصل قرآني عظيم ، فالآيات التي تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثيرة جدا في القرآن المجيد ، منها :
استعمال البصر مع العقل ، كما في قوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } ، وقوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ }، وقوله تعالى : {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) } .
ومنها : ما ورد في استعمال السمع مع العقل ، كما في قوله تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } .
وأيضا ورد استعمال السمع والبصر مع العقل ، كما في قوله تعالى : {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) } .
وقوله تعالى : {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) } .
وقوله تعالى : {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)} .
وكذلك ورد استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل ، كما في قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } .
فهذه الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض ، ثم هي مع ذلك تأدبه من حيث استعمال هذه

المواهب على وجهها الصحيح ، ففي آية الإسرار { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } ، تنهاه الآية من ناحية أن يجري مع الوهم والظن ، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إلى ما ليس بوهم ولا ظن ، أي إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) } .

وفي قوله تعالى { كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) } : ليس فقط أمر شديد بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل ، وعدم إهمالها ، بل فيه أيضا أمر بالاستمساك بما يهتدي إليه الإنسان من الحق عن طريقها ، ففي الآية وحدها ثلاثة أصول هي جماع أصول النظر العلمي المادي في منهج البحث العلمي :

الأصل الأول : ألا يتبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقينا { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } .

الأصل الثاني : أن طرق الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح .

الأصل الثالث : أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق المشاهدة والتفكير { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) } ، على أن علم الإنسان كله مصدره : العقل والمشاهدة الصحيحة ؛ بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات ، فلو أخذ طفل وحبس عن العلم إلا فيما يكفي لحياته من طعام أو شراب ؛ فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال ؛ لا ينمو عقله عن عقل الطفولة ، وبهذا يقول علماء التربية ، وإلى هذا تشير آية النحل {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) } ، فهذه الآيات الكريمة تكاد تكون صريحة في أن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد ؛ إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر وبقية الحواس بدليل جمع الأبصار ، وكذلك عن طريق العقل .

فكما ترى ؛ العلم قرآني بطريقته ، لا جديد !

لو أن المسلمين التفتوا إلى ذلك ؛ لسبقوا أولئك الذين سبقوهم في مجالات العلم المادي ، وسبقوهم أيضا في مجالات الروح التي تسيطر على مقاليد القوى من معرفة أسرار ذلك العلم المادي ؛ ولكن أين النظر في القرآن على الوجه الصحيح ؟!

{ مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث }

بعدما سبق من إثبات أن العلم الحديث قرآني بطريقته ؛ نعقد مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث :

قال الغبراوي رحمه الله :

أصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروض بين العلم الحديث والعلم القديم ؛ فإن القدماء كانوا في جملتهم يعتقدون أنه من الممكن أن يصل الإنسان إلى ما يشاء عن طريق العقل وحده ، أي لم يكونوا يقولون بضرورة المشاهدة لتحصيل العلم ، بل منهم من كان يرى أن المشاهدة تضلل العقل ؛ لأن الحواس غير مأمونة ، ففي أثنائها يرى الشيء صغيرا كالنجم مثلا وهو كبير ، قالوا : إذا الحواس تضلل العقل ، فالعقل يقضي بأن الذي نراه من هذه النجوم هو كبير جدا ، ومع ذلك العين تراه بهذه الدقة والصغر ، لذلك كانوا كثيرا ما يكتفون في طلب العلم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير ، فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق ولم يقم عليها دليل ، وإنما كان دليلهم فروضا افترضوها ، يرونها حقا ويركنون إليها في الإثبات ، ففيثاغورث مثلا يقول عن الكون : إنه منفرد كامل كروي ؛ لأن الكرة أكمل الأشياء ، ويقول : إن الكون حي عاقل ؛ لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي ولا عاقل .

هذه قضية كلية ؛ ولكن ما الدليل على صدقها هاهنا فيما نزاوله ، أو فيما ينزلها عليه ؟!!

فمثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي غير المرتكز على حقائق يقينية ينكره العلم الحديث كما ينكره القرآن ، ومن هنا وقع قدماء الفلاسفة من اليونان في أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون ؛ كقولهم : إن للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها ، وأن لهذه الأجرام أثرا كبيرا فيما يصيب الإنسان من نحس وسعود .

فربطوا مصير الإنسان بتلك الأجرام .

وقد سقط كثير من المسلمين في هذه الأغلاط نفسها حين أخذوا علم اليونان كله على أنه حق من غير أن يطيعوا الله فيه ليمحصوه ، ومن غير أن يردوه إلى القرآن المجيد ، بل بلغ بهم الأمر أنهم

كانوا يردون القرآن إليه ؛ كقول إخوان الصفا : إن إدريس عليه السلام هو هرمز الثالث أو المثلث بالحكمة ، صفت نفسه بالرياضة والعبادة ، فصعدت نفسه إلى السماء ، وطافت مع بعض الأجرام ثلاثين عاما ، وشاهدت من العجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف .

قال إخوان الصفا : هذا – كما زعموا – ما يشير إليه القرآن في قوله : {ورفعناه مكانا عليا} !!

هذا نوع من فهم القرآن لا يجيزه القرآن كما مر ، ولا يجيزه العقل ، ولعلنا لو بحثنا في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية ؛ لوجدناه راجعا إلى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها ، عن اليونان أخذوها من غير تمحيص ، فنقلوا إلينا خلافاتهم على النحو الذي وقع من أولئك الضلال فيما يتعلق بالعقيدة ، بل بصفات الرب ، بل بذاته جل وعلا .

كان قدماء الفلاسفة إذا يرون العقل مصدرا للحقائق مستغنيا بذاته عن المشاهدة .

أما محدثوهم ؛ فيرون العقل وسيلة .

أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث ؛ فهي في الكون خارج النفس وخارج العقل .

كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء ضروريا لطلب الحقيقة .

أما المحدثون ؛ فلا يرون سبيلا للوصول إلى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل .

العلم الحديث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين في طلب العلم عن طريق التفكير البحث ، وبدأ هو يطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير ، وهذا منهج قرآني ، بل الذي دل عليه هو علماء المسلمين ، وممن وضع أسسه : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ؛ لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحثه ، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها .

فهذه مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث .

{ أدوار النظر العلمي }

وأما أدوار النظر العلمي :

فالدور الأول : هو دور جمع الحقائق ، دور التجربة والمشاهدة :

ولا بد فيه من الاستيثاق من صحة الوقائع ؛ لأن هذه الوقائع سينبني عليها العلم بنائه ، وسيبني بنائه عليها ، فلا بد من التأكد من متانة الأساس قبل إقامة البناء .

وصحة الوقائع يستوثق منها عن طريق تكرار المشاهدة في الظروف نفسها ، فيثبت الظروف التي تحيط وتشمل التجربة ، ثم يكررها مرة ومرة ومرة ، فإذا حصل على النتائج نفسها ؛ فحينئذ يعتمدها ، وإذا اختلفت مع تثبيت الظروف المحيطة بالتجربة ؛ فهنالك خلل ما .

هذا التكرار إما أن يكون على يد المشاهد الأول الذي شهد الواقعة لأول مرة ، يكرر التجربة والمشاهدة ليتأكد هو من صحة الواقعة قبل أن يذيعها على الناس ، وإما أن يكون التكرار على يد غير المشاهد الأول من العلماء ؛ للتثبت من صحة الواقعة إذا خامرهم ما يدعو إلى الشك فيها ، أو للبناء عليها في أبحاثهم ، فكل واقعة من الوقائع العلمية لا بد أن تثبت من تجارب متعددة في ظروف محدودة واضحة .

هذا الدور في العلم يشبه في علوم الدين دور جمع الأحاديث من طرق متعددة للاستيثاق من صحتها ، ولترتيبها في مراتبها .

المحدث يريد أن يستوثق من صحة الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سيبني على الأحاديث في دينه .

العالم الطبيعي يريد أن يستوثق من صحة الواقعة المنسوبة إلى الفطرة ؛ لأنه سيبني عليها في علمه ، فهذا أيضا عندنا .

اتفاق الروح والطريقة عند علماء الدين الأولين ، والعلماء الطبيعيين المحدثين مع اختلاف الزمن واستقلال كل عن كل دليل عملي على أن الطريقة العلمية هي طريقة قرآنية ، ينبغي أن يأنس إليها ويقبل نتائجها رجل الدين ، وأن الطريقة القرآنية في النظر هي الطريقة العلمية ، وينبغي أن يأنس إليها ويقبل نتائجها رجل العلم .

هذا هو الدور الأول من أدوار النظر العلمي ، وهو : دور جمع الحقائق ، أو دور التجربة والمشاهدة

الدور الثاني من أدوار النظر العلمي : هو أنه في دور المشاهدة –كما مر – تجمع الوقائع ؛ لكن هذه الوقائع إن كانت من باب واحد ؛ لا بد أن تكون ناشئة عن قانون طبيعي واحد ، أو إذا شئت : عن سنة من سنن الله واحدة ، كما ينبغي أن يقول المسلمون .

العلم يرمي من وراء مشاهداته إلى الوصول إلى تلك القوانين –كما يسميها العلم المادي – ، أو إلى السنن التي جعلها الله تبارك وتعالى في كونه كما يقول المسلمون ، فالوقائع المجموعة وإن كانت مهمة في ذاتها لأنها حقائق جزئية تزداد أهميتها كثيرا ؛ لأنها السلم الذي يوصل إلى القوانين الفطرية أو الحقائق الكلية التي كان من آثارها : تلك الوقائع الفردية ، أو إذا شئت : التي من صورها : تلك الحقائق الجزئية.

فهذه أدوار النظر العلمي ، وهي قرآنية كما تري ، بل مارسها علماؤنا على نحو من أنحاء الممارسة

{ طريق اكتشاف قوانين الفطرة (سنن الله في الكون) }

وأما طريق اكتشاف قوانين الفطرة – كما يقول العلماء الطبيعيون – ، أو طريق اكتشاف سنن الله في الكون – كما ينبغي أن تسمى – ؛ فالطريق الوحيد المفتوح أمام العلماء لاكتشاف قوانين الفطرة أو سنن الله في الكون – كما ينبغي أن نسميها – هو الاجتهاد في انتزاع كل قانون من مجموعة الوقائع الصادرة عنه .

بعبارة أخرى : من الوقائع التي هي من باب واحد ، وذلك بالاستقراء

إذا كان عدد الوقائع كبيرا ، وكان القانون في ذاته بسيطا ، وإما بالتلمس إذا كان عدد الوقائع قليلا ، أو كان القانون خفيا ، أو كان أكثر تعقيدا .

وأمثلة اكتشاف قوانين الفطرة عن طريق الاستقراء هي في العلم كثيرة جدا ، خذ منها مثالا واحدا :

أن الكيماويين حضروا مركبات نقية كثيرة ، فوجدوا في كل حالة أن المركب – مثل ملح الطعام – مهما اختلف مصدره أو اختلفت طريقة تحضيره ؛ فإنه يتركب من نفس العناصر متحدة مع بعضها

بنفس النسب في الوزن ، فاستنتجوا أن هذا قانون طبيعي للمركبات ، وسموه: قانون التركيب الثابت .

ونصه : كل مركب كيماوي يحتوي دائما على نفس العناصر بنفس النسب وزنا .

فهذه الطريقة – طريقة الاستقراء – في أمثال هذه المركبات أدت إلى وضع هذا القانون .

أما طريق التلمس ؛ فهو أصعب من هذا كثيرا ، ويراد بهذا الاصطلاح : الاجتهاد في الإتيان بتفسير لوقائع القبيل الواحد ، بحيث لا تجد في بابه واقعة ، فإذا وفق العلماء في اجتهادهم هذا ، ووصلوا إلى تعليل أو تفسير واحد لتلك الوقائع ؛ يثبت على الزمن رغم تكاثرها بالبحث والتنقيب ، حكموا أن ذلك التعليل أو التفسير قريب من الحقيقة الكلية أو القانون الكلي المنشود ، غلا أنهم لا يسمون ذلك التعليل أو التفسير قانونا فطريا إلا إذا بلغت الوقائع المفسرة به من الكثرة الكاثرة مبلغا لا يدع مجالا للشك في عمومية ذلك التفسير ، فينتقل من هذا الاجتهاد إلى الاستقرار الذي دل عليه الاستقراء كما في الطريقة الأولى ؛ لأنه إذا انطبق هذا التعليل أو هذا الاجتهاد على كثير من الوقائع ؛ فهذا هو الاستقراء ، فإنك بتتبع ذلك في جميع نظائره أو في أكثرها تصل حينئذ إلى القطع بأنه قانون فطري .

الطريقة العملية التي يسلكها العلم في تلمس قوانين الفطرة من الوقائع المشاهدة تتلخص فيما يلي :

أولا : يؤتى بفرض مفصل مقدر على وقائع القبيل الواحد بحيث يفسرها جميعا .

ثانيا : يختبر هذا الفرض عمليا ؛ لينظر : أصحيح هو أم غير صحيح ؟

هذا الاختبار ضروري ؛ لأن الوقائع تكون في الأول قليلة يجوز تفسيرها بأكثر من فرض واحد ، كما يجوز – بل يغلب – ألا يقع الإنسان في أولى محاولاته على التفسير الصحيح ، والاختبار يكون بجعل هذا الفرض الجديد مقدمة تضم إلى حقيقة أخرى معروفة مناسبة ، ويركب منهما قياس يؤدي إلى نتيجة جديدة بالطبع ، فتختبر هذه النتيجة بإجراء تجارب عملية يعرف بها ما إذا كانت تلك النتيجة منطبقة على الواقع أو غير منطبقة ؟

فإذا وجد أنها منطبقة ؛ ازداد عدد الوقائع المفسرة بالفرض واقعة ، وازداد الفرض بذلك رجحانا ، ولا يزال الفرض يختبر عن هذا الطريق حتى تبلغ الوقائع المفسرة به من الكثرة مبلغا يجعلنا نرجح كثيرا صحة هذا الفرض ، فنسميه نظرية .

فتبدأ النظرية بالفرض ، ثم يمر بهذه المراحل السابقة ، فإذا ما رجح ترجيحا كثيرا ، ورجح رجحانا كثيرا ؛ سمي نظرية ، ونستمر في امتحان النظرية بنفس الطريقة حتى تبلغ الوقائع المفسرة بالنظرية من كثرة مبلغا يجعلنا نوقن بأنها قانون عام .

فيبدأ بالفرض ، ثم يصل إلى النظرية ، ثم يصل بعد ذلك إلى القانون العام .

أما إذا لم تؤيد التجربة المستنتجة من ذلك القياس الجديد ؛ فإن ذلك يكون دليلا على أن الفرض الجديد ليس صحيحا في صورته التي هو عليها ، وعندئذ يحاول العلم أن يوفق بين النتيجة الجديدة التجريبية وبين الفرض ؛ لإدخال تعديل على الفرض بجعل هذا الفرض يشمل هذه النتيجة الجديدة ، فيحور ويعدل ، فإذا لم يمكن هذا ؛ نبذ الفرض أو نبذت النظرية ، وجيء بفرض آخر أو بنظرية أخرى تختبر بالطريقة نفسها .

واضح أن أي فرض يؤتى به يجب أن يكون قابلا لهذا التمحيص العلمي ، إذ هو الطريق الوحيد للتأكد من صحة الفرض ، كما أن من الواضح أن الفرض إذا كان قابلا للتمحيص العملي ؛ سينفع نفعه ولو بتأديته إلى اكتشاف الحقيقة الجديدة التي تكون سببا في نبذه ، فمع أننا سنطرحه إلا أنه قد أفادنا في الوصول إلى حقيقة جديدة .

أما الفرض الذي لا يقبل أن يمحص عمليا عن هذا الطرق ؛ فإن العلم لا يأبه به ، ولا ينظر فيه ، وخذ مثالا توضيحيا :

نظرية الفلوجستون للاحتراق : جاء على العلماء وقت أساؤوا فيه تعليل ظاهرة الاحتراق ، فظنوها راجعة إلى خروج جوهر من الأجسام المحترقة سموه بالفلوجستون أو بروح النار ، قالوا : إن الجسم المحترق يخرج منه روح النار أو الفلوجستون ، فكان كل جسم قابل للاحتراق عندهم عبارة عن ناتج الاحتراق زائدا روح النار تلك أو الفلوجستون ، حتى العناصر - كالرصاص والحديد - كانت في رأيهم مركبة من رمادها عند الاحتراق والفلوجستون الذي هو روح النار ،

فإن لم يكن للاحتراق في رأي أعينهم ناتج ؛ فالجسم فلوجستون صرف ؛ كالغازات مثلا التي لا يتخلف عنها رماد ولا هشيم ، فيقولون : هذا الجسم فلوجستون صرف ، روح النار صرفا .

ورأيهم ذلك معروف في تاريخ الكيمياء بنظرية الفلوجستون ، سادت هذه النظرية عالم الكيمياء حقبة طويلة ، وتغلبت في الأول على كل صعوبة ، أي أمكن العلماء في الأول أن يفسروا كل ظاهرة طبقا لهذه النظرية ، ففسروا – مثلا – عدم احتراق الأجسام المعزولة عن الهواء في أوان مغلقة بأن حبسها في تلك الأواني حبس للفلوجستون ، فلا يجد إلى الهواء مخرجا ، فيظل روحا حائرة ، ولا بد في رأيهم للفلوجستون من مخرج إلى الهواء قبل أن تتكون بمخرجه النار .

خدمت هذه النظرية العلم بربطها بين كثير من الحقائق المتفرقة ، وتنبئها بحقائق لم تكن معروفة من قبل ؛ كتنبئها مثلا بأن رماد بعض المعادن – الذي كانوا يسمونه في ذلك الوقت { كلسا } – إذا سخن مع الفحم أو الخشب ؛ عاد معدنا كما كان ، وهذا هو رماد الرصاص ، أو كما قالوا عنه : كلس الرصاص ، يعود إلى رصاص ، ورماد النحاس يعود إلى نحاس ، وهلم جرا .

نحن نعرف الآن أن هذا راجع إلى انتزاع الفحم أو الخشب الأكسجين من أكسيد المعدن ، فيتحول الأكسيد إلى المعدن ، ويتحول بعض الفحم أو الخشب إلى أكسيد الكربون ؛ لكنهم كانوا يفسرون ذلك بأن الكلس يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الفلوجستون أثناء احتراق المعدن ، أو بالأحرى : بأن الكلس يسترد من الفحم أو الخشب ما فقده من الفلوجستون أثناء احتراق المعدن ، أي أثناء تكليسه ، فيعود رصاصا أو نحاسا ... إلى آخره كما كان .

ظلت هذه النظرية سائدة حتى انتبه العلماء إلى وجوب استعمال الميزان في دراسة الظواهر الكيماوية ، وحتى اكتشف الأكسجين في عصر لافوازيي ، وأثبت لافوازيي أن نواتج الاحتراق أثقل دائما منها قبل الاحتراق ، في حين أن نظرية الفلوجستون تقضي بأن تكون النواتج أخف من الجسم ما دام الجسم يفقد جوهر الفلوجستون أثناء الاحتراق ، فكانت على الضد من النظرية التي كانت سائدة .

إلى هذا الرجل ترجع تجربة الشمعة الشهيرة التي أثبت بها أن الشمعة ونواتج احتراق ما احترق منها أثقل من الشمعة كلها قبل أن يحترق منها شيء ، وذلك بأن عادل بين كفتي ميزان ، في إحدى

الكفتين الشمعة معلقا فوقها شبكة معدنية تحتوي على قطع من الصودا الكاوية التي من خواصها : أن تمسك ما يمر عليها من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون الناتجين من احتراق الشمعة ، فلما أشعل الشمعة ؛ رجحت كفتها بعد فترة ، وشالت كفة الصنجات ، وكان مقتضى فناء الشمعة كلها أو أكثرها - كما يبدو للعين - أن يحدث العكس ، أي أن يشيل كفة الشمعة لفقدها روح النار ، أو لفقدها الفلوجستون ، وترجح كفة الصنج بعد الاشتعال ، فلما أثبت هذا ، وأثبت بتجارب أخرى أن الزيادة في وزن الجسم أثناء الاحتراق يقابلها نقص في وزن أكسجين الهواء ، يساوي تلك الزيادة بالضبط ، فلما أثبت ذلك ؛ عرف يقينا أن الاحتراق ليس راجعا إلى فقدان الفلوجستون ، ولكن إلى الاتحاد بالأكسجين ، فسقطت نظرية الفلوجستون ، رحلت وحلت محلها الحقيقة ؛ ولكنها ككل نظرية مهمة لم تسقط حتى خدمت العلم ، ومكنته من التقدم في طريقه خطوات .

وبعد ؛ فإن طريقة العلم في تعرف أسرار الفطرة ، والاهتداء إلى سنن الله في الكون تضمن الوصول إلى الحق في القريب أو البعيد ، وإن استعانت على ذلك بفرض الفروض ؛ لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض ما دام العلم يطبق فروضه على الواقع ، ويمحصها بالتجربة والاختبار ، فهذه الطريقة في الواقع هي طريقة العلم في الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين في الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبين عمل المجتهدين بالنظر في الآيات والأحاديث ، وطرق الاستنباط ، وما وصل إليه العلم الحديث ، بينهما صلة واضحة ، فكل في الحقيقة مرجعه إلى الله ، وإن لم يصل رجال العلم بعد إلى الله ؛ ولكن رجال الدين - أعني العلماء - هم الذين يعرفون الله ، وأما علماء الطبيعة الذين يبحثون في أسرار المادة ؛ فأكثرهم لا يعرف الله عز وجل .

كل في حكم الدين نفسه مرجعه إلى الله ؛ إذ إن هذه الحقائق الطبيعية التي يكشف عنها العلم ببحوثه ، إن هي إلا نوع من كلمات الله ، هي أسرار المادة التي أودعها الله فيها - أي في المادة - ، فالعلماء يتعاملون مع ذلك ، هي الكلمات النافذة الواقعة كما أن آيات القرآن هي كلمات الله الصادقة المنزلة .

فمن هذا كله ترى أن الذي وصل إليه الناس في العلم المادي هو قرآني بطبيعته ، هو مما أسسه القرآن ووضع أصوله ، بل وسار عليه كثير من علماءنا الذين بحثوا في مسائل المادة ، وتعاملوا مع قوانينها حتى اختطفوا من الطريق من أوله لا من منتصفه بكيد الكائدين ومكر الماكرين ، وما وقع بين الأمة من الخلاف العقدي والخلاف المذهبي حتى صارت شيعا ، يقتل بعضها بعضا ، ويسبي بعضها بعضا كما أخبر عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم : وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ﴾ ، وفي الدعاء الذي كان قبلها كما في رواية أخرى : وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴾ ، فصرفوا عن هذا ، وتقدم الآخرون وحازوا ما حازوه تأسيسا على ما وضعنا أصوله وأسسه ، ثم في المنتهى أوصلهم هذا الذي وصلوا إليه ، لا لأنهم يوصل إلى ذلك ، ولكن لأنهم أساؤوا استعماله ، ولم يتعاملوا معه كما ينبغي أن يتعامل معه ، فأوصلهم إلى إنكار وجود الخالق العظيم ، وأما العلماء من المسلمين ؛ فإنهم مهما وصلوا إلى شيء من أسرار المادة ؛ فإن ذلك يزيدهم خشية لله تبارك وتعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} .

{ بيان أن المخلوق لا بد له من خالق }

في كتاب {العقيدة في الله} مبحث عن أن المخلوق لا بد له من خالق :
يحتجّ القرآن على المكذّبين المنكرين بحجة لا بدّ للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز في منطق العقل السليم رفضها : يقول تعالى: (أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) [الطور: ٣٥-٣٦] .
يقول لهم: أنتم موجودون ، هذه حقيقة لا تنكروها، وكذلك السماوات والأرض موجودتان، ولا شك.
وقد تقرر في العقول أنّ الموجود لا بدّ من سبب لوجوده ، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء ، فيقول: ﴿ البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على العليم الخبير ﴾ ، ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء.
وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم : (قانون السببية) . هذا القانون يقول: إن شيئاً من الممكنات لا يحدث بنفسه من غير شيء ؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، ولا يستقل بإحداث شيء ؛ لأنّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو .
ولنضرب مثالاً نوضح به هذا القانون :
منذ سنوات تكشفت الرّمال في صحراء الربع الخالي إثر عواصف هبت على المنطقة عن بقايا مدينة كانت مطموسة في الرمال ، فأخذ العلماء يبحثون عن محتوياتها ، ويحاولون أن يحققوا العصر الذي بنيت فيه، ولم يتبادر إلى ذهن شخص واحد من علماء الآثار أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة ، لا بفعل الإنسان.
ولو قال بذلك واحد من الناس ؛ لعده الناس مخرّفاً يستحقّ الشفقة والرحمة ، فكيف لو قال شخص ما : إنّ هذه المدينة تكونت في الهواء من لا شيء في الأزمنة البعيدة ، ثم رست على الأرض؟ إنّ هذا القول لا يقلّ غرابة عن سابقه ، بل يفوقه.
لماذا ؟ لأنّ العدم لا يوجد شيئاً ، هذا أمر مقرر في بدائه العقول ، ولأن الشيء لا يستطيع أن يوجد نفسه.

والمدينة على النحو الذي نعرفه لا بد لها من موجد ، والفعل يشي ويعرّف بصانعه ، فلا بدّ أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء يحسنون البناء والتنسيق.

ولو رأينا إنساناً انتقل من أسفل بناية إلى أعلاها ؛ فلا نستنكر ذلك ولا نستغربه ، لأنّ الإنسان لديه القدرة على ذلك.

فإذا رأينا حجراً كان في ساحة البناية قد انتقل إلى أعلاها ؛ فإنّنا نجزم بأنّه لم يتنقل بنفسه ، بل لا بدّ من شخص رفعه ونقله ؛ لأنّ الحجر ليس لديه خاصية الحركة والصعود.

ومن الغريب أنّ الناس يجزمون بأنّ المدينة لا يمكن أن توجد من غير موجد ، ولا يمكن أن تبني نفسها ، ويجزمون بأنّه لا بدّ للحجر من شخص صعد به إلى أعلى ، ولكن يوجد فيهم من يجيز أن يصنع الكون من غير صانع ، ويوجد من غير موجد ، مع أنّ بناء الكون أشدّ تعقيداً وأعظم خلقة ، (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) [غافر: ٥٧] .

ولكنّ المنكرين عندما يواجهون بذلك بمنطق علمي يخاطب العقل ، لا يستطيعون إلا أن يقروا أو يكابروا.

وبهذا الدليل – وهو ما يسميه العلماء : قانون السببية – كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين ؛ فهذا أحد العلماء – قال العلامة ابن عثيمين أنه أبو حنيفة ، وكان من أذكى العلماء (كذا قال) – يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق – وكان قد وعده موعدا ليلقاه فيه مع مجموع من أولئك المنكرين من السمنية ، وهم قوم ينكرون وجود الخالق العظيم على نحلة من نحل الهنود ، فاتعدوا على اللقاء في موضع في وقت عينوه ، فتأخر أبو حنيفة ، فلما جاء قالوا : أهكذا علماء المسلمين ؟! أبهذا يأمرهم الدين ؟! ، فيقول لهم : ما تقولون في رجل يقول لكم : رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يُجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز في العقل ؟ .

قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل.

فقال ذلك العالم: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ؛ فكيف يجوز قيام هذه الدّنيا على اختلاف أحوالها ، وتغيّر أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ ؟! فبكوا جميعاً ، وقالوا: صدقت وتابوا.

هذا القانون – قانون السببية – الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) [الطور: ٣٥] ، وهو دليل يُرغم العقلاء على التسليم بأنّ هناك خالقاً معبوداً ، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة ، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها.

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم قال: ❁ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون – أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون – أم عندهم خزائِن ربك أم هم المصيطرون) [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير ❁.

قال البيهقي الأسماء والصفات للبيهقي: ١/٣٩١. : قال أبو سليمان الخطابي: ❁ إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة ، فاستدركها بلطيف طبعه ، واستشف معناها بزكي فهمه ... ❁.

واختار الخطابي في معنى (أم خلقوا من غير شيء) [الطور: ٣٥] ❁ فوجدوا بلا خالق ، وذلك ما لا يجوز أن يكون ، لأنّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر ، فلا بدّ له من خالق ، فإذ قد أنكروا الإله الخالق ، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم ، أفهم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في الفساد أكثر ، وفي الباطل أشد ، لأنّ ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة ، وكيف يخلق ؟! وكيف يتأتى منه الفعل ؟! وإذا بطل الوجهان معاً قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً، فليؤمنوا به.

ثم قال: (أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) [الطور: ٣٦] وذلك شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه ، فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم ❁.

وهذا الذي قرر الخطابي أن الكفار لا يمكن أن يدعوه ، فائدة ذكره والسؤال عنه : قطع الحجاج والخصام ؛ إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول: ﴿ أنا خلقت نفسي ﴾ ، كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحي ويميت ، (ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاهُ الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أُحْيِي وأميت) [البقرة: ٢٥٨] .

فماذا كان الجواب ؟ سؤال آخر أبان عجزه ، وأكذبه في زعمه الأول (قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) [البقرة: ٢٥٨] فكانت النتيجة : (فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظَّالمين) [البقرة: ٢٥٨] .

وهنا هَبْ شخصاً قال: ﴿ أنا خلقت نفسي ﴾ ؛ فهل يستطيع أن يزعم أنّه خلق السماوات والأرض ؟! فإذا كان العدم لا يُوجِد سماء ولا أرضاً ، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما ، وإذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنّهم أوجدوا ذلك كله ؛ فإنّه لا بدّ لهذا كله من موجد ، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى.

طاقة البشر وطبيعة المخلوق ، أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب مرحلة مرحلة ، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة ، حتى تشهد بداية العالم ، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء ، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة ، وكان قصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلى الوراء ، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء.

فلا بدّ للعقل من الاعتراف:

ولكنّ هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها ، يقابله يقين إجمالي ينطوي كلّ عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً ، وهو أنّه مهما طالت الأسباب الممكنة – التي قال عنها الفلاسفة المتقدمون : العلل ، يقولون : حتى نصل إلى علة العلل أو سبب الأسباب – ، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية ؛ فلا بدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه ، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء ، وإلا لبقيت كلّ هذه الممكنات في طيّ الكتمان إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل .

وهذا كما مر عند ذكر أحكام الممكن بأنه يستوي في حقه الوجود والعدم ، فمن قال : إنه وجد بغير موجد ؛ فقد رجح أحد المتساويين بلا مرجح ، وهذا غير مقبول .

إذا ؛ فإذا وجد هذا الممكن الذي يستوي في حقه الوجود والعدم ؛ فمن الذي أعطاه الوجود ؟

لا بد أن وجوده من غيره .

يستحيل عقلا أن غيره مثله ؛ لأنه يكون حينئذ محتاجا لمن يعطيه وجوده أيضا وهو فاقد للوجود الحقيقي ؛ فكيف يعطيه غيره ؟!

فلا بد أن نصل في النهاية إلى موجد وجوده لذاته من حيث هي ، والعدم مستحيل عليه ، فذاته يستحيل عليها العدم ، فوجوده لذاته من حيث هي .

الله عز وجل هو الذي أوجد الموجودات ، وخلق المخلوقات {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} ، خلقوا مصادفة ؟!

وقد مر أن المصادفة لها قانون ، والمصادفة بقانونها بالنسبة للخلق مستحيلة الوقوع كما مر ذكر ذلك بالدليل الرياضي .

إذا ؛ خلقوا أنفسهم ؟! هذا لا يقبله العقل .

فبقي الفرض الثالث ، وهو أنه خلقهم غيرهم ممن وجوده لذاته من حيث هي ، وهو الله جل وعلا .

نتظر بعد ذلك أدلة وجود الله جل وعلا :

{الأدلة على وجود الله جل وعلا}

{ أدلة وجود الخالق جل وعلا }

إن العلماء ذكروا طرقا كثيرة وأثبتوا وجود الله جل وعلا والحق أن الفطرة وحدها تكفي لإثبات وجود الله رب العالمين ولكن الفطرة قد تنحرف وقد يصيبها من الغبش ما يصيبها مما تلقاه المرء من شياطين الإنس والجن من بيئته من قراءاته من نظره على حسب ما يدله عقله وحسه إلى غير ذلك فهذا كله قد يحرفه عن الحق وعن الصراط المستقيم .

ولقد دل على وجود الله تعالى أمور هي : الفطرة، والعقل، والشرع، والحس.

١- أما دلالة الفطرة على وجوده - سبحانه-: فإنَّ كل مخلوق قد فُطِرَ على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير، أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلاَّ من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا ويولدُ على الفطرة، فأبواهُ يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه).والحديث أخرجه الشيخان

٢- وأما دلالة العقل على وجود الله- تعالى - فلأن هذه المخلوقات: سابقها ولاحقها، لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها؛ ولا يمكن أن توجد صدفة.

لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها؛ لأن الشيء لا يخلقُ نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟!

ولا يمكن أن توجد صدفة؛ لأن كل حادث لابد له من محدث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع

بعض يمنعُ منعًا باتًّا أن يكون وجودها صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟!

وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن توجد صدفة؛ تعيَّن أن يكون لها موجد هو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي، والبرهان القطعي، حيث قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥] . يعني: أنهم لم يُخْلَقُوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم؛ فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى، ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السموات وَالأَرْضَ

بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٧] .

وكان جبير يومئذ مشركًا قال: (كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي) .أخرجه البخاري

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك: فإنه لو حدَّثك شخص عن قصرٍ مشيَّد، أحاطتْ به الحدائق، وجرت بينها الأنهار، ومُلِئ بالفرش والأسِرَّة، وزُيِّن بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إنَّ هذا القصر وما فيه من كمال قد أوْجد نفسه، أو وُجِد هكذا صدفة بدون مُوجد؛ لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثهُ سفهًا من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع: بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجَدَ نفسه، أو وُجد صدفة بدون موجد؟!

إن الذين أنكروا وجود الله جل وعلا ممن مسخت فطرهم، ووضح للعقلاء جهلهم ومجافاتهم الحق وتنكبهم طريق الصواب أنكر الله عليهم أن يكونوا خلقوا بلا خالق فقال تعالى : {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ} ، فأنكر تعالى أن يكونوا خلقوا بلا خالق؛ ضرورة أن الأثر يحتاج في حدوثه إلى مؤثر كما شهد بذلك العقل والفطرة

والحس، وأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم لما يلزمه من التناقض، وأنكر أن يكونوا خالقين للسماوات والأرض؛ لشهادة تاريخ وجود الأمم والكونيات الأخرى بأن خلق السماوات والأرض قد كان قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم، فكيف يخلق المتأخر في الوجود شيئا قد سبقه وتقدم عليه؟!

{دليل التمانع}

قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله في {مذكرة التوحيد}:

وقد أخذ جماعة من العلماء هذا الدليل الخبري العقلي، وأدخلوا عليه شيئا من التكلف والصناعة الكلامية فقالوا: إن نسبة المكن إلى طرفيه الوجود والعدم على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، ولو أوجد نفسه لزم مع ذلك أن يكون متقدما على نفسه.. باعتباره خالقا لها، متأخرا عنها باعتباره مخلوقا لها، وتقدم الشيء على نفسه وتأخرها عنها باطل بالضرورة، لما فيه من التناقض، فثبت أن الممكن لا بدّ له من مُوجد غير ذاته وحقيقته، ولا بد أيضا أن يكون واجب الوجود لذاته، مختلفا عن العالم في خواصه وصفاته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، ذلك ليصح أن يستند إليه العالم في وجوده بدءا ودواما؛ إذ لو كان مستحيلا لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير؛ لأن المستحيل عدم محض وفاقد الشيء لا يعطيه، ولو كان ممكنا لافتقر إلى من يرجح وجوده على عدمه كما سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في حدوثه إلى نظير له من الممكنات؛ لزم إما الدور القبلي وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء.

وإذا انتفى عنه الإمكان والاستحالة ثبت له وجوب الوجود لذاته ضرورة؛ لأن أقسام الحكم العقلي ثلاثة: الوجوب، والإمكان، والاستحالة، وقد انتفى اثنان فتعين الثالث: وهو وجوب الوجود، قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، وفي الحديث: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» .

وذكر العلامة عبد الرزاق عفيفي في موضع أخر أن الحكمة من إرسال الرسل : أن توحيد الإلهية وصرف الهمة إلى بيان تفاصيله وأجمال القول في توحيد الربوبية الاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العباد به وعلمه والضرورة ذلك هو طريقة القران ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام قال رحمه الله :

قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} ، إن كان المعنى المراد: لاتخذوا سبيلا إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه، فالآية في توحيد الإلهية، كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} .

وقد استخلص بعض العلماء من ذلك دليلا سموه دليل التمانع، وجعلوا جل همهم إثبات توحيد الربوبية به، قالوا: لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وجود شيء، ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد سكونه، وعند ذلك إما أن ينفذ مرادهما، وذلك محال لما يلزمه من الجمع بين الضدين، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما، وذلك محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون ربا.

ولو أن هؤلاء عنوا بتوحيد الإلهية، وصرفوا همتهم إلى بيان تفاصيله، وأجملوا القول في توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العبادة به، وعلمه بالضرورة، وجعلوا البحث فيه وسيلة إلى توحيد العبادة ودليلا عليه ؛ لكانوا بذلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.اه

فهذا الدليل الذي يقولون عنه : دليل التمانع على هذا النحو الذي مر ذكره، ويستخدمه بعض أهل العلم في إثبات وجود الخالق ووحدانيته .

مر أن من أدلة وجود الله تعالى : الفطرة ، وكذلك العقل والنقل

الكتب السماوية كُلّها تنطقُ بذلك، وما جاءت به من الأحكام العادلة المتضمنة لمصالح الخلق؛ دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها؛ دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

{أدلة الحس على وجود الله تعالى}

٤- وأما أدلة الحس على وجود الله؛ فمن وجهين: أحدهما: أننا نسمعُ ونشاهدُ من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدلُ دلالة قاطعة على وجوده تعالى، قال الله سبحانه: (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) [سورة الأنبياء: ٧٦] ، وقال تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) [سورة الأنفال: ٩] .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: إنَّ أعرابيًّا دخل يوم الجمعة - والنبي صلى الله عليه وسلم يخطبُ - فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاعَ العيال، فادع الله لنا؛ فرفع يديه ودعا؛ فثار السحاب أمثال الجبال، فلم ينزل عن منبره حتى رأيتُ المطر يتحادر على لحيته. - وفي الجمعة الثانية، قام ذلك الأعرابي، أو غيره فقال: يا رسول الله - تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا؛ فرفع يديه، وقال: (اللهم حوَالَيْنا ولا عَلَيْنَا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت).

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا؛ لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى، وأتى بشرائط الإجابة.

الوجه الثاني: أنَّ آيات الأنبياء التي تسمَّى المعجزات ويشاهدها الناس، أو يسمعون بها، برهان قاطع على وجود مرسلهم، وهو الله تعالى؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر، يجريها الله تعالى؛ تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم.

مثال ذلك آية موسى صلى الله عليه وسلم حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه؛ فانفلَق اثنى عشر طريقًا يابسًا، والماء بينها كالجبال، قال الله تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [سورة الشعراء: ٦٣] .

ومثال ثانٍ: آية عيسى صلى الله عليه وسلم حيث كان يحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، قال الله تعالى عنه: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ [سورة آل عمران: ٤٩] ، وقال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: ١١٠] .

ومثال ثالث: لمحمد صلى الله عليه وسلم حين طلبت منه قريش آية، فأشار إلى القمر؛ فانفلق فرقتين، فرآه الناس، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [سورة القمر: ١-٢] .

فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى؛ تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم، تدلُ دلالة قطعية على وجوده تعالى.

{الإيمان بالله جل وعلا يتضمن أربعة أمور}

الإيمان بالله جل وعلا يتضمن أربعة أمور :

أولا : الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته والإيمان بإلوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته .

الإيمان بوجوده تعالى دل عليه الفطرة والعقل والنقل والحس :

أولا : دليل الفطرة على وجود الله :

لم يطل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى، لأنّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك، تُقرّ بوجوده من غير دليل، وليس كذلك فقط، بل إنّ توحيده - سبحانه - أمر فطري يدهي (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) [الروم: ٣٠] .

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الأديان، وهي أنّ الأمم جميعاً - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدّسها حتى الشيوعيين اليوم الذين أرادوا أن يتحرروا من عبادة الآلهة بزعمهم يعبدون مؤسس المذهب، فتراهم يمرون أمام جثته المحنطة في

الميدان الأحمر في ذكرى يوم وفاته خاضعين حانين رؤوسهم، لقد جعلوه إلهاً، وبدلاً من أن يعبدوا خالق البشر عبدوا ميتاً من البشر، فبعداً لهم. هذا ما دونته قبل خمس عشرة سنة، وقبل سنوات هدم القائمون على المذهب الشيوعي مذهبهم، وألقوا جثث قادة المذهب، كما ألقوا عقائدهم وأفكارهم.

الإنسان مفطور على الإقرار بربوبية الله جل وعلا حتى أن ذلك الملحد الذي أتي به في التلفاز المصري في بعض البرامج مناظرا عن إلحاده والذي كان يناظره : مقدم برامج وهو نصراني ماروني من لبنان فيما أحسب .

المهم أن هذا الملحد عندما احتد في الكلام واحتدم النقاش قال : والله ـ وأقسم بالله ـوهو ملحد فأقسم بالله تعالى .

قد يقال هنا: لو كان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد النّاس في مختلف العصور آلهة شتى.

والجواب: أنّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق.

فيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وأكثر الإلحاد في هذا العصر بهذا السبب فأكثرهم تلقوا تلك الأفكار الإلحادية من البيئة المحيطة بها وأكثرهم نظر في بعض الكتب التي كتبها أهل الضلال فشككته في عقيدته فانحرف عن النهج السوي وصار بعد حين من الملحدين أو على الأقل هو من الشكاك فلا يستطيع أن ينفي ولا يستطيع أن ينفي وهؤلاء الشكاك كثر كثير من الناس وقع في الشك في وجود الخالق جل وعلا لغلبة المدنية الحديثة بماديتها ولذاتها وبعدها عما يتعلق بالروح حتى ان رجلا من مقدميهم ذكر أن الإنسان لما دخل المعامل وخضع للتجارب يعني في كثير من وجوهه فيما يتعلق بدمه وأعصابه وفضلاته وإفرازاته وغير ذلك فيقرر أننا قد عرفنا كل شيء تقريبا عن الإنسان من حيث هو مادة ولكننا نجهل كل شيء عن الإنسان من حيث هو روح هذا فيه كثير من الحق بالنسبة لما وصلوا إليه وما هم عليه .

وأما عندنا نحن ـ المسلمين ـ فان الأمر ليس كذلك لأن دين الإسلام العظيم يوازن بين الجسد والروح يوازن بين طلب الدنيا وطلب الآخرة كما هو معلوم في تعاليم دين الإسلام العظيم .

وقد نصّ الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق هذا الذي قررناه، ففي الصحيحين البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه) . ولم يقل يُسلمانِه، لأنّ الإسلام مُوافقٌ للفطرة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر في فطرته هل يخرج موحداً عارفاً بربّه، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يدّنسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم: (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين - إلا عبادك المخلصين) [ص: ٨٢-٨٣] .

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً) أو قال: (شيئًا) .

والقرآن وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنّه (يوسوس في صدور الناس) [الناس: ٥] ، وقد صح أيضاً أنّ لكل إنسان قريناً من الجنّ يأمره بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن (قال قرينه ربَّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيدٍ) [ق: ٢٧] .

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إلى الله (قل أعوذ برب الناس - ملك الناس - إله الناس - من شر الوسواس الخناس - الذي يوسوس في صدور الناس - من الجنة والناس) [الناس: ١-٦] .

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم، فكان مما جاء في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كلّ مال نحلته عبادي حَلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) .

المصائب تصفي جوهر الفطرة:

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئنِ أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين) [يونس: ٢٢] .

فكم من مشرك أخلص العبادة لله والتوحيد لوجهه الكريم عند نزول المصيبة به ؟!!

وكم من ملحد لما أحيط به أقر واعترف بوجود خالقه واله ؟!!

وقد سمعنا كيف آب ركاب طائرة ما إلى ربّهم عندما أصاب طائرتهم خلل، فأخذت تهتز وتميل، وتتأرجح في الفضاء، والطيار لا يملك من أمره شيئاً فضلاً عن الركاب، هناك اختفى الإلحاد، وضجّت الألسنة بالدّعاء، ورغبت القلوب إلى ربها بصدق وإخلاص، ولم يبق للشرك والإلحاد وجود في مثل هذا الموقف الرهيب.

العرب الذين جابههم الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخالق وحده للكون، كما يقرّون بأنّه وحده الرزاق النافع الضّار، ... ولكنهم كانوا يبعدون غيره معه، ولا يخلصون دينهم لله وحده . فلم يكونوا ملحدين بل كانوا وثنيين يعبدون مع الله جل وعلا غيره أو يعبدون غير الله تعالى ولكنهم يثبتون خالقا للكون رازقا للخلق ومدبرا للأمر .

وأما الملحد : فانه ينكر ذلك كله ينكر أن يكون للخلق خالقا وللوجود موجدا وللصنعة صانعا .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يجادلهم في وجود الله تعالى لأنهم كانوا مقرين والقران كذلك لم يصرف كثيرا من الوجوه القرآنية في إثبات ذلك لأنهم ينكرونه فهم كانوا يقرون به وإنما اتخذ إقرارهم بوجود الله جل وعلا وسيلة لجعلهم يقرون بتوحيد الألوهية لله رب العالمين .

فوجود الله تعالى تقره الفطرة السليمة .

ولذلك كما قال ابن أبي العز في {شرح الطحاوية}:

التَّوْحِيد أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ....... وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ شِهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ.اه

الذين قالوا : أن أول واجب هو النظر هم : الأشاعرة كما ذكر ذلك الباقلاني في {الإنصاف}.

الذين قالوا : انه القصد إلى النظر هم : الجويني ومن أخذ بقوله كما ذكر في الإرشاد .

وأما القول بأنه : الشك فهذا مذهب المعتزلة كما قرره القاضي عبد الجبار في {الأصول الخمسة }.

أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُوم ذهبوا إلى أن معرفة الله تعالى حسبية نظرية فأوجبوا النظر أو القصد إلى النظر أو الشك على اختلاف فرقهم كما مر هذا كله مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف من أن أول واجب على العبيد : عبادة الله وأن معرفة الله تعالى حاصلة ضرورة في كل إنسان بفطرته التي فطره الله عليها كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في {درء تعارض العقل والنقل }فان الخلق كلهم :مؤمنهم وكافرهم يلجؤون إلى الله تعالى حالة الشدة والكرب وذلك يدل على أن الخلق كلهم على اختلاف أديانهم مفطورون على معرفة الله تعالى والإقرار به ولكن قد يصيب الفطرة ما يحرفها عن الصراط المستقيم وتحتاج حينئذ إلى النظر لأن الأصل أن معرفة الله يقينية ضرورية ليست بكسبية ولا نظرية يعني لا يحصلها العقل وإنما يقر بها القلب جعلها الله رب العالمين فطرية ضرورية ليست بكسبية ولا نظرية.

قد يشك الإنسان في هذه الحقيقة الكبرى بل حقيقة الحقائق فيحتاج حينئذ إلى النظر .

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

والتحقيق أنها ـ يعني : معرفة الله تعالى ـ فطرية ضرورية، ولكن قد يحصل لبعض الفطر ما يُفسِدها، فيحيلنا إلى نظر، كما يقرن النظر بالضرورة .اه

فهي في الأصل ضرورية وقد تكون نظرية وهذا ما نحن فيه نحن لا نحاول إثبات ما هو ثابت لكن قد تتلوث الفطرة وقد تنحرف فيحتاج حينئذ إلى النظر يعني إلى الدليل سواء كان دليلا عقليا أو كان دليلا ينبه عليه الحس أو يلفت إليه بما عليه الإنسان في فطرته الأصلية إلى غير ذلك .

ما يحدث إذا ما أصاب الإنسان كرب ؟ فانه حينئذ يعود إلى ما هو مركوز في فطرته من المعرفة اليقينية الضرورية بوجود الله رب العالمين .

ذهب عامة السلف إلى أن المعرفة بالله فطرية ضرورية وذهب جمهور المتكلمين من المعتزلة ومن تبعهم من الشيعة الإمامية والزيدية والأشاعرة والماتريدية إلى أن معرفة الله جل وعلا كسبية نظرية .

وقد حكى الإجماع على أنها فطرية ضرورية ابن أبي العز في { شرح الطحاوية }فقال :

أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ.اه

وهو لا يحتاج إلى إقامة دليل على ذلك لا يحتاج إلى النظر ولا إلى قصد النظر فضلا عن أن يحتاج إلى الشك في وجود الله تعالى ثم بعد ذلك يثبت وجود الله بالدليل العقلي حتى لا يكون مقلدا لأنهم قالوا : لو أن الإنسان نشأ في بيئة نظيفة في وسط قوم مسلمين موحدين برب العالمين فخرج موحدا يقولون : هذا مقلد وإيمان المقلد لا يصح !! وهذا من أعجب العجب فماذا تريدون ؟ يقولون : لكي يصح إيمانه ينبغي عليه أن يشك في وجود الله أولا ثم عليه أن يجتهد بعد ذلك في إثبات وجود الله بالطريقة الكسبية النظرية وهذا على الضد مما عليه الفطرة الإنسانية فالحمد لله الذي هدانا من هذه المضائق كلها ونسأل الله أن يديم علينا فضله وأن يزيدنا منه انه على كل شيء قدير .

{بحث في السببية}

في كتاب { الوجود الحق } بحث عن السببية { والمراد بالسببية هنا: أن الإنسان الذي أنعم الله عز وجل عليه بالعقل }في هذا البحث أنه منذ أن أشرقت أشعة عقله على الوجود بدأ يتساءل ولا يزال وسيبقى يتساءل عن بداية نشأته، وأين سينتهي مصيره؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم إنما كان من رحم أمه أو من نطفة أبيه لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة دون النظر إلى المبدأ الأول والبحث عن السبب الأساسي التي ترجع إليه جميع الأسباب بهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية والذي ولد معها وما زال يلازمها كان الجواب عن هذا السؤال

شغل المحققين الشاغل فنشأت أحكام مختلفة ونظريات متباينة وكان منهم مخطئ ومصيب غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض نرى أن المطر ينهمر من سحاب وأن الثمر يحصل من ثمر وأن الشجر ينبت من الماء والتراب وأن الماء ينشأ من عنصري الأكسجين والهيدروجين ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينية على الوجود أن حادثا حدث من غير سبب أن شيئا وجد من غير موجد حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره ولا يأبى الإقرار به الا عقل مريض شأن المعتوهين أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول : انه انكسر بنفسه لأنه يخشى العقاب فإذا قيل له ؟ يقول : هو الذي كسر نفسه ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادى نداءه المشهور : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج أفلا تدل على الصانع الخبير ؟!!

بهذا الواقع الصريح والإدراك القاهر وجريان الحوادث أبدا على هذا القانون ـ يعني : قانون السببية ـ أضحى هذا المبدأ مسلما به حتى في كتب الفلسفة وسمي بمبدأ السببية وهو أول مبادئ العقل الديرة للمعرفة لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية ولو التفت إلى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك لو التفت إلى ذلك لوجدته كله لا يخلو في أي مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية إذن فقولنا : لا بد لكل حادث من محدث أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره وبالتالي محال على حادث أن يحدث نفسه أو أن يحدث بذاته وعلى شيء أن يوجد بغير موجد واليه الإشارة في القران الكريم بقوله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) } فبناء على هذه القاعدة تقول : ان عالمنا هذا من أرض وجبال وشجر ودواب وكواكب وشموس لا بد له من محدث ان هذه الحوادث الفرعية الكثيرة مندفعة عن أسباب أي ناتجة عنها وهذه الأسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى ولا بد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات بمحدث لجميع هذه الحادثات لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات قلت العوامل الدافعة حتى نصل أخيرا إلى مسبب واحد كنظرك إلى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ذهبت إلى

قليل من كثير حتى تنتهي إلى ساق واحدة وانك تجد لهذه أمثلة كثيرة هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال .

إذن محدث للحوادث وموجد للوجود تناقض مع العقل وإقامة على الخطأ ولعله لهذا الإلزام المنطقي الذي لا مناص منه سمي بالواجب الوجود حفاظا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض أو بالبلاهة والتبلد إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم هذا وان قدم المبدأ أو قول كثيرين به أو ظهوره بمظهر البديهية لا يقضي عليه يعني لا يقال حينئذ : انه من الرجعية هذا مبدأ قديم أو قال به المتقدمون إلى غير ذلك مما يأخذ به كثير من الزائغين فيقولون : إنما نرده لأنه من كلام القدماء ولكن هذا لا يخرجه من الحق إلى الباطل ما دام العقل يمليه وما دام الواقع يؤيده الا إذا كان الداعي إلى الإنكار استكبارا على كل قديم أو عقوقا للمنطق السليم أو جريا مع كل هوى سقيم شأن الحمقى والمرضى والمغرورين وقد يقول قائل : ان المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة وسيأتي الكلام عنها ان شاء الله في مبحث مستقل

أو يقول : إذا أقررنا بوجود الخالق فمن الذي أوجد الخالق ؟ لكن الذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحا مجزوما به لا بد لكل حادث من محدث إذن فلا بد لهذا العالم من خالق ونسمي هذا المبدأ : القاعدة الأولى.

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالم وحدوثه فيقول : ان هذه القاعدة تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه .

وهناك من يقول بقدم أي : أنه لا أول له فيعطون العالم الأولية وهذه الأولية المطلقة لله رب العالمين وحده وهو الأول الذي قبله شيء فلأنه يفرون من الحدوث الذي لا بد أن يقروا به فإذا أقروا به أقروا بوجود الخالق المحدث من أجل أن يفروا من إثبات وجود الخالق تبعا لخلق الخلق وحدوث العالم قالوا : هو قديم فيثيرون هذه القضية قضية قدم العالم وحدوثه

ان هذه القاعدة تستقيم ـ يعني أن لكل حادث محدثا ـ تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه . والبرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه فقد قيل بناء على ملاحظة الحركة والسكون : ان دورة من الفلك إما أن تكون شفعا أو وترا فان كانت شفعا فقد أتمت عددا فرديا

وان كانت وترا فقد أتمت عددا زوجيا إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ولما كان محدودا فهو حادث قطعا يعني الآن الفلك يدور فأنت تقول : هذه الدورة إما أن تكون عددا فرديا مع ما قبلها أو عددا زوجيا وفي الحالات كلها سواء كان عددا فرديا أم كان عددا زوجيا فالعدد متناه إذا فلا بد أن يكون له بدء فعلى كلا الحالين هذا محدود ولما كان محدودا فهو حادث قطعا يعني وجد بعد أن لم يكن موجودا هذه الدورات نهائية وليست بلا نهائية مهما بلغ عدده ما دامت نهائية فإذن لم تكن قبل فمن الذي أوجدها ؟ ومن الذي أعطى هذه الأجرام حركتها ؟

هذا كله يدل على وجود الخالق لو استمر الناقد فقال : ان أصل العالم هيولاهو القديم هذه نظرية عندهم نظرية الهيولا يقولون : والحركة طارئة فيقال لهم : من أين طرأت الحركة ؟!!

فهذا إذن إقرار منهم صريح بوجود مرجح أخر أثر على العالم بإيجاد الحركة بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم فالناقد بين أمرين : اما أن يرجع إلى القول بالحدوث وحينئذ لا بد عليه أن يعترف بالخالق أنو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف أيضا بالخالق إذن فنقد الناقد واه لم يصل إلى القرارة ولم يثبت على النقل .

والقول بقدم العالم باطل لا يسنده برهان بل الذي يسنده البرهان كما مر هو : القول بحدوث العالم لا القول بقدمه وهكذا تنهار المادية الجدلية التي أتى بها ماركس والتي أسست عليها الشيوعية في الديالكتيك وما أشبه فيما يتعلق بالمادية الجدلية هذا كله باطل كما ترى بأقل حجة عقلية والمذهب كله ينهار ولا يثبت على النقل بهذه الحجة العقلية اليسيرة فتنهار المادية الجدلية التي تقول بقدم العالم هربا من الإقرار بوجود الخالق العظيم ويتفلتون بقولهم بقدم العالم من البرهان الملزم والدليل القطعي .

قد يستغرب بعض الناس القول بأنها تنهار بهذه السرعة وبمثل هذا البرهان الذي يظن فيه أنه ليس بشيء ولكن ان عقدا في نظام أي في سلك عقد بجباته في سلك لو بلغ ألف حبة لانفرط كله بحل العقدة الأولى ان لم ترد ذلك فاحذف من المادية الجدلية قولها بقدم العالم حيث ثبت أن ذلك باطل فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية هو إلحادها في الخالق وعند الإقرار بخالق الوجود تنشأ أحكام أخرى وهذا هو الأساس الذي أسسوا عليه المادة فيما يتعلق بالشيوعية جملة فإذا انهار هذا

الأساس انهارت كلها فتهدم أحكامها الفرعية دون أن يكون النقد موجها إلى الفروع مباشرة لأنك هدمت الأصل فانهارت الفروع تبعا كما أن الشجرة تتهاوى فروعها كلها إذا ما حطمت جزعها فانه إذا ما انهار ذلك الجزع تهاوت الفروع كلها بصفة عفوية كالبناء الشامخ يتداعى جملة واحدة بنقد أساسة ولقد صورت الآية الكريمة التالية هذا المعنى بتلك الصورة المحسوسة الرائعة { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)

إذن هذا العالم حادث غير قديم قطعا ما قال بقدمه من قال الا فرضا للأي بغير برهان هكذا مجانبة للحق دون تبيانه ولما كان حادثا فلا بد له من محدث كما مر في القاعدة الأولى هذه هي السببية : أن العالم حادث وما دام العالم حادثا فلا بد له من محدث .

قال القاسمي في {دلائل التوحيد}:

العالم اما أنه أحث ذاته أو حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث هو نفسه أو يكون أحدثه غيره فان كان هو أحدث ذاته كان علة لنفسه متقدما عليها فلزم كونه قبل أن يكون ـ وهو محال ـ وأيضا فانه يوجب أن يكون الشيء غير ذاته وهذا محال باطل بالمشاهدة والحس وان كان خرج عن العدم إلى الوجود بغير أن يخرج هو ذاته أو يخرجه غيره فهذا أيضا محال لأنه لا حال أولى بخروجه إلى الوجود من حال أخرى ولا حال هناك أصلا فإذن لا سبيل إلى خروجه وخروجه مشاهد متيقن واذا بطل أن يخرج العالم بنفسه وبطل أن يخرج دون أن يخرجه غيره فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة إذ لم يبق غيره البتة فلا بد من صحته وهو : أن العالم أخرجه غيره من العدم إلى الوجود وهو بالضرورة : الخالق جل وعلا أشار إلى ذلك ابن حزم في الفصل .اه

وثمة في باب الانحصار الملزم طريقة أخرى أشار لها بعض المحققين قال :

ان وجود الأشياء اما بالاتفاق والصدفة وإما بالضرورة وإما بالقصد والإرادة وكل من الأول والثاني باطل أي بالاتفاق والصدفة وكذلك بالضرورة هذا باطل وإما بالقصد والإرادة فهذا هو الذي يثبت لا محالة . اه

لا يمكن أن يثبت العالم بمحض الاتفاق والصدفة لأنه يقتضي وجود معلول بلا علة ولا يمكن أن يكون بالضرورة لأنه يقتضي أن الأشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الأزل والواقع على خلاف ذلك وحينئذ كيف توزعت عناصر العالم على نسبها المعلومة إذن كان الذهب أقل من الحديد وكان الحديد أقل من الصلصال وكيف استنسبت الكرة الأصلية في خاص موادها وصفاتها ومقاديرها وتوزعت على مقتضى حاجة الأحياء وانتشارها ونموها ؟ وكيف نشأت الحياة من الجماد ؟

ما ذلك الا لأن كل حي قائم بعناية خالق ضابط للكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق الأزلي .

وهذه الطريقة من الأدلة العلمية والعلم الحق دليل على الإله الحق كما قال القاسمي غفر الله له .

دلالة العقل من الأدلة العلمية ودلالة العقل على أن الممكن محتاج إلى موجد ومؤثر وهي دلالته على وجود الخالق فنقول : هل وجود هذه الكائنات بنفسها أو وجدت صدفة ؟

فان قلت : وجدت بنفسها فمستحيل عقلا ما دامت هي معلومة فكيف تكون موجودة وهي معدومة.

المعدوم ليس بشيء حتى يوجَد وحتى يوجِد .

إذن لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها .

وان قلت : وجدت صدفة فهذا مستحيل أيضا ويقال : أنت أيها الجاحد هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها هل وجد هذا صدفة ؟!

فيقول : لا يمكن أن يكون .

فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبدا كما مر في قصة أبي حنيفة مع السمنية ومن أهل الهند الذين ناظروه في إثبات الخالق العظيم سبحانه .

قال ابن كثير في {تفسيره }:

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَيْ أُوجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ، أَيْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا.اه

إذن الفطرة تقر بوجود الخالق العظيم وهذا يقين في الفطر السليمة المستقيمة ولكنها قد تنحرف فتحتاج حينئذ إلى إقامة الأدلة النظرية العقلية على إثبات وجود الباري جل وعلا كما مر في تقرير قانون السببية فان هذا لا يمكن أن يدع وهو مفض لا محالة إلى إثبات وجود الباري جل وعلا.

في كتاب {الفيزياء ووجود الخالق}:

قال بعض الملحدين : انه ليس هناك من خالق لأنه لا دليل على ذلك من عقل ولا حس ويقول بعض المؤمنين من المسلمين وغير المسلمين : بلى ان للكون خالقا ولكنهم يوافقون الملحدين في أنه لا دليل عقلي على وجوده وأن التصديق بوجوده أمر يعتمد على الإيمان القلبي فحسب لا على الدليل العقلي أو هو أمر يعتمد فحسب على تصديق الرسل فيما أتوا به .

أما كون الإقرار بوجود الخالق أمرا إيمانيا قلبيا فلا شك في ذلك وأما كونه أمرا تعززه رسالات الله فهذا لا شك فيه أيضا ولكن من قال أن الإيمان والعلم لا يجتمعان ومن قال أن القلب يطمئن إلى ما لا يدل عليه عقل من قال هذا فليس في لغة العرب ولا استعمالات القران هذا التقابل الشائع بين القلب والعقل بل ان ما يسمى في الاصطلاح الشائع : عقلا والذي يسمى في القران الكريم ولغة العرب : قلبا .

وأما العقل : فانما هو في لغة العرب والاستعمال القرآني فعل القلب فالقلب هو المحل والعقل هو ما يحدث في ذلك المحل - أي في القلب - لذلك لم تأت كلمة العقل في القران الكريم الا فعلا ولم تأت اسما قط حتى حين تستعمل في غير القران الكريم اسما فانما المقصود به : المصدر فتقول : عقل عقلا كما تقول : قرأ قراءة وقد يقال : العقل ويراد به القلب من باب تسمية الشيء بمحله كما مر وقد يكون العكس أيضا .

إذن فبالقلب يفكر الإنسان وبه يتأمل ويستنتج وبه يحب ويكره وغني عن القول أن المقصود بالقلب هنا ليس هو مجرد ذلك العضو الحسي الصنوبري الذي يوجد في الجهة اليسرى من الصدر وإنما المقصود به أساسا : الروح التي بها تكون كل أنواع الوعي البشري .

وأما الجسم قلبا أسميناه أم دماغا : فليس مصدرا ولا محلا للوعي لكن له به تعلقا لتعلقه هو بالروح .

إذن من قال : ان القلب يطمئن إلى ما لا يدل عليه العقل .

ان الإيمان الصحيح المعتبر هو : الإيمان القائم على العلم وإلا لم يكن هنالك من فرق بين من يؤمن بوجود خالق ومن يؤمن بوجود خالقين ومن لا يؤمن بخالق أصلا لأن كلا منهم يمكن أن يقول : ان اعتقاده أمر قلبي لا يخضع للمناقشة العقلية {وحينئذ لا يقوم لك عليه برهان ولا سلطان لأنه يرجع ذلك إلى القلب وحده فيقول : هذا ما أوقن به بقلبي هذا ما هداني قلبي إليه فلا يخضع هذا اليقين القلبي للمناقشة العقلية } وحينئذ لم يعد من حق أحد منهم أن يقول للاخر: انك مخطأ في اعتقادك .

فمن قال : ان القلب يطمئن إلى ما لا يدل عليه العقل .لو كان ذلك راجعا إلى القلب وحده لكان لكل حجة .

الذي يعتقد بوجود اله يقول : دلني القلب والذي يعتقد بوجود الهين أو ثلاثة يقول : القلب دلني أيضا ولا مدخل للعقل ههنا فلا يقبل حجة من أحد وكذلك الذي ينكر وجود الإله أصلا فيقول : دلني على إنكاره القلب فحينئذ لا يكون للحجة العقلية معه مجال !!

هذا من أعجب ما يمكن أن يقرره مقرر لأن القران سلك مسلكا عقليا في إثبات وجود الرب تعالى في كثير من الآيات { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) } هذا مسلك عقلي يلفت الإنسان إلى قانون السببية كما مر من أنه لا بد لكل موجود من موجد ولا بد لكل صنعة من صانع ولكل مخلوق من خالق وهذا مقرر ثابت كما مر ذكر بعض الأمثلة عليه من أن الإنسان إذا وجد في ساحة المسجد ثم وجد بعد ذلك فوق سطح المسجد فأننا لا نستغرب منه ذلك ولن لو وجد حجر في ساحة المسجد ثم وجدناه فوق سطح المسجد فأننا نقول : من الذي صعد بهذا الحجر إلى هذا المكان ؟ لأنه لا بد لما لا حركة له من محرك وكذلك لا بد لكل موجود من موجد ولا بد لكل مخلوق من خالق ولا بد لكل صنعة من صانع .

نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا انه على كل شيء قدير .

في كتاب {الفيزياء ووجود الخالق}:
قال بعض الملحدين : انه ليس هناك من خالق لأنه لا دليل على ذلك من عقل ولا حس ويقول بعض المؤمنين من المسلمين وغير المسلمين : بلى ان للكون خالقا ولكنهم يوافقون الملحدين في أنه لا دليل عقلي على وجوده وأن التصديق بوجوده أمر يعتمد على الإيمان القلبي فحسب لا على الدليل العقلي أو هو أمر يعتمد فحسب على تصديق الرسل فيما أتوا به .
أما كون الإقرار بوجود الخالق أمرا إيمانيا قلبيا فلا شك في ذلك وأما كونه أمرا تعززه رسالات الله فهذا لا شك فيه أيضا ولكن من قال أن الإيمان والعلم لا يجتمعان ومن قال أن القلب يطمئن إلى ما لا يدل عليه عقل من قال هذا فليس في لغة العرب ولا استعمالات القران هذا التقابل الشائع بين القلب والعقل بل ان ما يسمى في الاصطلاح الشائع : عقلا والذي يسمى في القران الكريم ولغة العرب : قلبا .
وأما العقل : فانما هو في لغة العرب والاستعمال القرآني فعل القلب فالقلب هو المحل والعقل هو ما يحدث في ذلك المحل ـ أي في القلب ـ لذلك لم تأت كلمة العقل في القران الكريم الا فعلا ولم تأت اسما قط حتى حين تستعمل في غير القران الكريم اسما فانما المقصود به : المصدر فتقول : عقل عقلا كما تقول : قرأ قراءة وقد يقال : العقل ويراد به القلب من باب تسمية الشيء بمحله كما مر وقد يكون العكس أيضا .
إذن فبالقلب يفكر الإنسان وبه يتأمل ويستنتج وبه يحب ويكره وغني عن القول أن المقصود بالقلب هنا ليس هو مجرد ذلك العضو الحسي الصنوبري الذي يوجد في الجهة اليسرى من الصدر وإنما المقصود به أساسا : الروح التي بها تكون كل أنواع الوعي البشري .
وأما الجسم قلبا أسميناه أم دماغا : فليس مصدرا ولا محلا للوعي لكن له به تعلقا لتعلقه هو بالروح .
إذن من قال : ان القلب يطمئن إلى ما لا يدل عليه العقل .

ان الإيمان الصحيح المعتبر هو : الإيمان القائم على العلم وإلا لم يكن هنالك من فرق بين من يؤمن بوجود خالق ومن يؤمن بوجود خالقين ومن لا يؤمن بخالق أصلا لأن كلا منهم يمكن أن يقول : ان اعتقاده أمر قلبي لا يخضع للمناقشة العقلية {وحينئذ لا يقوم لك عليه برهان ولا سلطان لأنه يرجع ذلك إلى القلب وحده فيقول : هذا ما أوقن به بقلبي هذا ما هداني قلبي إليه فلا يخضع هذا اليقين القلبي للمناقشة العقلية } وحينئذ لم يعد من حق أحد منهم أن يقول للاخر: انك مخطأ في اعتقادك . فيقبل كل اعتقاد كل بهذا التسليم المرفوض عقلا وفطرة وحسا ولو كان الأمر كذلك لكان من حق من شاء أن يؤمن بما شاء من غير تثريب عليه واذا كان بعض المتدينين من غير المسلمين يلجؤون إلى مثل هذه الأقوال المتهافتة ليستروا بها عيب اعتقاداتهم الفاسدة لأنها ـ أي : هذه الاعتقادات الفاسدة ـ لا يقوم عليها برهان عقلي في الأصل فما هكذا ينبغي أن يكون موقف المؤمن المسلم وهو يقرأ في كتاب ربه {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}فالعلم أولا ثم الإيمان المترتب على هذا العلم ترتبا تعبر عنه فاء السببية { فَيُؤْمِنُوا بِهِ}ثم يأتي الاخبات المترتب على الإيمان { فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}ويقرأ المؤمن المسلم في عشرات من آيات القران المجيد تشديد النكير على الذين يتبعون الظنون والأهواء ويتكلمون بغير علم ويدعون في مجال أصول الدين دعاوى لا تسندها الأدلة والبراهين ويعدهم من الجاهلين بل من غير العاقلين ويتوعدهم بأشد أنواع الوعيد { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}{ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)}{ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}

إذا قلت هذا قال بعضهم: نحن لا ننكر أن يكون على وجود الصانع تعالى أي دليل وإنما نقول: انه لا يوجد عليه دليل من النوع الذي يسمى بالدليل العلمي بالمصطلح الحديث أو : الدليل المنطقي البرهاني لكن هذا ليس بالكلام الدقيق الا إذا فهم هذان الدليلان ـ يعني : الدليل العلمي بالمصطلح الحديث وكذلك الدليل المنطقي البرهاني ـ الا إذا فهما فهماً ضيقا يجعلهما خاصين

ببعض العلوم ولا فما معنى الدليل العلمي ؟!وما الأدلة التي يقبلها العلماء الطبيعيون من فيزيائيين وكيميائيين وإحيائيين وغيرهم ؟!!

أنهم يقبلون الدليل الحسي المباشر فكل ما شهد الحس بوجوده شهادة مباشرة فهو موجود لا شك في وجوده وهذا دليل مقبول عند العقلاء كافة وله في الدين مكانة كبيرة كما مر أن المنهج العلمي الحديث فيما يتعلق بالبحث العلمي في أمر المادة وأسرارها في هذا العصر هو منهج قراني بطبيعته وقد مر التدليل على ذلك من آيات ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم .

هذا الذي يذهبون إليه في أمر المشاهدة المباشرة هذا أمر مقبول عند العقلاء كافة وله في دين الإسلام مكانة كبيرة لكن الأدلة العلمية ليست محصورة في هذا الدليل فما كل ما يصدق العلماء الطبيعيون أو عامة العقلاء بوجوده هو مما شوهد مشاهدة مباشرة بالحواس المجردة والآلات المساعدة بل ان الإصرار على عدم قبول دليل سوى الدليل الحسي المباشر هو نفسه من علامات عدم العقلانية ولو أن العلماء الطبيعيين وسائر العقلاء لم يقبلوا دليلا غير هذا الدليل لما تقدم علم من العلوم بل ولا قامت لعلم قائمة ولهذا فان القران الكريم حين يستنكر حصر الأدلة في هذا الدليل وينعى على المطالبين به في غير موضعه إنما يقرر حقيقة يسلم بها كل العقلاء من بني البشر { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ}وهم يريدون أمرا محسوسا ولا يؤمنون الا بذلك { فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } وكذلك في قول ربنا جل وعلا { إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) }وهم يرجعون الأدلة كلها إلى هذا الدليل الحسي الذي يرونه مباشرة ويخضع للحس فنعى عليهم الفران العظيم هذا الذي قالوه وقد قالوه من قبل فان الملحدين المعاصرين الذين ينكرون وجود الرب تعالى لم يأتوا بدليل .

النوع الثاني من الأدلة التي يقبلها العقلاء وسائر العلماء على وجود الأشياء هو : الاستدلال على الغائب غير المشاهد بالواقع المشاهد وهذا الاستدلال أنواع ترجع كلها بصورة أو أخرى إلى الاستنباط المنطقي المعروف لكن نتائج الاستنباط تصدق أو تكذب وتقوى أو تضعف بحسب صدق المقدمات ومدى الثقة بهذا الصدق .

البرهان الكوني على وجود الله

الأدلة على وجود الخالق كثيرة لكن المتعلق منها بكون المشهود على خالقه ثلاثة أدلة هي : البرهان الكوني ودلالة الآيات ودليل العناية ويلحق به الدليل الخلقي وهذه البراهين تجعل عند الإتيان بها أساسا لمناقشة الملحدين الفلاسفة الفيزيائيين الغربيين وغيرهم لأن هؤلاء إنما يصدرون من قواعد علمية .

وأما الذين يلحدون الحاد بطن وفرج ، أو الذين يسيرون كالأنعام السائمة خلف من يضلهم من الناس ؛ فهؤلاء لا يحكمون عقلا ولا يطلبون دليلا ؛ وإنما هم يتبعون كل ناعق في كل واد ، وبما أن معظم الذين تعرضوا لمسألة وجود الخالق منهم – أي : من هؤلاء الفلاسفة الفيزيائيين الغربيين من الملحدين – لم يركزوا الا على البرهان الكوني .

إذن فليكن جل الهم مصروفا إلى البرهان الكوني .

{تعريف البرهان لغة واصطلاحا}

البرهان في اللغة : هو ما يدل على حقيقة فإذا قلت لإنسان : في المكان الفلاني شجرة ؛ فسألك : ما برهانك على ذلك ؟

قلت : إني أرى خضرة ألوانها وأسمع حفيف أوراقها أو أشم شذى أزهارها فتعال هنا فانظر إليها .

أو قد تقول : إنني لم أرها ؛ لكن فلانا وهو عندي وعندك ثقة قد أخبرني بوجودها ، أو غير ذلك مما يعده الناس في حياتهم اليومية أدلة ، فهذا برهان.

فالبرهان في اللغة : هو ما يدل على حقيقة .

وأما في الاستعمال الاصطلاحي المنطقي ؛ فإن البرهان هو أيضا : ما يدلك على حقيقة ؛ لكن دلالته محصورة في نوع معين تخرج عنه دلالة الحواس ودلالة الأخبار وغيرها .

فإذا قلت لطالب : ما برهانك على أن مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة ؟

فلا يعد برهانا قوله : لقد قست كل ما وجد من مثلثات فوجدتها كذلك ، ولن يجدي قوله : إن أستاذ الرياضة أنبأنا بذلك .

البرهان بالمعنى الاصطلاحي هو : أن تستخلص أو تستنتج الحقيقة المراد برهانها من حقيقة أو حقائق أخرى هي مقدمات البرهان بحيث يلزم كل من يسلم بها - أي : بالمقدمات - أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إليها ، وإلا ناقض نفسه ؛ لأنه سلم بالمقدمات التي تؤدي إلى نتيجة حتمية ، ثم لما جاءت النتيجة ؛ رفض النتيجة ؛ لأنه حينئذ يكون متناقضا ؛ لأنه سلم بالمقدمات التي أدت إلى النتيجة .

فإذا سلم الإنسان مثلا بأن كل ما يسكر فهو خمر محرم شربه ، وسلم بأن الشراب الفلاني مسكر ؛ فيلزمه القول بأنه خمر محرم ؛ لأن المقدمتين قد أديتا إلى هذه النتيجة التي لا يمكن أن يردها فإنه يقال له : ما تقول في هذه المقدمة : كل ما يسكر فهو خمر محرم شربه ؟

يقول : أنا أقر بذلك .

فيقال له : وما تقول في هذه المقدمة : هذا الشراب مسكر ؟ فيقول : نعم أنا أقر بذلك .

فيقال له حينئذ : هذا الشراب خمر محرم ، فهذا ما أدى إليه استعمال النتيجتين ، وهو قد أقرهما .

فإذا قال : لا أقر بذلك وقع في التناقض ، فأنت ترى إذن أن البرهان المنطقي لا بد أن يستند إلى حقائق لا تأتي عن طريق المنطق ، وذلك بدهي ؛ لأنه مجال المنطق هو القضايا ، أي : هو أن يستنتج المرء قضية أو قضايا من قضية أو قضايا أخرى ، وليس مجاله الدلالة على الواقع الوجودي ، فهذا مجال الحواس ؛ ظاهرة كانت أم باطنة .

فبعد أن تقول : هذه الحواس أو غيرها من الأدلة الدالة على الواقع كلمتها ؛ يأتي البرهان أو المنطق ليقول : إذا كانت القضية الفلانية والقضية الفلانية قضايا صحيحة ؛ فإنه يلزم عنهما قضية ثالثة هي كذا وكذا .

لكن هذه الحقيقة التي دلنا عليها البرهان المنطقي قد تكون مما يمكن إدراكه إدراكا مباشرا بالحواس .

وكم من حقيقة استنتج العلماء النظريون بالمنطق العقلي الرياضي ضرورة وجودها ثم جاء العلماء التجريبيون فأكدوا بالآلات الحسية وجودها بعد أن أثبتت بالمنطق العقلي ، وأنها ضرورة واقعة ، ثم يأتي بعد ذلك التجريبيون من العلماء ليؤكدوا بالآلات الحسية وجود تلك الحقيقة التي أقرها العقل بعملياته المنطقية من قبل .

البرهان الكوني هو برهان منطقي بالمعنى الاصطلاحي ، أي : أنه يلزم كل من يسلم بمقدماته أن يسلم بنتيجته ، وهي : أن للكون خالقا ، وإلا ناقض نفسه ، ليس هذا فحسب ؛ بل إن المقدمات التي تقود إلى تلك النتيجة هي مقدمات لا يسع العاقل إلا التصديق بها ؛ لأنها إما من الحقائق الحسية أو من البدائه العقلية .

فإذن ؛ التدليل على وجود الخالق بهذه الطريقة المنطقية لا يعني أنه لا يمكن أن يعرف بغيرها ؛ فقد مر دليل الفطرة ، وهو غير خاضع لهذا كله ؛ فإن الإنسان بفطرته يؤمن بوجود ربه ، فهذا لا مرية فيه ، ولذلك لم يشغل القرآن في كثير من الآيات الناس بجدالهم في وجود الخالق العظيم؛ لأن الله تعالى جعل ذلك مركوزا في فطر الخلق ؛ وإنما استعمل ما يقرون به من توحيد الربوبية وإثبات الخالق العظيم كمقدمة لإلزامهم بصرف العبادة لله رب العالمين وحده .

العرب الذين جابههم الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخالق وحده للكون، كما يقرّون بأنّه وحده الرزاق النافع الضّار ، ... ولكنهم كانوا يعبدون غيره معه ، ولا يخلصون دينهم لله وحده.

وفي معرض إلزام المشركين بالعبودية لله وحده، وإخلاص الدّين له كان يسألهم عن الخالق المالك للسماء والأرض، فكانوا يعترفون، ولا ينكرون، (ولئِن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله) [لقمان: ٢٥] .

وفي سورة المؤمنون (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون - سيقولون لله قل أفلا تذكرون - قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم - سيقولون لله قل أفلا تتقون - قل من بيده

ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون - سيقولون لله قل فأنّى تسحرون) [المؤمنون: ٨٤-٨٩] . ومن المعروف أنّ العرب كانوا يُعظمون الكعبة، ويحجون، ولهم بقية من عبادات يتنسّكون بها.

فيأتي ههنا استعمال ما أقروا به من توحيد الربوبية فيقال لهم : ما دمتم تقرون أن الله هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، وهو الذي يملك الأمر ويدبره ، وهو الذي يحيي ويميت ، فلم تصرفون العبادة لمن دونه ؟!! فهذا ما استعمله الأنبياء والمرسلون جميعا .

إذن ؛ التدليل على وجود الخالق بالطريقة المنطقية لأننا نتعامل مع الملحدين وأكثرهم كما مر يقولون : نحن لا نؤمن إلا بما دلت عليه الحواس وينكرون ما وراء ذلك .

وكثير منهم أيضا يقول : إنما نؤمن بالعقل ولا نخضع إلا لبرهان العقل .

فهؤلاء عندما يراد جدالهم فلا بد من الإتيان بأمثال هذه الحجج ؛ لأنه لا يستطيعون لها دفعا لو كانوا منصفين ، وأما المكابر المعاند ؛ فهذا لا تنفع معه حجة .

فهذه الطريقة المنطقية عند الإتيان بها للتدليل على وجود الخالق العظيم ، فهذا لا يعني أنه لا يمكن أن يعرف تعالى بغيره أو لا يمكن أن يعرف معرفة مباشرة ؛ كأن يكون الإيمان به أمرا فطريا كما مر ؛ بل ضرب المثال على ذلك بأولئك القوم الذي كانوا في القديم يركبون البحر ، فإذا هاجت الأمواج وعلت وأتى من أمر العواصف ما يهدد حياتهم وسفينتهم بالغرق ؛ فإنهم حينئذ يخلصون العبادة لله رب العالمين ، ويدعون الله مخلصين له الدين ، وكذلك مر المثال في العصر المعاصر : لو أن قوما كانوا في طائرة وكانوا جميعا من الملحدين ، فوقع بها خلل فاضطرب أمرها وميزانها ، ولم يستطع طيارها أن يتحكم فيها ؛ فإنهم حينئذ يتخلون تماما عن إلحادهم ويلجئون إلى فاطر السماوات والأرض . ويعودون إلى ربهم داعينه أن ينجيهم مما حل بهم من الكرب العظيم فهذا الأمر أمر فطري بل مر ما هو أعجب من ذلك وهو الملحد المناظر الذي أقسم بالله مع أنه لا يؤمن بوجوده .

فهؤلاء في الجملة ربما كانوا من المرضى النفسيين الذين يحتاجون إلى العلاج وراء أسوار البيمارستان لا أن تدفع لهم الحجة بعد الحجة سواء بحجج الفطرة أو بحجج الخلق أو بحجج العناية

أو الهداية أو دليل الإرادة أو غير ذلك من الأدلة الدالة على وجود الرب جل وعلا .ولكن هنالك من أفسده من حوله ممن يلقون له الشبه سواء قرأها في كتاب أو سمعها في محاضرة أو أدخل نفسه في موقع من مواقع الإلحاديين على الشبكة العنكبوتية فاستقرت الشبهة في قلبه فهذا يحتاج إلى المناظرة على هذا النحو الذي نستعين الله عليه .

الإنسان قد يمر بتجربة تنزع عنه حجاب الإلحاد والشك فإذا الحقيقة ماثلة بين عيني بصيرته يستيقنها عقله كما يستيقن الحقائق الحسية الشاخصة أمام عينيه حتى الذي يستنتج قضية وجود الباري من وجود الحقائق الكونية لا يلزمه أن يسير بهذه الخطوات الطويلة التي تتطلبها صناعة المنطق بل قد يختصرها كلها في لحظة من لحظات الصفاء العقلي يقر بوجود الرب الكريم جل وعلا فلئن كان ما يقرر ههنا برهانا على وجود الخالق تعالى ؛ فما هو بالبرهان الوحيد ، وما هو بالخطوة النهائية في طريق الباحث عن الله ، فإن مهمتنا هنا هي : أن ندلل أن قضية وجود الخالق قضية يمكن الاستدلال على صدقها بالبرهان المنطقي وأن كل ما ذكره بعض المفكرين من آمن منهم بوجود الخالق ومن كفر من حجج يدللون بها على أن ذلك غير ممكن هي حجج باطلة لا تقوم لها عند النظر الصحيح قائمة .

في هذا البرهان عدة صيغ ، منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو غالط ،ومنها ما هو في شكل الدليل المنطقي الاستنباطي ، ومنها ما هو في شكل الدليل الجزئي المباشر .

فلنبدأ بالدليل في شكله المنطقي الصحيح الذي اهتم به أكثر علماء أصول الدين من المسلمين ، ومن اللاهوتيين والفلاسفة الغربيين أيضا ؛ لكنه يصاغ هنا صياغة مفصلة ، نرجو أن تساعد على إيضاحه .

يسير البرهان على مراحل لكل مقدمات تؤدي إلى نتيجة ثم تلك النتيجة تؤدي مع مقدمات أخرى إلى نتيجة ثانية ،وهكذا حتى نصل إلى ما نبتغي بحول الله وقوته .

في هذا الكون حوادث ، والحادث كما مر هو: ما وجد بعد ما كان معدوما ، وهو أيضا : الممكن ؛ فكل ممكن حادث .

والممكن : ما يستوي في حقه الوجود والعدم ، فإذا وجد ؛ فهذا حادث ، يعني : هو يحتاج إلى من يعطيه وجودا ؛ غيث ينزل ، زهر يتفتح ، طفل يولد، إنسان ينمو ويكبر ، آخر يمرض ثم يهلك ، أجسام تبنى وتتركب ، وأخرى تفنى وتتحلل .

اللبنات كون منها الأوليات ، ثم الذرات ، ومن الذرات تتكون الجزيئات ، ومنها تتكون العناصر ثم المركبات ثم الأجسام المادية المشاهدة .

قالوا : الأوليات ؛ لأنهم توصلوا بالحساب الدقيق وبالتجارب المعملية وغيرها إلى أن هنالك ما هو أدق من الذرات فقالوا : هذه الأوليات هي التي تكون الذرات ، والذرات تتحد في جزيئات ، والجزيئات تكون العناصر ، وهذه العناصر إذا ما اتحدت ؛ كونت المركبات ، ثم تأتي هذه الأجسام المادية المشاهدة من الغازات الأولية تتكون مجرات تتكون منها نجوم ، ومن المجرات مجموعات مجرات ، ولكل من هذه الكائنات ساعة ميلاد ويوم هلاك ، فمن الذي أوجدها ؟! ومن الذي يفنيها ؟!

هل جاءت من العدم ؟!! وهذا لا يقبله العقل ؛ لأنها وجدت ، فهل يمكن أن تكون قد أوجدت نفسها بعد أن كانت معدومة ؟!! هي لم تكن موجودة أصلا ، فكيف توجد نفسها ؟!!

ومعنى ذلك : أنها تكون سابقة على وجودها ، لا بد لها إذن من سبب أحدثها ؛ لكن هذا السبب لا يمكن أن يكون الشيء المحدث نفسه ؛ إذ كيف يسوغ عقلا أن يكون الحادث المعين سببا في إحداث نفسه ؟!!

قد مر هذا بفضل الله في المقدمات .

لا بد إذن أن يكون سببه شيئا غيره ؛ لكن إذا كان هذا السبب الخارجي هو نفسه حادثا ؛ كالأسباب الطبيعية التي نشاهدها ؛ فانه سيحتاج كالحادث الأول إلى سبب ، يعني : الذي كان قبله سيحتاج إلى سبب ، وسيحتاج سببه إذا كان حادثا إلى سبب ، وهكذا ؛ لكن هذا التسلسل في العلل والمؤثرات مستحيل عقلا ، لا بد إذن من أن يكون السبب الحقيقي للحوادث سببا غير حادث ، وهو ما سماه المتقدمون من علمائنا بواجب الوجود ، أي : لا بد أن يكون شيئا أزليا ليس لوجوده ابتداء ، أي : هو الأول الذي قبله شيء .

الأول الذي ليس قبله شيء ليس حادثا ، وأما الأول الذي قبله شيء ؛ فلا شك أنه يكون حادثا ، بمعنى أنه لم يكن ثم كان ، كان معدوما ثم وجد ؛ فمن الذي أعطاه وجوده ؟ يمتنع أن يكون هو أعطى نفسه الوجود كما مر .

إذن لا بد من موجد له .

التسلسل والدور هذا باطل كما هو معلوم إذن لا بد أن يكون هذا السبب الأزلي ليس لوجوده ابتداء ولا يمكن أن يكون هذا السبب الأزلي شيئا سوى الله فلنركز على هذا البرهان فلتتبين أن علم الفيزياء لم يبطل شيئا من مقدمات هذا البرهان بل زادها رسوخا وهذه المقدمات تقود لا محالة إلى النتيجة التي هي وجود خالق للكون .

{ الفرق بين برهان الآيات والبرهان الاستنباطي }

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبينا الفرق بين برهان الآيات والبرهان الاستنباطي :

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْآيَاتِ وَبَيْنَ الْقِيَاسِ: أَنَّ ﴿ الْآيَةَ ﴾ هِيَ الْعَلَامَةُ وَهِيَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ عَيْنَ الْمَدْلُولِ. لَا يَكُونُ مَدْلُولُهُ أَمْرًا كُلِّيًّا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمَطْلُوبِ وَغَيْرِهِ. بَلْ نَفْسُ الْعِلْمِ بِهِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِعَيْنِ الْمَدْلُولِ. كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ آيَةُ النَّهَارِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} . فَنَفْسُ الْعِلْمِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِوُجُودِ النَّهَارِ. وَكَذَلِكَ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِلْمُ بِنُبُوَّتِهِ بِعَيْنِهِ لَا يُوجِبُ أَمْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ. وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرَّبِّ تَعَالَى نَفْسُ الْعِلْمِ بِهَا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ تَعَالَى لَا يُوجِبُ عِلْمًا كُلِّيًّا مُشْتَرِكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَالْعِلْمُ بِكَوْنِ هَذَا مُسْتَلْزِمًا لِهَذَا هُوَ جِهَةُ الدَّلِيلِ فَكُلُّ دَلِيلٍ فِي الْوُجُودِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَلْزِمًا لِلْمَدْلُولِ وَالْعِلْمُ بِاسْتِلْزَامِ الْمُعَيَّنِ لِلْمُعَيَّنِ الْمَطْلُوبِ أَقْرَبُ إلَى الْفِطْرَةِ مِنْ الْعِلْمِ بِأَنَّ كُلَّ مُعَيَّنٍ مِنْ مُعَيَّنَاتِ الْقَضِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ يَسْتَلْزِمُ النَّتِيجَةَ وَالْقَضَايَا الْكُلِّيَّةُ هَذَا شَأْنُهَا.اهـ

برهان الآيات هذا هو : البرهان الذي يستعمله القران الكريم ليدل الناس على وجود الخالق وصفاته فيستخدم برهان الآيات كما في قوله تعالى { أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)} هذا برهان الآيات هذه آية وهي تدل كما ترى على المدلول دلالة مباشرة {

أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)}{ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)}.

برهان الآيات هذا لا يعتمد على قضية كلية .

تقول : ان كل حادث لا بد له من محدث بل يعتمد على ما هو أقوى بداهة من العقل وهو العلم بأمثال هذه الحقائق الجزئية المعينة فعلم الإنسان مثلا بأنه مفتقر إلى من يوجده ويحدثه أسبق عنده وأقوى بداهة من أن يستدل عليه بقضية كليه .

تقول له : انك حادث وكل حادث لا بد له من محدث فأنت لا بد لك من محدث هذا هو الاستدلال الاستنباطي المنطقي .

وأما دليل الآية ففوق ذلك وأرفع منه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

قَدْ يَكُونُ الْعِلْمُ بِحُكْمِ الْمُعَيَّنِ فِي الْعَقْلِ قَبْلَ الْعِلْمِ بِالْحُكْمِ الْكُلِّيِّ الْعَامِّ. كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْعَشَرَةَ ضِعْفُ الْخَمْسَةِ: لَيْسَ مَوْقُوفًا عَلَى الْعِلْمِ بِأَنَّ كُلَّ عَدَدٍ لَهُ نِصْفِيَّةٌ فَهُوَ ضِعْفُ نِصْفَيْهِ. وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُهُ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} ؟ اه

هذه قضية منطقية ولكن معرفتك أنت بأن العشرة ضعف الخمسة سابقة على هذا فهذا أمر كأنه فطر عليه الخلق .

فملخص ما يقوله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :هو أن النتيجة التي يؤدي إليها البرهان المنطقي هي : أنه لا بد أنه للكون من خالق أو محدث أو مسبب لكنه لا يدلك على عين هذا الخالق وإنما يأتي لك بقضية كلية قد يختلف الناس فيها أي : أنه لا يدلك على أن هذا الخالق هو الله تعالى ولذلك لما أثبتوا بهذا البرهان الاستدلالي المنطقي وجود الخالق قالوا : القوة العظمى التي تؤثر في الكون .

القوى الفاعلة ! الإرادة الجازمة ! وضلوا في هذا ضلالا مبينا .

وأما دلالة وبرهان الآيات فهو يدلك على وجود اله تبارك وتعالى مباشرة لا يدلك على قضية كلية يضل فيها العقل ويزل فيها الفهم .

شيخ الإسلام رحمه الله لا يقول : ان الطريقة المنطقية ليست صحيحة بل يصرح في كثير من كتاباته بأنها صحيحة لكنه يرى أنها لا توصلك إلى العلم بالذات الإلهية بل إلى علم بخالق أو محدث هكذا بطريقة كلية.

وأما طريقة الآيات : فتدلك على عين الخالق سبحانه كما يدلك صوت إنسان تعرفه على عينه وكما يدلك شعاع الشمس على عينها .

قد تقول للشيخ رحمه الله تعالى : أنني عرفت الشمس أولا وعرفت أن لها شعاعا ثم لما رأيت الشعاع علمت بوجود الشمس كذلك الأمر بالنسبة للصوت فأنا عرفت الشخص أولا وعرفت تميزه بهذا الصوت الذي هو صوته ثم لما سمعت الصوت عرفت أنه صوته .

وشيخ الإسلام يوافقك على هذا ولا ينكره .

يقول رحمه الله :

ثُمَّ الْفِطَرُ تَعْرِفُ الْخَالِقَ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَإِنَّهَا قَدْ فُطِرَتْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ بِدُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَهُ، فَإِنَّ كَوْنَهَا آيَةً لَهُ وَدَلَالَةً عَلَيْهِ: مِثْلَ كَوْنِ الِاسْمِ يَدُلُّ عَلَى الْمُسَمَّى فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَصَوَّرَ الْمُسَمَّى قَبْلَ ذَلِكَ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا اسْمٌ لَهُ، فَكَذَلِكَ كَوْنُ هَذَا دَلِيلًا عَلَى هَذَا يَقْتَضِي تَصَوُّرَ الْمَدْلُول عَلَيْهِ وَتَصَوُّرَ أَنَّ ذَلِكَ الدَّلِيلَ مُسْتَلْزِمٌ لَهُ، فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَدْلُول، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْمَدْلُولُ مُتَصَوَّرًا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَيْهِ، فَمَعْرِفَةُ الْإِضَافَةِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى تَصَوُّرِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إلَيْهِ؛ لَكِنْ قَدْ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَالِمًا بِالْإِضَافَةِ وَلَا كَوْنِهِ دَلِيلًا، فَإِذَا تَصَوَّرَهُ عَرَفَ الْمَدْلُولَ إذَا عَرَفَ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لَهُ، وَالنَّاسُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ لِلْخَالِقِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ؛ حَتَّى يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ دَلَائِلُ مُسْتَلْزِمَةٌ لَهُ.

فإذا قال قائل : : أنني عرفت الشمس أولا وعرفت أن لها شعاعا ثم لما رأيت الشعاع علمت بوجود الشمس كذلك الأمر بالنسبة للصوت فأنا عرفت الشخص أولا وعرفت تميزه بهذا الصوت الذي هو صوته ثم لما سمعت الصوت عرفت أنه صوته .

فيقال : نعم ولا ننكر ذلك وأنت أيضا تعرف الله قبل أن تأتي الآية لأنه مغروز في فطرتك أن الله عز وجل هو خالقك وخالق الكون وأنه تبارك وتعالى موجود .

فيفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن الناس نوعان :

نوع سليم الفطرة يعرف الله عز وجل ويؤمن به فمعرفته وإيمانه سابقان لمعرفته بالآيات لكنه إذا رأى المخلوقات عرف أنها آيات له معرفته بالآيات تؤيد وتؤكد إيمانه ولا تنشأه يعني إذا جاءتك الآية من آيات الله رب العالمين في خلقه فهذا لا ينشأ عندك أن لهذا الكون خالقا لأنك تعرفه قبل ذلك فإذا جاءت الآية أكدت إيمانك ولم تنشأه لأنه كان موجودا قبل فهذا نوع من نوعي الناس .

النوع الثاني : حدث في فطرته خلل فلم يعد يؤمن بوجود الخالق لكنه إذا تأمل الآيات وجدها دالة عليه فامن بالله عن طريق الآيات لكن حتى هذا ما كان ليؤمن لو لا أنه كان متصورا للخالق قبل رأيته للآيات فلما رأى الآيات رأى المناسبة بينها وبين ذلك الذي تصوره رأى دلالتها على وجود الخالق الذي كان قبل ذلك يتصوره ولا يؤمن به يتصور وجوده ولا يؤمن به حتى هذا الذي يقول : انه ملحد هو متصور لوجود الخالق فإذا جاءته الآية أزاحت الانحراف والغبش من أجل أن يصل إلى حقيقة فطرته .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالْخَالِقِ وَكَمَالِهِ يَكُونُ فِطْرِيًّا ضَرُورِيًّا فِي حَقِّ مَنْ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ تَقُومُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْكَثِيرَةُ وَقَدْ يَحْتَاجُ إلَى الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ عِنْدَ تَغَيُّرِ الْفِطْرَةِ وَأَحْوَالٍ تَعْرِضُ لَهَا .

وهذا هو الواقع في هذا العصر الذي عمت فيه الشبهات وطمت وصار أهل الإلحاد والزيغ والتشكيك ينشرون ما عندهم في كثير من وسائل الإعلام يتلقفها كثير من الناس من غير وعي ولا فهم فيقع لون من التشكيك ان لم يقع الإلحاد بالإنكار والجحود نسأل الله السلامة والعافية .

فكأن الآيات هي في حقيقتها تذكير للإنسان بأمر مستقر في فطرته وهو مع ذلك لسبب من الأسباب يجحده لكن مثل هذا لا يبدهه ما في الآيات من دلالة على وجود الخالق بل لا بد من أن

نبين له كونها آيات وهذا ما نجده في بعض آيات القران الكريم كما في قوله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) }

ان خلق الإنسان أية دالة على وجود خالقه والقران الكريم يدعو المنكر لوجود الخالق أن يفكر في هذه الحقيقة التي يعرفها أكثر من معرفته لغيرها من الحقائق .

هذا الدليل القران على وجود الخالق لا يتحدث عن حوادث كثيرة ولا يتحدث عن العالم كله كما هو الشأن في مقدمات القياس المنطقي بل يتحدث عن هذا الحادث الواحد الذي يعلمه كل مخاطب أكثر من علمه بكل حادث اخر لكي يدله على أن خلقه هذا آية دالة على وجود خالقه فانه يدعوه للتفكير فيه ويعينه على ذلك بأسئلة عن نفسه يعرف كيف يجيب عنها لكنه إذا أجاب عنها الإجابة الصحيحة قادته إجابته إلى رؤية ما في نفسه من دلالة على وجود خالقه لأنه إذا قيل له : { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} ؟! يقول : لا يمكن أن يخلقوا من غير شيء فأجاب {أم هم الخالقون }؟! يقول : لا يمكن أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم .

فيقال له : فمن الذي خلقهم ؟ فحينئذ يقر فتأخذه هذه الأسئلة إلى هذه الإجابة المطمئنة التي تستقر في النفس ولا يمكن أن تدفعها النفس أو أن ينكرها العقل فان هذه الأسئلة كما ترى حتى في صيغتها البلاغية أسئلة استنكارية لأن الإجابة عنها بديهية فطرت عليها العقول فما ينبغي لأحد أن يجهلها { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} ؟! هذا استفهام استنكاري الغرض منه : النفي يعني : لم يخلقوا من غير شيء وكذلك {أم هم الخالقون }؟! هذا أيضا استفهام استنكاري والغرض البلاغي منه : النفي أيضا فكأن القران الكريم يقول لهذا المنكر : إذا لم يكن الله هو الذي خلقك وخلق هذا الكون من حولك فهل خلقت من غير شيء خلقك ؟!! أي : هل جئت من عدم محض ؟ سيقول كل عاقل في نفسه : كلا فان هذا مستحيل .

أو أنك أنت الذي خلقت نفسك ؟!! سيقول : كلا فان هذا يبدو أكثر استحالة .

هل كنت أنت الذي خلق هذه السماوات والأرض ؟!

سيقول : كلا فالقول بغير ذلك مكابرة هذه حجة فطرية يدركها الناس بعقولهم وهذه طريقة القران قرر القران مقدماتها في شكل أسئلة استنكارية فهذه طريقته في تقرير كل حقيقة معروفة بالبدهيات

العقلية يقرر بسؤال استنكاري ليدل على أن منكرها ينكر البداهه بل انه ينتزع منه الإجابة الصحيحة فيقال له : أجب فيأتي هذا السؤال من أجل أن ينتزع منه الإقرار بلسان نفسه .

{أفي الله شك فاطر السماوات والأرض }{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)}{ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦)} إنها لحجة فطرية لذلك أثرت تأثيرا بالغا في بعض من سمعها ممن كان كافرا في زمان النبي ثم هداه الله تعالى كما مر في حديث جبير بن مطعم الذي أخرجه البخاري .

هذه الحجة الفطرية القرآنية التي هي دليل الآيات يمكن وضعها هي الأخرى في من الصيغ المنطقية العقلية المعروفة وذلك أن الحجج المنطقية ليست محصورة في الاستنباط أو ما كان يسميه العلماء المتقدمون بقياس الشمول بل هناك حجج أخرى منطقية عقلية صحيحة يستعملها الناس في علومهم بل في حياتهم اليومية وان لم يصوغوها الصياغات المنطقية .

من هذه الحجج : ما يسمى بالقياس الاستثنائي .

الحجج المنطقية هذه يمكن وضعها في هذا الشكل المنطقي كأن نقول مخاطبين الملحدة : أنت تعلم من نفسك أنك حادث وجدت بعد أن لم تكن فإما أن تكون قد أوجدت نفسك أو وجدت من العدم ومن المستحيل : أن توجد نفسك ومن المستحيل : أن توجد من العدم إذن فقد أوجدك شيء هذا الموجد اما أن يكون أنت نفسك أو يكون غيرك.

من المستحيل : أن تكون أنت الذي أوجدت نفسك إذن لا بد أن يكون شيء سواك هو الذي أوجدك اما أن يكون الذي أوجدك مثلك في حاجته إلى من يوجده ولا يمكن أن يكون مثلك إذ ما قيل عنك سيقال عنه أيضا إذن لا بد أن يكون خالقا غنيا بنفسه غير مفتقر إلى من يوجده وهذا هو الله تبارك وتعالى .

فهذا قطع لحجج أولئك الجاحدين المنكرين لوجود رب العالمين .

فهذا دليل الخلق ودليل الآيات .

دليل الخلق سماه علماؤنا أيضا : دليل الإبداع أو : دليل الاختراع .

ودليل الحدوث هو : العالم متغير وكل متغير حادث وكل حادث لا بد له من محدث ولا بد أن يقف العقل عند محدث غير حادث وإلا لزم الدور والتسلسل وهما محالان هذا دليل الحدوث ذلك المحدث هو الله وهو دليل الإمكان : أن الموجودات اما أن تكون واجبة الوجود جميعا وإما أن تكون ممكنة الوجود جميعا .

الواجب : ما كان وجوده لذاته من حيث هي بمعنى أنها تكون أي هذه الموجودات غير حادثة لم يسبقها فناء ولا عدم وذلك مرفوض عقلا لأنها متغيرة وكل متغير حادث وكل حادث لا بد له من محدث فلا يمكن أن تكون هذه الموجودات واجبة .

ولا يمكن أن تكون من القسم الثالث من أقسام المعلوم لأنه لا يذكر ههنا وهو : المستحيل لأنها موجودة .

والمستحيل : عدمه لذاته من حيث هي وهي موجودة إذن هي اما أن تكون ممكنة وإما أن تكون واجبة وقد سبق بطلان كونها واجبة فلا بد أن تكون هذه الموجودات ممكنة لا يمكن أن تكون لا أول لها ولا يمكن أن تكون غير مخلوقة ولا يمكن أن هذه الموجودات أعطت الوجود لنفسها أو وجودها من ذاتها .

إذن هذه الموجودات كلها لأن الذي تعلمه مما هو موجود قسمان :

خالق ومخلوق ممكن وواجب محدث وحادث مصنوع وصانع .

كل ما هو موجود لا يخرج عن هذين القسمين :

اما أن يكون ممكنا يعني أنه لم يكن ثم كان وصير إلى العدم بعد الوجود

إذن هو يحتاج إلى موجد وهذا الموجد هو الواجب .

هذا هو الاستدلال العقلي المنطقي .

فمحال أن تكون الموجودات من القسمين السابقين كلهما فبقي الفرض الثالث وهو : أن يكون بعضها ـ يعني : جميع الموجودات بما في ذلك الواجب ـ ممكن الوجود وهو هذا العالم وواجب الوجود وهو الذي أعطاها الوجود وهو الله تعالى .

يقولون : هذا دليل الإمكان فالأدلة عند علمائنا المتقدمين كثيرة أغنانا الله تعالى بها عند مناقشة الملحدين من أن نتقمم من هنا وهنالك لكن الذي يجحد ويكابر ويعاند هذا لا تنفع معه حجة .

{النظر في حدوث هذا الكون}

في كتاب {الله جل جلاله }:نظر في حدوث الكون

أول ظاهرة تدلنا على الله : هي حدوث هذا الكون الذي يدلنا على أن له محدثا وكلما تقدم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعا على هذه الظاهرة بل ما قدمه العلم من أدلة جعلها في حكم البديهية إذ وضوح الأدلة وتعاضدها لم يبق مجالا للشك فيها فقوانين الحرارة وقوانين الإلكترون والطاقة الشمسية قدم كل منها دليلا واضحا على هذه القضية وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهورا لا يبقى معه مجال للشك هذا سوى الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون من العلماء في كل عصر فللنظر لهذا الجانب الأول وهو ما يتعلق بحدوث الكون والقوانين الطبيعية التي توصل إليها علماء المادة التي أثبتت بطريقة قطعية حدوث هذا الكون فقوانين الحرارة مثلا يقول بعض أولئك الفيزيائيين وهو رئيس قسم الفلسفة في جامعة السريون قديما قال عن كتاب الله : هو مصير البشرية .

يقول : ان أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث : ربط قانون كارنت كلوزيس وهو يدعى أيضا بالقانون الثاني من قوانين الترموديىنمك أو الديناميك الحراري .

قال : الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية لحساب الاحتمالات وقد أثبت الفيزيائي وولتزمان أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تطورا نحو حالات أكثر وأكثر احتمالا تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة وهكذا فان الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناظرات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام .

عبر لوسكيل عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية.

هؤلاء ماديون طبيعيون فيزيائيون ليسوا بمسلمين بل منهم من كان ملحدا ولكنه عند النظر في أمثال هذه القوانين المادية الطبيعية يأتي لنا بهذا الكلام .

يقول : قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد من وجود اله أزلي ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا فهناك انتقال حراري مستمر إلى الأجسام الحارة والى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية ومعنى ذلك : أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ويومئذ لن يكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون ولذلك فأننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود فهكذا توصلت العلوم دون قصد أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولا بد له من مبدأ أو من محرك أول أو من خالق وهو الإله العظيم وهو الله .

أيضا عالم من علماء الطبيعة البيولوجية يستدل على عدم أزلية هذا الكون بالقانون نفسه فيقول : كثيرا ما يقال ان هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق

ـ كما يقول الملحدون من الفيزيائيين والفلاسفة ومن تبعهم من الرعاع الذين لا يفكرون ولكن هم مبهورون بما عند القوم فيقولون : هؤلاء الذين وصلوا في العلوم المادية إلى ما وصلوا إليه لا يمكن أن يكونوا مخطئين فإذا ألحدوا ألحدوا وراءهم واذا شكوا شكوا كما شكوا ـ فيقول :

كثيرا ما يقال ان هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بان هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال: فإما ان يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده، وإما ان يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما ان يكون أبديا ليس لنشأته بداية، وإما ان يكون له خالق.

اما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس، فهو يعني ان إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو ان يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة. وقد عاد إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيراً سير جيمس جيبز الذي يرى ان هذا الكون ليس له وجود فعلي، وانه مجرد صورة في أذهاننا. وتبا لهذا الرأي نستطيع ان نقول أننا نعيش في عالم من الأوهام، فمثلا هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات، وبها ركاب وهميون وتعبر انهارا لا وجود لها وتسير فوق جسور غير مادية.. الخ، وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

اما الرأي الثاني، القائل ان هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة، ولا يستحق هو أيضا ان يكون موضعا للنظر أو المناقشة.

{القران دلنا على ذلك من قديم وأسس عليه علماؤنا عليهم الرحمة هذه الاحتمالات ولكن نحن الآن مع احتمالات يقول بها عالم الطبيعة البيولوجية : فرانك ألن هذا ليس بمسلم وليس بعربي ولم يتل كتاب الله عز وجل ولكنه عندما أعمل فطرته وعقله توصل إلى هذه الاحتمالات ثم ينقضها احتمالا احتمالا حتى يصل إلى الصواب من ذلك }.

يقول : والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية .

{كما مر أن الذين يقولون بأن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الوجود وهي التي خلقت الخلق فيقال : تقولون عن الطبيعة : أزلية أبدية فقد أعطيتموها صفتين من صفات الخالق العظيم : الأول والاخر فقد اتخذتم إلها من دون الله وأنتم تزعمون أعني الأبعدين أنه لا خالق للكون ولا موجد لها فقد تناقضوا فإنهم يقولون أنهم ملحدون ويفاخرون بذلك ومع ذلك يثبتون للكون خالقا ولكنهم بدل أن يرجعوا بالأمر إلى أصله وأن يقولوا : هو الله جل وعلا يقولون : الطبيعة فجعلوها إلها خالقا وسيأتي لذلك مزيد بحث ان شاء الله جل وعلا }.

قال ذلك العالم في تتمة كلامه :

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. واذا فنحن إما أن نسبب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما ان ننسبها إلى إله حي يخلق. وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الأخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على ان مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت. أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على ان أصل الكون ان أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث. ومعنى ذلك انه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد ان يكون هذا من صنع يديه.اه

فهذا القانون وهو : قانون الديناميكا الحرارية يثبت وجود الرب تبارك وتعالى حتى عند المنكرين لوجوده جل وعلا ولا يجدون مناصا من التسليم لا بد من أن يسلموا كما سمعت في كلامهم فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن توجد بنفسها بعد برودتها ولو كان أزليا لكان باردا .

أيضا قوانين الحركة الالكترونية هذه أيضا تثبت حدوث هذا الكون بالدليل المادي الذي يعرفه أولئك فالشهادة الأخرى التي تدل على حدوث الكون نجدها في كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزئيات كهربائية سالبة وموجبة .

الموجبة يطلق عليها : البروتون والسالبة يطلق عليها : الإلكترون .

وبعض الذرات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى : النيترون .

البروتون والنيترون يشكلان الذرة بينما الإلكترون يشكل كواكبها السيارة التي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية اهليليجية يعني ليست منتظمة في كونها دائرة بسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركا هذه الحركة إذ لو لا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة

الإلكترون وهو ما يسمى بقوة الطرد المركزي وقديما ضربوا لها مثالا : لو أتيت بخيط فجعلت مربوطا فيه قطعة من الحجارة أو مسطرة مما يستخدم في الحساب ثم أخذت تدير الخيط بما ربط فيه دورانا سريعا لو أنك كففت عن الحركة وقعت الحجر أو وقعت المسطرة على يدك وأما الذي يضمن حركتها فهو : ما يسمى بقوة الطرد المركزي فكذلك الإلكترون : شحنة سالبة .

هناك شحنة موجبة في النواة في الذرة لو لم يكن متحركا فيؤدي الطرد المركزي إلى كونه ثابتا في حركته في مداره لو لم يكن متحركا لوقع على النواة وحينئذ لو وقع ما الذي يحدث ؟ يحدث العجب العجاب وفي هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة إذ الفراغ كبير جدا في العالم الذرة فكتل الجزيئات لا تأخذ الا حيزا صغيرا جدا من فراغ الذرة الواسع وذلك أن البعد بين النواة والالكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبيا فلو أن هذا البعد بين الالكترونات بين الكهيربات السالبة التي تدور في مداراتها حول النواة الموجبة لو أن هذا الفراغ بين هذه الكهيربات السالبة والنواة انمحى فكان في كل ذرة الكتروناتها على نواتها صارت الأنوية مجموعة ما وجد جرم كالشمس الا كبيضة الدجاجة .

إذا فقد الفراغات البينية التي تكون بين الالكترونات الدائرة في مداراتها حول أنوية الذرات .

إذن الإلكترون في أكثر ذرات الوجود ان لم يكن في كلها في حركة دائمة دائرية اهليليجية .

ليس هناك أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع اخر للإلكترون كان عليه أولا ثم انتقل إلى هذه الحال ان لم نحكم باستحالة تصور اخر يكون أقدم من هذا الوضع إذ لو احتجنا إلى مؤثر جعل الالكترونات تتحرك بعد خمود فيتوسع الكون بعد ضيق هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا بل من نفس العناصر وهذه الحركة التي نجدها في الإلكترون نجدها في كل جرم في الفضاء .

وتبعا : الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته كما قيل : الفلك دائري وهو في دوران .

فيقال : حسن ما دام الفلك في دوران فدوراته الآن لأنه يدور فالدائرة كما تعلم يمكن أن نجعل هنالك بداية متخيلة على محيطها .

هذا الشيء الذي يدور حركة دائرية تصور أي نقطة على محيط تلك الدائرة يتحرك جسم حركة دائرية في محيط تلك الدائرة فإذا ما تصورت ذلك فانه يبدأ منه ويعود إليه فهذه دورة .

فيقال حينئذ : الدورات التي دارها هذا الشيء الدائر في مداره اما أن تكون زوجية وإما أن تكون فردية هل هنالك احتمال ثالث ؟

وعلى كل فسواء كانت زوجية أم كانت فردية فهي محدودة نهائية مهما بلغ عددها وحينئذ يكون لها بداية وما دام لها بداية فمن الذي أعطاه الحركة ؟

وهذا ما وصلوا إليه بالبحث في هذه المسائل التي مر ذكرها .

الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته حتى لا ينكره العقل بل لا يستطيع أن ينكره .

ولما كانت الالكترونات والأجرام أيضا كلها في حركة دائرية ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدوا فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون في مداره حول نواته .

هذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها وبهذا نكون قد وصلنا إلى أن الكون له بداية ونشأة وله خالق خلق من العدم إذ العدم لا ينتج عنه وجود وهذا أيضا دليل توصل إليه علماء المادة بالنظر في تركيب الذرات لإثبات وجود الخالق العظيم .

كذلك الطاقة الشمسية فلا بد من كلمة توضح معنى الأزلية : لو وضعنا الرقم {١} وأمامه أصفار ممتدة منه إليه على محيط الكرة الأرضية تصور الآن محيط الكرة الأرضية فأنت في أي نقطة من هذا المحيط كتبت الرقم {١} ثم جعلت الأصفار ممتدة منه إليه على محيط الكرة الأرضية هذا الرقم الكبير من السنين عندما يمثل جزءا كالصفر تقريبا بالنسبة إلى اللانهاية أو الأبدية .

وضرب لها العلماء المتقدمون من علمائنا المسلمين مثلا اخر : فقالوا : تصور أن الأرض كتلة مصمتة من الطين ليس فيها بحار ولا أنهار ولا جبال وإنما هي مستوية كرة من الطين فتصور أن هذه الكتلة من الطين التي هي بحجم الكرة الأرضية أنها قد امتلأت بالذر أي بالنمل الصغير ولا فراغات بين تلك النمال بل نملة تحاذيها مباشرة نملة أخرى من النمل الصغير لا من الكبير وأن هناك طائر يأتي كل ألفي سنة فيخطف من هذا النمل نملة لو تصورت أن هذا النمل يفنى لفني

قبل أن يفنى الخلود أو اللانهاية أو الأبدية لذلك يظلم نفسه الكافر جدا لأنه إذا دخل النار كان في الأبدية هذه الأبدية كما رأيت في المثالين السابقين اللذين لا يمثلان شيئا بجوار لأن الأبدية لا نهاية .

فتصور أنك إذا دخلت الجنة فأنت في اللانهاية الأبدية نعيم بخلود لا فناء معه ولا فناء يتبعه بل تكون خالدا في الجنة أبدا وكذلك الكافر الذي يدخل النار هذا أمر كبير فالآن لو نظرنا إلى الذين يقولون بقدم المادة الذين يعطون المادة هذا المعنى فيعطونها الأبدية وهذا الذي تثبت الظواهر كلها استحالته وخلافه .

الظاهرة التي يكون الكلام عنها هنا تمثل احدى هذه الظواهر

من أين تأتي الشمس بطاقتها ؟وكيف تحافظ الشمس على حرارتها ؟

عندما تقول : الشمس فأنت تعني ههنا كل نجوم هذا الكون فنجوم هذا الكون كلها شموس ترى صغيرة لبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها .

السؤالان اللذان مرا مهمان جدا .

من أين تأتي الشمس بطاقتها ؟وكيف تحافظ أي شمس أو أي نجم من النجوم على حرارته ؟

الشمس وكل الشموس في حالة إعطاء دائم فهي تعطي دائما إشعاعا حراريا يشكل طاقة وكل الطاقة الموجودة في الأرض جعلها الله مستمدة من الشمس

لقد أضيء معرض شيكاغو الذي أقيم سنة ١٩٣٣ بكامله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبعث من نجم السماك الرامح منذ أربعين سنة فهذه طاقة عظيمة .

هذه الشموس شمسنا هذه منها ونموذج عليها هي في حالة إعطاء دائم فما سبب هذه الطاقة بهذه الشموس ؟

أجيب عن هذا السؤال بأكثر من جواب ولكنها لم تكن مقنعة . فالشأن في الفروض والنظريات ثم يصل العلماء إلى الحقائق كما مر في المنهج العلمي بخطواته المختلفة .

ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جدا بواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها وكما هو معلوم أن الذرة عندما تتحطم تفقد

جزءا من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة وإذن فان كل يوم يمر على أي شمس معناه : فقدان جزء ولو يسيرا من كتلته يتحول إلى طاقة .

ان الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو جرام وكذلك مثلها بقية النجوم .

لو كانت هذه الشموس قديمة أزلية بمعنى أنه لا أول لها فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي أو أنها تكون قد استنفذت جميع كتلتها وانتهى أمرها ؟

الأزل كما مر هو الأزل ! ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء والكلام ليس ههنا في جزء من الكون يفقد ويعوض فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا ولكن الكلام في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول إلى مادة وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكيله المادي بشكل ما من جديد فان تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة .

بهذا يقضي العلم المادي إذ شعاع واحد على مدى الأزل فيقولون : الكون أزلي لا بداية له .

شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاذ طاقة الوجود كله .

أما الكلام بأن الكون كله كان في الأصل طاقة فتحولت الطاقة إلى مادة

هو الآن مادة تتحول إلى طاقة ومن ثم يكون مادة وهكذا والذي يبدو أن المغالطات فيه واضحة ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم أو بتعبير العلماء القدامى : الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه فإشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلا تأخذ ذرات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن .

وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديما بل له بداية وأنه لا يتصور وجوده لو لا أن له خالقا وهذا الخالق ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن .

عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله تعالى هكذا .

نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين :

نوع يقوم بذاته ونوع لا يقوم بلا ذات .

فمثلا : الجسم يقوم بذاته ولكن المرض ولكن العرض لا يكون بلا جسم .

الذرة تقوم بذاتها ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات وسموا ما يقوم بذاته : الجوهر وما لا يقوم الا بالجوهر سموه : عرضا فالذرة جوهر حرارتها عرض والجسم جوهر الصحة عرض .

ان الجواهر لا تنفك عن الأعراض فما رأينا جوهرا الا ويلازمه عرض ما كالذات والصفة فانه لا يمكن أن توجد ذات بلا صفة أو صفات فكذلك : ما من جوهر ـ وهو الذات ـ الا وله عرض ما هو : الصفة فكل عرض حادث الظلام حادث ومنذ فترة كان قبله نهار .

النهار حادث ومنذ فترة كان قبله ليل .

حرارة الذرات مهما كانت فان لها بداية وكذلك برودتها لها بداية وهكذا .

وإذن فما من عرض الا وله بداية واذا كان لا جوهر أي ولا ذات الا بعرض فلا جوهر الا وله بداية أيضا .

فالكون جواهره وأعراضه كله حادث وليس أزليا فهذا دليل عقلي عبر به علماؤنا المتقدمون عن قضية حدوث الكون وكذلك العلم الحديث كما مر فيما يتعلق بالقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية وكذلك ما يتعلق بالذرات وكذلك ما يتعلق بأمثال هذه المسائل العلمية كل ذلك يدلنا على أن الكون مخلوق حادث لم يكن فكان والله هو الذي أوجده وهو الذي أحدثه وهو الذي خلقه وهو الخلاق العظيم .

{دليل الحدوث (الإبداع)(الخلق)(الاختراع)(الإمكان)}

من الأدلة التي استدل بها العلماء على وجود الله تعالى : دليل الحدوث أو دليل الإبداع أو دليل الاختراع أو دليل الخلق .

والإسلام يمضي على سنن العلم لا يفارقها بل انه الذي خط تلك السنن التي يسير عليها العلم .

قال الغمراوي رحمه الله :

إذا اتبعنا طريقة العلم وانتفعنا بيقينياته في الاستدلال على وحدانية الله سبحانه وجدنا الطريق معبدا ميسرا لا عوج فيه ولا تعقيد .

ان العلم دائما يستند إلى الواقع والواقع قد دل دلالة يقينية ألّا شيء من هذه الموجودات المحسوسة يمكن أن يكون قد أوجد نفسه أو أن يكون أوجدته المصادفة فلا بد له إذن من موجد أوجده بعد أن لم يكن

فهل موجد واحد أوجد كل هذه الموجودات أم هل تعدد الموجدون ؟

النظر العلمي يقتضي ابتداء بأنه ليس هنالك سوى موجد واحد لا غير.

أولا : لأن هذا أيسر تفسير للوجود والعلم نفسه يأخذ بأيسر التفاسير ان وجد للواقع أكثر من تفسير لأننا ان تعدينا التوحيد إلى التعديد من قرينة ولا دليل كان ذلك قولا اعتباطيا لا يجيزه العلم ولا ينظر فيه .

ثانيا : إذا قيل بالتعديد اعتباطا لم يكن هناك في عدد الموجدين حد يوقف عنده ما دام ليس هناك قرينة ولا دليل من الواقع لهذا أو لذاك فهو اعتباط إلى اعتباط في القول وتخبط إلى تخبط في النظر وهذا يناقض طريقة العلم وهي الطريقة التي وقته الاضطراب في البحث وهدته إلى عجائب أسرار الفطرة التي جعلت العلم الحديث أعجوبة القرون .

النظر العلمي لا يقنع من نفسه بهذا بل يمضي في نفسه عن وحدة النظام الذي في الكون كنتيجة لازمة لوحدانية خالق الكون وهو بعمله هذا يزداد تفهما للكون الذي هو موضوع دراسة العلم ويزيد دليل وحدانية الخالق ظهورا وقوة كلما كشف مظهرا من مظاهر وحدة نظام الكون حتى إذا بلغ من ذلك منتهاه وأثبت عن طريق يقينيات العلم أن فطرة الكون على اختلاف مظاهره إنما هي فطرة واحدة متماسكة متكاملة فقد جعل وحدانية فاطر الفطرة فوق شك الشاكين .

ميدان النظر يتسع بعد ذلك أمام الناظر اتساع الكون لكن لا يهم أين يبدأ فأينما بدأ وجد آثار وحدة نظام الكون ووجد مظاهرها ودلائلها بشرط أن يتجنب الوهم والخطأ والهوى أي : بشرط أن يكون علميا في نظره فان باطلا واحدا يدخله على نفسه ويقبله على أنه حق جدير أن يفسد عليه كل شيء خصوصا فيما هو بصدده من تحري معرفة وحدة النظام في الكون لأن الباطل هو نقيض الحق وأن أي تناقض يبدو له في الكون ونظامه يضله ويسد عليه السبيل .

النظرة الإجمالية تكفي في الأول ولعلها أهم النظرات إذ يفهمها كل الناس والمحسوسات تنقسم في أخصر تقسيم إلى حياة ومادة وطاقة .

الحياة في مختلف صورها تنتفع بالمادة والطاقة وتتوقف عليهما .

المادة والطاقة متلازمتان فالمادة لا تنفك عن الطاقة ظاهرة أو باطنة والطاقة لا تكاد تنفك عن مادة فدل ذلك على أن خالق المادة والطاقة واحد سبحانه وتعالى وأنه هو خالق الحياة .

الطاقة في الأرض مصدرها الشمس فكل نار توقد وكل طعام يؤكل مصدر طاقته : الشمس التي يختزنها النبات كيماويا ليكون غذاء ووقودا للحيوان فضلا عن ضرورة الشمس للحياة في النهار حتى طاقة الفحم وزيت البترول أصلهما من الشمس لأن الفحم أصله نباتي وزيت البترول أصله نباتي أو حيواني ولو كان أصله معدنيا لكان مرجع طاقته أيضا إلى الشمس حتى حرارة جوف الأرض ونار البراكين أصلها الشمس لأن الأرض كانت قطعة من الشمس قبل أن تكون أرضا .

أثبت ذلك العلم ودل عليه القران فخالق الحياة والمادة والطاقة هو خالق الأرض والشمس .

القمر مرتبط بالأرض يدور حولها وينفع أهلها وكان من قبل قطعة منها كما كانت هي قطعة من الشمس فخالق الشمس والأرض والقمر وما عليها واحد سبحانه .

الأرض ان هي الا سيار من سيارات المجموعة الشمسية وان انتهزت عن سائرها في الحياة الدافقة .بقية السيارات وأقمارها أصلها أيضا الشمس وهي مرتبطة بها كارتباط الأرض وقمرها بها فخالق المجموعة الشمسية وما فيها واحد سبحانه .

تأمل الآن في طريقة الاستدلال على الوحدانية لإثبات وحدة النظام الحاكم للكون فيدلك ذلك على أن مصدره واحد وهو الله جل وعلا .

الشمس وان بدت لنا أعظم ما في السماء لقربها النسبي منا وبعد الأجرام السماوية الأخرى عنا ان هي الا نجم متوسط القدر من نجوم السماء كما أثبت علم الفلك الحديث .

نجوم السماء ان هي الا شمس متأججة كشمسنا بعضها أعظم منها وبعضها أصغر وأكثرها مثلها أو نحوها لكنها كلها طبيعتها واحدة وأصلها واحد خاضعة لنظام واحد وهو : ما اصطلح على تسميته بالجاذبية وقانونها هو المتحكم في كل جسم في الأرض وفي السماء وخالق المجموعة الشمسية وما في السماء بعدها من نجم وكوكب واحد وهو الله سبحانه .

في السماء سوى الشمس والنجوم سدائم جمع : سديم أي : سحب ملتهبة هائلة هي أهل النجوم ومجاميعها أي : أن هذه كانت في الأصل سدائم كذلك وكلها خاضعة للجاذبية وقانونها فخالق الأرض وما عليها وخالق الشمس والكواكب والنجوم والسدائم واحد سبحانه وتعالى .

واذا ثبت هكذا أن خالق الأرض والسماء اله واحد فماذا بعد هذا يبتغي الناظر دليلا على الوحدانية ؟!!

واذن فقد كفت النظرة العلمية الإجمالية لإظهار وحدة الكون بنظامه ولإثبات أن ليس للكون وما فيه الا خالق واحد هو الله الخالق البارئ سبحانه وثبت بذلك عرضا أن النظر العلمي كان على حق حين رفض ابتداء أن يجيز القول بتعدد الخالقين لأن النظر العلمي يرفض هذا التعدد ويثبت خالقا واحدا للكون وما فيه فرفض ابتداء أن يجيز القول بالتعدد أي للخالقين أو أن يضيع الوقت بالنظر فيه كفرض من الفروض التي يفرضها العلم ثم يمحصها بل رفض إضاعة الوقت في فرض كهذا بله أن يكون احتمالا من الاحتمالات كما تفعل الفلسفة ويفعل علم الكلام ومع ذلك فالعلم في طريقه الذي رسمه لنفسه من دراسة فطرة الكائنات بطريقته وقد مر أن الفطرة ههنا تعني السنن الإلهية التي جعلها الله رب العالمين في هذا الكون فالعلم في طريقه الذي رسمه لنفسه من دراسة فطرة الكائنات بطريقته التي أثبت بباهر نتائجها صحتها وجدواها هذا العلم باستمراره في طريقه بطريقته لا يزال ولن يزال عاملا دائما على الإثبات بالبرهان بعد البرهان على وحدة نظام الكون من ناحية وعلى وجود الله ووحدانيته من ناحية أخرى فان برهان الوحدانية هو أيضا أعظم براهين الوجود وكل التفاصيل التي كشفها العلم بعلوم وبحوث أجراها رجاله تقيم البرهان تلو

البرهان على وجود الله وتزيد دليل وحدانيته ظهورا وتوكيدا يذهب بشك المتشككين وتمحل المتمحلين من أهل الأهواء والشهوات ان هم رجعوا عن أهوائهم إلى عقولهم والى متابعة العلم ولو قليلا فالعلم المادي نفسه يثبت وحدة النظام الحاكم بقوانينه وسننه الإلهية وهذا يدل على الوحدانية فالعلم المادي الذي يرتكن إليه من يرتكن في إنكار وجود الخالق العظيم أثبت كما مر وجود الخالق ثم هو يثبت وحدانية الخالق بكل ما يتوصل إليه حينا بعد حين لكن التفاصيل لا يمكن الإتيان بها في مجلس أو في مجالس فان مجموعها هو في صميمه : كل العلوم فليس يحيط بها عالم أيا كان لكن الإشارة إليها وضرب الأمثال منها أمر ممكن وهو يكفي في توضيح أن العلم بمجهوده المتصل يكشف السر بعد السر عن وحدة النظام الحاكم للكون ويزيد بكل سر يكشفه برهان وحدانية الله خالق الكون يزيد البرهان توكيدا ورسوخا يدخل باليقين والإيمان بالله على كل نفس ويغزو بالإقناع حتى نفوس الملحدين .

دورة الماء بين البر والبحر دورة العناصر اللازمة كل منها لاستمرار الحياة على الأرض كل ذلك أمر معروف أو ينبغي أن يكون معروفا فالأكسجين والكربون مثلا اللازمان لتنفس وتغذي الأحياء وللوقود في حياة الإنسان يتحولان تدريجيا إلى ثاني أكسيد الكربون الذي لا ينتفع به والذي يضر إذا زادت نسبته في الجو إلى نحو بضعة أجزاء على العشرة الاف فلو زاد عن هذه النسبة أضر الأحياء فلو لم يتجددا بحياة النبات الذي يحلل ثاني أكسيد الكربون بخضرة ورقه وضوء الشمس فيتغذي بالكربون وينمو وينفث الأكسجين فكذلك يصنع النبات فيأخذ ثاني أكسيد الكربون الذي يضر بالإنسان والذي يتنفسه الإنسان يأخذه النبات من أجل أن يتغذى على الكربون الذي فيه وينفث لنا نحن الأكسجين في الهواء للإنسان والحيوان يتنفسانه .

إذن لو لم يكن ذلك لنفذ الأكسجين من الهواء وبطل الانتفاع بمركبات الكربون في الغذاء وأي هذين لو حدث كاف ليقاف الحياة على الأرض ومع ذلك فهذه الدورة دورة الأكسجين وثاني أكسيد الكربون بين الإنسان والحيوان من جانب والنبات من جانب اخر فالإنسان يأخذ من الهواء الأكسجين ويتخلص من ثاني أكسيد الكربون وأما النبات فيأخذ ثاني أكسيد الكربون مع حرارة الشمس فيتغذى على الكربون الموجود في ثاني أكسيد الكربون ويخرج لنا الأكسجين فنأخذه نحن

لنخرج ثاني أكسيد الكربون فيأخذه النبات من أجل أن يخرج لنا نحن الأكسجين الذي نتفس ونحيا به فهذه الدورة كما ترى بقانون واحد تدل على قدرة الخالق جل وعلا لا على وجوده فحسب بل على قدرته وعلى وحدانيته .

خطر اخر يتهدد هذه الحياة بوقف دورة الكربون من ناحية أخرى ووقف دورة غيره من العناصر الأساسية : الأزت والفسفور الضروري كل منهما للحياة ذلك أن الأحياء بعد موتها ان لم تتحلل في الأرض بجراثيم التعفن وتتحول إلى تراب يبقى في الأرض وغازات تخرج من تلك الجثث المتحللة وهذه الغازات منها : الأزت وثاني أكسيد الكربون فتعود إلى الهواء وعليها تقوم حياة النبات الذي يتغذى به الحيوان .

إذن يتحول الكربون والأزت وما إليهما تدريجيا إلى صور لا ينتفع بها نبات ولا حيوان لأن النبات عاجز عن التغذي بغير التراب والماء والهواء عجز الحيوان عن التغذي بالتراب وثاني أكسيد الكربون .

وإذن لبطلت بذلك الحياة حياة النبات والحيوان جميعا فهذا أيضا من الدورات التي تجدها في هذا الكون .

الأحياء يموتون ونحن منهم فإذا ما متنا تحللت أجسادنا وخرج منها غازات منها : الأزت وثاني أكسيد الكربون يأخذها النبات ليتغذى عليها ثم يخرج لنا الأكسجين هذه الدورة دورة كاملة في هذا الوجود وهي ضرورية لبقاء الحياة فيه بل ان الإنسان يحمل عوامل هلاكه في جسده فعلى مستوى الخلية الجسدية في الإنسان الحي يوجد إنزيمات محللة هذه لا تعمل الا بعد الوفاة لأنها لو عملت أثناء الحياة لتحلل الإنسان حيا وهذا ليس بمساعد للحياة وبمقوم من مقوماتها ولن تبقى تلك الإنزيمات محصورة في خلايا الجسد الحي حتى إذا ما مات الإنسان انطلقت من مكامنها فتحلل الخلية مع ما يحلل الجسد أيضا من تلك العوامل المختلفة فيخرج الأزت وثاني أكسيد الكربون من أجل أن تتم الدورة مع النبات والحيوان والإنسان في حال حياتهما فإذا ما مات الأحياء خرج ذلك الذي يحتاجه النبات فيأخذه ويخرج ما يحتاجه الحيوان الحي وكذلك الإنسان وهكذا فهذا قانون يدل على وجود صانعه ومبدعه ويدل على وحدانيته فانظر إلى رحمة الله

وحكمته ومظهر قدرته ووحدانيته كيف جعل حلقات الحياة مترابطة متكاملة يتوقف خلق في حياته على خلق اخر كل ينتفع ويحيا بما يستضر به الاخر فأنت تستضر بثاني أكسيد الكربون ولكن النبات يحيا به فيخرج لك ما يستضر هو به وهو الأكسجين الذي تحيا أنت به فهذا يستضر بشيء يكون حياة الاخر وكذلك عند الاخر ويجدد لنا بذلك ما ننتفع ونحيا به بحول الله وقوته .

لكن أمر وحدة نظام الخلق قد جاوز الحيوان والنبات إلى الجماد إلى المادة والطاقة ليس من ناحية توقف حياة النبات والحيوان والإنسان عليهما ولكن من ناحيتهما هما بالذات فالطاقة في صورها المختلفة من حركة وحرارة وضوء وكهربائية وما إليها قد أثبت العلم أنها في صميمها أصلها واحد إذ يمكن تحويل بعضها إلى بعضكما ترى في الحياة من تحويل الحرارة مثلا إلى حركة وكذلك من تحويل الحركة إلى حرارة وتحويل الكهربائية إلى حركة وحرارة وضوء وتحويل الضوء إلى كهربائية والى طاقة كيماوية مختزنة في النبات تتحول بدورها من حرارة وحركة وكهربائية واليها والكهربائية تتحول إلى مغناطيسية والمغناطيسية تتحول إلى كهربائية إلى اخر ما هنالك من تحولات كما في المولدات لتحول المغناطيسية إلى الكهربائية وبالعكس .

والعجيب أن هذا التحول ليس كيفيا فحسب بل كمي أيضا كل مقدار من نوع من الطاقة إذا تحول يتحول إلى مقدار يكافئه من النوع الذي تحول إليه ولكل نوع من أنواع الطاقة وحدة أو وحدات تقاس بها عند العلماء وفي الحياة الصناعية العملية وكل وحدة من نوع تكافأ من كل نوع اخر مقدارا من وحداته يختلف طبقا لاختلافاتها لكنها كلها مقادير مضبوطة حددها وقدرها العلماء وهذا كله واحد سواء أكانت الطاقة متولدة في الأرض أو اتية من الشمس مثلا بقدر الله والمادة هي الأخرى مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية وبرهان وثيق من براهين الوجود والوحدانية ليس فقط من حيث خواصها وتحولاتها العجيبة المختلفة التي هي موضوع علمي الفيزياء والكيمياء ولكن أيضا من حيث أصلها وقد ظل العلم قرونا يحول العناصر الكيماوية إلى مركبات ويحلل المركبات إلى عناصر ويكشف من ذلك عن كل عجيب مدهش لكنه أثناء ذلك لم يستطع أن يحول عنصرا إلى عنصر هو يحول العناصر إلى مركبات ويحلل المركبات إلى عناصر ولكن لم يستطع العلم أن يحول عنصرا إلى عنصر حتى اعتقد العلماء أن العناصر البسيطة ذراتها غير قابلة للانقسام

ولا للتحول من عنصريتها إلى عنصرية أخرى أي من عنصرها إلى عنصر اخر حتى شاء الله أن يهدي الإنسان إلى العناصر الشعاعة بما يعرف بالإشعاع بالعناصر المشعة كاليورانيوم والريديوم وما أشبه فكشف ذلك في أواخر القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر كشف في أواخر القرن التاسع عشر عن شعاعية اليورانيوم الذي أدى إلى الكشف بعد ذلك بنحو عام عن عنصر إشعاع اخر وهو الريديوم وكان مما يقذفان به يعني : اليورانيوم والريديوم وكان مما يقذفان به أثناء تحللهما الإشعاعي الذاتي كان من ذلك : ذرات مكهربة من عنصر الهيليوم فكان هذا اخر عهد وأول عهد كان اخر عهد القول ببقاء المادة وبقاء العناصر وأول عهد بتركيب الذرة وتفجيرها عهد يراه العلماء المعهود بالعلم الحديث ثبت فيه أن المادة أيضا أصلها واحد وأن العناصر النيفة والتسعين كما دل على ذلك الجدول هذه العناصر كلها مركبة من أصلين بسيطين تتركب منهما ذرة الأيدروجين يسميهما الإفرنج : الإلكترون والبروتون وينبغي أن يسميا في العربية بالكهيرب والأبيب حتى يأتي بخير من هذين الاسمين لأن هذه معضلة كبرى عند المشتغلين اللغة العربية فان المجامع العلمية العربية لم تستطع أن تواكب المخترعات والمستحدثات التي جدت على هذا الكون في هذا العصر بما يلائمها من التسميات العربية فيأتون في النهاية بكتابة اللفظة الإفرنجية بحروف عربية والاخرون يقولون : التليفزيون أو ما أشبه فالعرب يقولون : التلفاز فإذا سموا أحيانا سموا بأساء منفرة يعني مثلا عندما أرادوا أن يعربوا الساندويتش فهذا له معنى عند القوم فقالوا : شاطر ومشطور وبينهما طازج أهذا هو ؟! هذا شيء يصد النفس فكذلك الكهيرب يمكن أن يكون بديلا ل الإلكترون والأبيب كذلك يمكن أن يكون بديلا ل البروتون حتى يأتي الله بالخير إذ ينبغي ألا تطغى على العربية المصطلحات الأعجمية وهي تعد بمئات الألوف .

المادة تتحول بالتحلل الإشعاعي والتفجير إلى طاقة والطاقة أصلها واحد يتحول بعض أنواعها إلى بعض تحولا كميا على مقدار مضبوط معروف هذا يدل على وحدة نظام هذا الكون واتساق الفطرة أي السنن الإلهية فيه فهذا يدل على ماذا ؟ على الله الواحد الأحد الخلاق العظيم وعلى أن خالق هذا النظام كله إنما هو الله الواحد الأحد

فوحدة نظام الكون إذا ما درست دلت على وحدانية وحدانية الخالق لهذا الكون .

وتأمل في الطواف الذي هو عندنا وحدنا نحن المسلمين عندما نطوف ببيت رب العالمين تأمل في الطواف بنظرة علمية كما يقول الغمراوي غفر الله له :

ما يسميه الناس : الطبيعة ينبغي أن يسمى الفطرة أن يسمى بالسنن الإلهية الفطرة مذكورة في القران { فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }وكذلك { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }ومذكرة في الحديث الشريف الذي { «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ} .

أما الطبيعة : فلم تذكر في القران قط ولا كذلك ذكرت في الحديث .

الطواف حول الكعبة من من مميزات دين الإسلام بين الأديان هذا لنا وحدنا قد يحج بعض أهل الأديان الأخرى إلى محج لهم ولكن ليس في حج غير الإسلام طواف .

الكعبة التي جعلها الله مطافا للناس في الحج جعلها الله جعلها الله للناس قبلة في الصلاة فالطواف جزء من كل يمثل الجاذبية التي ينبغي أن تكون بين العبد وبين بيت الله يستقبله الإنسان ويتجه إليه في صلاته مرات كل يوم وهو بعيد عنها فإذا ما استطاع الحج إليه مرة في العمر استقبله في صلاته أيضا كما كان وزاد على ذلك أن يطوف به .

الناس لا يجدون صعوبة في التماس حكمة لفرض قبلة واحدة عليهم في الصلاة وأن تكون تلك القبلة بيت الله لكنهم فيما يبدوا قد عجزوا عن إدراك حكمة للطواف بالبيت فجعلوه أمرا تعبديا وهو كذلك يعني جعلوه عبادة لا يعرفون لها حكمة الا النزول على حكم الله بالطاعة و والتسليم ولكن هل يستطيع العلم الحديث الذي جعل كثيرا من الناس يكفرون بالخالق العظيم هل يستطيع هذا العلم الحديث نفسه أن يظهر لنا حكمة ندرك بها ما في الطواف من معنى ومغزي ؟ أو أن يفتح لنا على الأقل الباب ال تفهم مغزي الطواف بالبيت ؟

قد يبدو لأول وهلة أن هذا سؤال لا محل له ولا فائدة ترجى من محاولة الإجابة عنه إذ أي صلة بين الطواف بالحج أو في العمرة أو في غير الحج والعمرة ببيت الله الحرام وبين العلم الحديث الذي لا يبحث الا في الماديات ؟ هذا ما يبدوا للنظرة الأولى والنظرة الأولى دائما حمقاء لكن السؤال ليس من النوع العبسي الذي لا يمكن أن يؤدي إلى جواب معقول كما قد يبدوا فان العلم يبحث عن أسرار الفطرة أي عن أسرار السنن التي جعلها الله في هذا الكون فاطر الفطرة سبحانه هو

الذي تعبد الناس بالطواف بالبيت الحرام فليس بممتنع أن يكون الطواف رمزا إلى سر عظيم تستوي فيه الروح والمادة وأن يكون فيما كشف عنه العلم من أسرار الفطرة ما يدل عليه أو يشير إليه لا يكاد الناظر يتجه هذا الاتجاه حتى ينكشف له فيما ينكشف العلم عنه من حقائق الفطرة ينكشف له نظائر الطواف ثم تتكاثر عليه النظائر حتى لا يوقن أنها مظهر لسنة عامة في الخلق وهذه السنة العامة في الخلق أهم وأجل كثيرا في دلالتها مما يخطر لأول وهلة على بال .

أول ما يلقى الناظر من تلك النظائر يلقاه في المجموعة الشمسية فالأقمار فيها تدور أو تطوف حول كواكبها فالقمر يدور حول الأرض

أقمار المشترى تدور حول المشترى .

الأرض وأخواتها من السيارات تدور وأقمارها حول الشمس دورانا متصلا يختلف حقا باختلاف قدرة السيار وبعده عن الشمس لكن مهما يكن الاختلاف في الكيف والمدار فالدوران أو الطواف حول الشمس واقع من كل سيار .

بين علم الفلك الحديث مبلغ انتشار ظاهرة الطواف هذه بين الكواكب فرادى وجماعات وعوالم أيضا فكم من كوكب يطوف حول كوكب توائم وغير توائم وعالم المجرة الذي منه مجموعاتنا الشمسية يدور بل العالم الفلكي كله يدور أو يبدو أنه يدور ولذلك هو في حالة اتساع كما أثبت ذلك القران العظيم ولكنه يدور دورانا بطيئا هائلا حول مركز دل الكتاب على منطقيته فيما صنف في ذلك خاصة وهو كتاب {النجوم في مسالكها } ففيه تجد المثل بعد المثل والتفصيل بعد التفصيل ليظهر لك مبلغ انتشار ظاهرة الطواف في السماء كأنما هي مظهر سنة عليا فطر الله عليها السماوات فإذا ما تركنا العالم الفلكي جانبا ونزلنا إلى العالم الذري من أكبر الأجرام في هذا الكون مما هو معهود لنا إلى أصغر هذه الأجرام يعني الذرات فمن المجرة إلى الذرة ستجد قانون واحدا فهذه المجرات كواكب تدور في أفلاكها في مداراتها حول شموسها وكذلك الأقمار تدور حول كواكبها في مداراتها والذرات كذلك والكون كله من هذه الذرات : كهيربات تدور حول أنويتها في ذراتها قانون واحد والطواف في هذا كما هو في هذا .

لو نزلنا إلى العالم الذري وجدنا الأمر أعجب وأغرب أو هكذا يخير إلى من يستثير الدقيق من تعجبه أكثر مما يستثير الجليل .

الذرة لم يرها أحد قط ولا يطمع في رؤيتها بالذات أحد لبلوغها في الدقة والصغر غاية تقطع عن إمكان رؤيتها الأطماع لكنها مع ذلك لا يشك أحد من المشتغلين بالعلم في وجودها ولا في أن باطنها عالم مائج عجيب العلماء المحدثون يشبهون الذرة بالمجموعة الشمسية فهي جلها فراغ تتوسطه نقطة يتمركز فيها ثقل الذرة ووزنها تسمى نواة الذرة يدور حولها في ذلك الفراغ العظيم بالنسبة لها عدد من الكهيربات السالبة الخاصة ولكنها في مجموعها تكافأ بالضبط ما تحمل النواة من كهربية موجبة أي أن كل نواة من ذرة عنصر تحمل من شحنات أو وحدات الكهربية الموجبة قدر عدد الكهيربات السالبة التي تدور حولها أي حول النواة وكان من شأن الكهيربيتين هاتين أن يتحدا سالب وموجب فينجذب أحدهما إلى الاخر بالتجاذب العظيم بينهما كان يجب أن يتحدا لو أن فاطر الفطرة وخالق الذرة سبحانه وتعالى قضى للمادة بالوجود فمنع ذلك الاتحاد بين كهريبات الذرة وأنويتها بحركة أنشأها وقدرها في الكهيربات حول النواة فتأتي بما يسمى بقوة الطرد المركزي أو قوة الدفع المركزي بالدفع مع الحركة عن المركز حتى لا يقع هذا المتحرك على مركزه وحينئذ تخمد الحياة فجعل ذلك دائرا لما أعطاه الحركة بهذه الكهيربات السالبة في مداراتها فوقع ما يسمى بقوة الطرد المركزي فأبعدت تلك الكهيربات على حسب مداراتها مع كونها على حركاتها لا تزال فسبحان الله في كل كهيرب وفي كل سيار بل في كل قمر حركة فرار وابتعاد عن النواة أو الشمس أو الكوكب الذي يجذبه وإلا لوقع القمر على الأرض ولكنه مع حركته يؤدي ما فيه من قوة الطرد أو الدفع المركزي إلى أن يظل في حركته في مداره حول الأرض مع أنه يحدث فيها جاذبية فأنت ترى مثلا ما يسمى بقوة المد فيما يعرف عند من هو قريب من الساحل في البحار المختلفة بالمد والجزر فان القمر إذا ما طلع مارس قوة جاذبية على سطح الأرض يحدث لون من ألوان الالتواء في سطح الأرض فما يكون تحت البحار والمحيطات فإذا ما علا دفع الماء إلى أعلى فحينئذ يحدث المد إذا ما غاب القمر يعود الأمر إلى أصله في قشرة الأرض في قاع البحر أو المحيط وحينئذ يعود

الماء إلى حالة الجزر وهو متحرك باق في مداره على حسب ما مر من قانون الدفع أو الطرد المركزي .

العجب العجاب أن عناصر المادة تزيد على التسعين كما مر في الجدول الدوري للعناصر ولا تختلف ذراتها فيما بنيت منه وخلقت النويات في كل الذرات في جميع العناصر جوهرها واحد الكهيربات التي تدور في مداراتها حول الأنوية شيء واحد لكن عدد الكهيربات يبدأ من الواحد في ذرة الهيدروجين التي هي عبارة عن كهيرب يدور حول أبيب ويذهب العدد يزداد واحدا بعد واحد في جدول العناصر الدورية .

كلما زيد كهيرب زيد في النواة ما يتحقق به التوازن الضروري فتنشأ ذرة جديدة لعنصر جديد يمضي الأمر كذلك مبعدا في العناصر الطبيعية بترتيب محدود معروف من ذرة الأيدروجين ذات الكهيرب الواحد إلى ذرة اليورانيوم التي تبلغ كهيرباتها اثنين وتسعين كهيربا لكن ذرات العناصر على اختلافها متحدة في دوران كهيربات كل ذرة حول نواة في طبقات يزداد عددها أيضا كلما ازداد عدد الكهيربات السالبة زيادة كافية طبق نظام محكم بديع .

الآن ما رأيك في انتشار ظاهرة الطواف هكذا في الفطرة من الذرة إلى المجرة وما فوقها ؟ تذكر أن كل ذرة من مادة في الكون فيها فضلا عن المجرة كل ذرة فيها طائف ومطوف به وذلك كله في باطن الذرة تقوم عليه بنيتها وذاتيتها ولا سلطان لمخلوق عليه كما لا سلطان لمخلوق على الأقمار حول كواكبها ولا السيارات حول شموسها في الكون الشاسع العظيم تذكر الآن أن في كل حالة من تلك الحالات في العوالم الذرية والفلكية دائما المطوف به واحد والطائف كثيرا ما يتعدد ففي كل ذرة نواة واحدة تطوف بها الكهيربات قلت أو كثرت وفي كل مجموعة شمسية شمس واحدة تطوف بها سياراتها قلت أو كثرت كذلك.

العالم المجري بملايين شموسه وكواكبه يدور أو يطوف حول شيء واحد والكون كله بالألوف المألفة من عوالمه المجرية يبدو أنه يدور أو يطوف حول شيء واحد لا يدرى ما هو

توحد المطوف به في كل حالة مع تعدد الطائفين في الكثرة الغالبة من الأحوال يريك وجه الشبه واضحا بين الطواف الذي هو من قوام الحج وبين ظاهرة الطواف التي فطر الله عليها الكون ويفتح

أو يرجى أن يفتح بابا واسعا من التدبر وأفقا شاسعا من التفكير في حكمة الطواف ودلالة انفراد الإسلام به من بين الأديان كأن الطائف إذا ما دخل في الطواف دخل في منظومة الكون الطائف فالكون كله من الذرة إلى المجرة كما مر بين طائف ومطوف به وقد أثبتت الدراسات الهندسية بأعقد الوسائل أن الكعبة مركز الأرض فأنت إذا ما دخلت البيت الحرام ودخلت في الطواف فأنت دائر حول مركز الأرض لم نقل : هي مركز الكون وقد يكون ولكن الذي ثبت يقينا بالدراسات الهندسية المعقدة أن الكعبة هي مركز الأرض فأنت إذا ما دخلت البيت الحرام وأخذت في الطواف فقد دخلت في منظومة الكون الطائف وهو عابد لله رب العالمين ومسخر كما لو أنك سجدت فانك تدخل في منظومة السجود الأخضر {النجم والشجر يسجدان }في أحد التفسيرين أن النجم : ما لا ساق له من النبات والشجر : ما له ساق فالله عز وجل يقول {النجم والشجر يسجدان } وقد يكون النجم على أصله وهو نجم السماء وهو ساجد سجوده الذي أخبر عنه ربنا تبارك وتعالى فهذا لا يدفع والآية تحمل على الأمرين معا .

إذن النجم : ما لا ساق له من النبات ساجد لله والشجر : ما له ساق ساجد لله فهذا السجود الأخضر في النجم والشجر إذ ما النبات سوى هذا : ما له ساق وما ليس له ساق هذا هو النبات فالنبات كله ساجد لله فإذا سجدت دخلت مع هذا النبات في السجود الأخضر في منظومته فالكون كله عابد لله مسبح بحمده كما قال الله جل وعلا .

فهذا هو العلم الحديث يثبت وحدانية الله ولا يؤدي إلى الإلحاد كما يقول الملحدون الذين اتخذوا العلم المادي الحديث بما وصل إليه من التقدم وهو قراني بطبيعته كما مر إثبات ذلك بما لا يدع مجالا للشك ولا للريب وهذا العلم المادي بهذه السنن الإلهية التي جعلها الله في هذا الكون كلما اكتشف الإنسان منه شيئا دله هذا الشيء على أن الله هو خالق الخلق وهو واحد لا شريك له كما مر ذلك بإثبات وحدة النظام الذي يحكم العالم فدل على أن الحاكم واحد وهو الله والقانون واحد الذي يحكم الذرة هو الذي يحكم المجرة من أدق الأشياء إلى أكبرها فيما يعرفه الإنسان أو فيما هو في عالمه ومع ذلك فقانون واحد طائف ومطوف به فلعل ذلك يفتح الباب كما قال الغمراوي غفر الله له يفتح الباب للنظر في هذه العبادة المتفردة في دين الإسلام العظيم .

في الأديان سوى دين الإسلام حج ولكل أمة محج أي لكل أمة مكان يحجون فيه أو إليه المسلمون يحجون إلى بيت الله الحرام يذهبون إلى بلد الحرام والى بيت الله الحرام مع المناسك ولكن يتميز حج المسلمين بهذا الأمر الذي لا تجده عند حج الأقوام أجمعين وهو : مسألة الطواف .

{الرد على الطبيعيين الذين يقولون : إن الطبيعة هي الخالق}

هنالك من يقول : ان الطبيعة هي الخالق

في كتاب {العقيدة في الله }:

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادّية، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

إذا قالوا: نعني بالطبيعة الكون نفسه، فإننا لا نحتاج إلى الردّ عليهم، لأنّ فساد قولهم معلوم مّما مضى، فهذا القول يصبح ترديداً للقول السابق إنّ الشيء يوجد نفسه، أي: إنّهم يقولون الكون خلق الكون، فالسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وقد بيّنا أنّ العقل الإنساني يرفض التسليم بأنّ الشيء يوجد نفسه، ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول:

والشيء لا يخلق شيئاً أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلاً ولا سمعاً ولا بصراً، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليماً بصيراً! هذا لا يكون.

فإن قالوا: خُلق ذلك كله مصادفة، قلنا: ثبت لدينا يقيناً أن لا مصادفة في خلق الكون، وقد تبينا ذلك فيما سبق.

{الرد على شبهة التولد الذاتي}

نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها) :

وكان مما ساعد على انتشار الوثنية الجديدة (القول إنّ الطبيعة هي الخالق) هو ما شاهده العلماء الطبيعيون من تكون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان، وتكوّن بكتيريا تأكل الطعام فتفسده، فقالوا: ها هي ذي حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها.

{كما كان الفلاحون يقولون قديما : دود المش منه فيه . طبيعي هو ؟!

هذه شبهة التولد الذاتي : منه فيه . مع أنها دورة وهذا الذي تراه من دود المش هو مرحلة من مراحل وجود كائن يصير يرقة ثم يتطور حتى يصير بعد ذلك مما يطير إذا ما فتحت الإناء الذي فيه اندفع في وجهك فهذا هو فهذه دورة حياة يقولون : هو التولد الذاتي فساعد هذا على انتشار الوثنية الجديدة وهي : القول بأن الطبيعة هي الخالق هذه وثنية العصر الحاضر مع أن هؤلاء ينكرون وجود الخالق يقولون : ولكن الخالق هو الطبيعة فأثبتوا خالقا !! }

وراجت هذه النظرية التي مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) في قلوب الضالين التائهين بعيداً عن هدى الله الحق، لكنّ الحق ما لبن أن كشف باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور (باستير) الذي أثبت أنّ الدود المتكون، والبكتيريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتياً من الطبيعة، وإنّما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت العلماء بصدق قوله، فوضع غذاء وعزله عن الهواء، وأمات البكتريا بالغليان، فما تكونت بكتيريا جديدة، ولم يفسد الطعام، وهذه النظرية التي قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة (المعلبات) .

ويرى فريق آخر أنّ الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون، وهذا تفسير الذين يدّعون العلم والمعرفة من القائلين إنّ الطبيعة هي الخالق، فهم يقولون: إنّ هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره وتنظم أموره في كل جزئية، والأحداث التي تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين، مثله كمثل الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهراً طويلاً، فإنها تسير بذاتها بدون مسيّر.مع أنهم هم الذين صنعوها وجعلوا فيها ما يحركها!!

وهؤلاء في واقع الأمر لا يجيبون عن السؤال المطروح: من خلق الكون؟

ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التي يعمل الكون بها،

{يعني : لو قالوا : القوانين هي التي تحكم الكون فهذا ليس تفسيرا لنشأة الكون والسؤال هو : من الذي خلق الكون ؟ يقولون : الطبيعة هي التي تحكم نظام الكون بقوانينها .

فيقال : ما أجبتم عن السؤال فالسؤال على حاله : من الذي خلق الكون ؟ أنتم الآن تقولون كيف يعمل والسؤال : من الذي خلق ؟ من الذي أوجد من الذي برى ؟ من الذي أنشأ ؟ }

فهم يكشفون لنا كيف تعمل القوانين في الأشياء، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التي تحكمه .

والعلماء عندما نظروا في أمثال هذه الأمور وجدوا أنها متهافتة .

يعني مثلا عندما تسأل كما في كتاب {الإسلام يتحدى }:

فلو أنك سألت طبيبا: ما السبب وراء احمرار الدم؟

لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها من واحد إلى سبعمائة من البوصة!

فيقول السائل:- حسنا ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

فيجيب الطبيب:- في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين) وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب.

فيقول السائل :- هذا جميل. ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التي تحمل الهميوجلوبين؟

فيجيب الطبيب :- إنها تصنع في كبدك.

فيقول السائل :- عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطا كليا ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟

فيجيب الطبيب :- هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.

فيقول السائل :- ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدي الطبيب؟

فيجيب الطبيب :- المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

فيقول السائل :- ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء ، ويعيش السمك في الماء ، ويوجد إنسان في الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

فيجيب الطبيب :- لا تسألني عن هذا ، فإن علمي لا يتكلم إلا عن: (ما يحدث) وليس له أن يجيب:(لماذا يحدث؟).اه

يعني : أنا أفسر الظواهر أما : لماذا تحدث تلك الظاهر ؟ فهذا ليس من علمي .

إذن هذه هي القوانين الحاكمة فمن الذي أوجدها ؟ ومن الذي أوجد الكون الذي تتحكم فيه تلك القوانين ؟ ما زال السؤال على حاله .

فوجد من يقول : الطبيعة قوة أوجدت الكون وهي قوة حية سميعة بصيرة حكيمة قادرة .

فيقال : سميتم هذه القوة : الطبيعة لماذا ؟ ان الذي خلق الكون هو الله القوي الحي السميع البصير العليم الحكيم القادر سبحانه وتعالى المقتدر فلم لا تقولون ما يقوله المؤمنون ما دمتم لا تجدون مناصا عن إثبات موجد لهذا الكون الكبير؟!! ما هو الا العناد والمكابرة وإنا لله وإنا إليه راجعون .

{تتمة الرد على الطبيعيين}

هناك سؤال للطبيعيين وهو : ما تريدون بالطبيعة ؟فان قالوا : الطبيعة أزلية أبدية موجد وموجود خالق ومخلوق .

قيل : ان هذا لا يقبله العقل .

فان قالوا : ان الطبيعة هي القوانين الحاكمة والنواميس السائرة السائدة التي تنظم هذا الكون بمفرداته .

فانه يقال لهم : ما زدتم الأمر الا تعقيدا فقد جد هاهنا سؤال ثان

السؤال الأول هو : من الذي أوجد هذا الوجود وخلق هذا الخلق؟ فأنتم تقولون : القوانين الحاكمة فيقال لكم : ومن الذي أوجد هذه القوانين الحاكمة حتى يقال : أنها هي التي تنظم هذا الكون وتحكمه ؟

فصار عندنا سؤالان فان قالوا : ان الذي خلق الخلق أو أوجد الوجود قوة حية سميعة بصيرة حكيمة قادرة

فانه يقال لهم : ان الله عز وجل هو الحي وهو السميع وهو البصير وهو الحكيم وهو القدير وهو خالق الخلق وموجده فلماذا لا تقولوا ما يقول المؤمنون ؟

الطبيعيون يعبدون وثن العصر الحديث وهو الطبيعة لأنهم يقولون : أنها هي خالق هذا الخلق وموجد هذا الوجود إذن هذا وثن معبود ولكنه معبود هذا العصر.

في كتاب {الوجود الحق}: مبحث عن هذه الطبيعة

فيه : أنه بعدما تبين لنا بما لا يقبل الشك وجود الخالق الأول على حسب ما دلت عليه الفطرة وما دل عليه العقل وما دل عليه الحس فهذا كله من الدلالات على وجود الخالق العظيم فالخالق الأول وجوده لا يقبل الشك ولا الارتياب وهو الكامل المطلق فالسؤال عن خالق الكمال المطلق هذا لا يصح وحينئذ تتبدد أمام الناظر الشبهات وتبقى شبهة من شبهات العصر وضلالة أخرى من ضلالاته وهي تخيم الأوهام ولكنها بكل أسف مع اصطناعها هذا وعدم استنادها إلى أساس تجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص .

تلك الشبهة هي : الطبيعة اله ووثن العصر المزعوم .

حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول : من خلق السماوات والأرض ؟ يقول لك : الطبيعة فتقول : من خلق النبات والحيوان ؟ يقول لك : الطبيعة فتقول له : من خلق الإنسان ؟ يقول : الطبيعة

فتقول :من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية والحيوية والغريزية وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد من يدبر هذا ؟ يقول لك : الطبيعة فيتدرع لك بهذا السبب لأنه لا يستطيع أن يقول لك : أنها تحدث بذاتها أو من تلقاء نفسها لأن هذا مما يدفعه العقل ولا يقبله وينكر بقوله هذا قانون السببية فهو أصاب حين أقر بالسببية عندما قال : ان الذي خلق هذه الموجودات الطبيعة فيقر بالسبب لأنه لو قال : خلقت نفسها لم يخلقها أحد لكان معاندا محايدا لهذا القانون الذي جعله الله رب العالمين مغروسا في نفوس البشر وهو قانون السببية فيقول لك : الطبيعة فيثبت سببا ولكنه يجهل حين يخطأ السبب الحقيقي الذي أوجد هذه الموجودات والذي خلقها كلها .

ليس من شأننا حين البحث أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع ولكن فليناقش الأمر من جميع الوجوه فما كان من حق أقررناه وما كان من باطل رددناه والعاقل هو الذي يصيخ السمع إلى الحق وأما الجاهل فهو الذي يتبع هواه ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق .

{الطبيعة في اللغة}

ما هي الطبيعة ؟ وما هي مفاهيمها ؟ وما هي حقيقة تأثيرها ؟

الطبيعة في اللغة : السجية والخلق غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس على حسب مفاهيمهم مفهومان :

المفهوم الأول : أنها عبارة عن الأشياء بذاتها فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الكائنات هي الطبيعة وهو مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد كما سيتبن لنا ان شاء الله جل وعلا .

وأما المفهوم الثاني : فهو أن الطبيعة عبارة عن القوانين التي تحكم الكون؛ بمعنى أنها تعني صفات الأشياء وخصائصها، فهذه الصفات من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، وملاسة وخشونة، وهذه

التقابليات: من حركة وسكون، ونمو واغتذاء، وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات: هي الطبيعة.

سواء أكان القول الأول أو القول الثاني المعبر عن الطبيعة بحق فما نصيب هذا القول من الحق ؟

أما القول الأول : لا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء، والأشياء أوجدت ذاتها، فهي الحادث والمُحدِث، وهي الخالق والمخلوق في الوقت ذاته،وبطلان هذا القول بين فهو اما ادعاء بأن الشيء وجد بذاته من غير سبب وقد تبين لنا فساد هذا الزعم بقانون السببية وإما إدماج الخالق والمخلوق في كائن واحد فالسبب عين المسبب وهذا مستحيل بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح .

القول الثاني : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين والقول فيه : الحقيقة أن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر لا يعرفون كنهها ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي خذ هذا المثال : تضع حبة في التراب تسقيها بالماء تنتفخ وتمتلىء فيظهر منها الرشين ويندفع منه الجذير إلى الأسفل والمجموع الخضري إلى الأعلى وتنشأ الأوراق والأزهار والثمار وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا فالقابلية التي كانت في الحبة وهي الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشين ولو لا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظاهر الحيوية ولما نشأت عنها الثمرة فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها : لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء فمن الذي نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا : ان عقلها هو الذي هيأ لها ذلك ولو أن الماء هو الذي نفخها وخلقها لأمكن للماء أن ينفخ في الحديد وأن يفلقه .

إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر واذا كانت الحبة بذاتها جدلا انتفخت وانفلقت فلماذا لم تجمد وتضمر بدلا من أن تنتفخ وتنمو بل هناك ما هو أعجب من ذلك كما مر ذلك في أكثر من مجلس : لو أنا أتينا بحبة من حبات الفول وربطناها بخيط على قطعة من الخشب ثم جعلناها في الماء مطمورة فيه أو مغموسة فيه سيظهر لنا ما مر ذكره : المجموع الخضري يتجه إلى

جهة العلو لأنه يتعامل مع الشمس والهواء فيكون فوق سطح التربة وأما المجموع الجذري فيتجه إلى جهة السفل فلو أننا قلبنا الخشب فجعلنا ما ظهر متجها إلى العلو في جهة السفل وما ظهر متجها إلى السفل في جهة العلو فما الذي يحدث ؟ يستدير كل ليصير إلى مكانه الذي هو له فالذي جعلناه إلى جهة العلو وهو المجموع الجذري سينحني من أجل أن يكون إلى جهة السفل والذي جعلناه في جهة السفل والأصل أنه للعلو وهو المجموع الخضري فهذا سينثني من أجل أن يتجه إلى جهة العلو فهذه القابلية من أين ؟ أفي الحبة عقل ؟! ولماذا يتجه هذا إلى جهة العلو وهذا إلى جهة السفل ؟! ثم هذه الحبة كأنها جماد قبل أن تعالج بالماء والتربة فإنها لا شيء فيها فإذا ما عولجت انتفخت وانفلقت وصار ما للعلو للعلو وما للسفل للسفل بأي شيء ؟! فهذه يقولون : هي القابلية لكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة والبذرة لا تملك شيئا من ذلك فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها ؟!بل كيف حصلت ثمار كثير متنوعة وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها ؟! فانك ان جعلت بذرة الاجاص وهو الكمثرى كما سيأتي وبذرة المشمش في تربة مع التقارب بينهما وراعيت كلا منهما فهذه لا تخطأ أن تعطيك ثمرتها وهذه لا تخطأ أن تعطيك ثمرتها وهما يسقيان بماء واحد وهما أيضا في تربة واحدة بل ان الحنظل يكون بجوار ثمرة المشمش أو شجرة المشمش فهذا يخرج حنظلا وهذه تخرج هذا الثمر الحلو من الذي جعل هذا في هذا وهذا في هذا ؟! التربة واحدة وهذه وهذه تسقيات بماء واحد فمن أين ؟!الطبيعة ؟!! أي طبيعة ؟!!القابلية ؟! أي قابلية التي تميز هذا التمييز العجيب؟!

الحقيقة : أن من أنعم النظر في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية حينما يقولون : طبع النبات على ذلك فمن الذي طبعه إذن ؟انفلقت الحبة وانفلقت وتوالدت الخلايا تميل الخلية الحية إلى الانقسام من نظر إلى كلامهم هذا وجد أن جميع ما قالوا في التعليل إنما هي أفعال مبنية للمجهول بجهل الفاعل الحقيقي فكأن الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي وبان الفعل للمجهول تخلصا فمن الذي نفخ الحبة ؟من الذي فلقها ؟ من الذي أدى إلى التوالد ؟ من الذي جبل الخلية على الانقسام ؟ كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المختصرة على وصف

الظواهر دون الذهاب إلى أسبابها بل هي مخطئة في جعل الصفة المنفعلة سببا فاعلا وجعل القابلية مؤثرا وجعل الظاهرة المجهولة عاملا مكونا فالانتفاخ صفة نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء وعن قبول أثره في ذلك الشيء الانفلاق صفة الامتداد صفة ما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوما مركبا سماه : قابلية التوازن والنمو فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سببا في الخلق ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك سببا فاعلا واعيا في تكوين الأشياء .

إذن فمن الذي ركز الطبيعة في العناصر ؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟

وقد سبق الكلام على بذرتي الكمثرى والمشمش وأنهما يزرعان في مكان واحد وتثمر كل واحدة منهما ثمرا مختلفا عن الاخر واتفقنا على أنه لا عقل للثمر ولا إدراك للجذر فكيف كان الجذر يمتص الماء ويصفي ذرات بعينها وينضج النسخ ويسوقه إلى الثمر ويكون العصارة وينشأ الحلاوة ؟ كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب ولا نقف عند المجهول ولا نكتفي بنسخ الظواهر بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقي .

نحن نعلم أن القابلية ليست الا صفة من صفات الشيء فكيف تخلقه ؟

نعلم أن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل فكيف تنوعه ولا عقل لها ولا إدراك ؟!! واذا لاحظت أننا مجبورون بحكم هذه النظرة إلى طبائع الأشياء أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة ؟ وعمن طبع الأشياء عليها ؟ وكيف تؤثر ؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب ؟ وهل فاعلة بذاتها أم منفعلة لغيرها ؟ ما دمن مضطرين إلى هذه الأسئلة فاننا ندرك أن الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة ومن الأصل الحاسم إلى الفروع التي لا تحسم الأمر فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النوى انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب ولو لا قصر النظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر لوجدنا الجواب شافيا منطقيا منسجما مع ما تقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية أي لوجدنا الجواب متسقا مع الحقائق العلمية التي مرت في هذه الآية الكريمة { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) }وبذلك ترجع

الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل ويحسم الأمر ولكي يزداد الأمر وضوحا خذ هذا المثال : محرك السيارة فان تحرك أجزاء المحرك احتراق البنزين والقوة الدافعة في محصول الانفجار كل تلك الخصائص قابليات وطبائع فهل تجد أن قابلية الاحتراق وخاصية الانفجار وقوانين الميكانيك هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة ؟!

لا شك أن القابلية غير ذات الشيء وأنها وان كانت سببا في اندفاع الظواهر وبروز المظاهر وهو في حدود التركيب والتصنيف لا في حدود الخلق والإبداع وهي في المراحل الأخيرة لا في المرحلة الأولى من خلق الوجود ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروج من هذا المأزق وأقر معنا أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجال التكاثر والتنويع ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي مر الكلام عنها في مبدأ السببية قلنا له : رجعت إذن إلى الأصل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سببا لإخراج الوجود من العدم واذا أردت أن تعرف العلة النفسية في هذا الإله الزائف يعني وثن العصر الحاضر : الطبيعة إذا أردت أن تعرف العلة النفسية لدى هؤلاء في أخذهم بهذا الصنم وجدتها في السلسلة التالية :

عاين الإنسان صفة الشيء وأضاف الصفات بعضها إلى بعض وكون من مجموع الصفات مفهوما سمى المفهوم قابلية أو طبيعة مالت النفس إلى الراحة والاختصار فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتا مستقة فعالة وجمد الخيال البشري على ذلك وتوهم صاحبه أنه وجد اله الوجود أقبل عليه طائعا وأسلم له خاضعا من أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن يصنعه ثم يتخيل أن له النفع والضر ثم يعبده وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها فالعلة النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة ألا وهي الاصطناع في أول الأمر وتوهم الاستقلال والتأثير في أخره وقد أشار القران الكريم إلى هذه الخدعة في آيات كريمة منها : قوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) }وقوله { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)

}وقوله { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) }.

فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل ومن أي ناحية يضلون اليوم !!

والقضية ليست الا أسماء يسمونها في البداية كما قال الأولون ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة في النهاية كما فعل اللاحقون قالوا : الطبيعة ثم جادلوا عنها وقالوا : هي الأبدية الأزلية والخالق والمخلوق والأثر والمؤثر إلى غير ذلك مما قالوا كما قال الأولون ونعى عليهم القران في قوله { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } فهي في البدء أسماء ثم يجادلون عنها كما هو في المنتهى أسماء ثم يجادلون عنها .

{خلاصة القول في الطبيعة}

خلاصة القول في الطبيعة : أنها اما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها وهذا قول ساقط من كل اعتبار وآما قول بأن الصفات تخلق بالذات وهو أشد تداعيا وسقوطا من القول الأول لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه فكيف تستطيعه الصفة ؟! هم يقولون : القابلية وهذا كله منفعل وليس بفاعل فيجعلون الصفة خالقا فإذا كانت الذات لا تستطيع أن تخلق فكيف بالصفة ؟! أما اعتبار القابلية على أنها سبب متأخر كبقية الأسباب فتفتقر إلى السبب الأول وهو الذي به نقول .

إذن ففي الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول وتأتي الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة إليه وهكذا تجد أن الطبيعة اله العصر المزعوم لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي وليس بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التي تجري عليها وأن طبائع الأشياء لا تخلقها ومن كان يبحث عن ذات مستقلة لها مبدعة فعالة خارجة عن نطاق الأشياء كان لا شك باحثا عن عنقاء مغرب يعني عن المستحيل فلا بد للعقل من الاعتراف ولكن هذا اليأس الإنساني عن معرفة أطوار الكائنات تفصيلا في ماضيها ومستقبلها يقابله يقين إجمالي ينطوي كل عقل بشري على الاعتراف به طوعا أو كرها وأنه مهما طالت الأسباب الممكنة لأن الذين يقولون بنظرية التطور يرجعون ذلك إلى أسباب سابقة وهي نظرية متهافتة أثبت العلم نفسه بطلانها ولكن مهما

طالت الأسباب الممكنة فانه لا بد من الاعتراف بالسبب الأول وقد مر أن الأخذ بسلسلة الأسباب هذه يدخل في الدور والتسلسل وهما باطلان عقلا .

فإذن لا بد وجود السبب الأول الذي أعطى الحياة الوجود وأعطى الحياة الحياة لأنه الحي وأعطى الوجود الوجود لأنه أول موجود لأنه أول ليس له بداية وأن وجوده لذاته من حيث هي فسواء أفرض الأسباب متناهية أو غير متناهية فلا بد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء اخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه بحيث يكون الأول الحق الذي ليس قبله شيء وإلا لبقيت كل هذه الممكنات في طي الكتمان ان لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل .

الله عز وجل بين لنا بالحجة القرآنية العظيمة {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)} فذلك شيء لا يمكنهم أن يدعوه بوجه وهم منقطعون والحجة قائمة عليهم لأنهم لا يمكن أن يقولوا : إنما خلقنا من غير شيء ولا يمكن أن يقولوا : خلقنا أنفسنا بل يقول الله رب العالمين بارتقاء القران العظيم في الحجة {أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)} وهذا أمر لا يمكن أن يدعوه ومعلوم أن خلق السماوات والأرض كان قبل خلق الإنسان لا يدعي إنسان قط أنه وجد أولا بلا أرض فلا سماء ولا شمس ولا قمر ثم خلق الله الأرض له والسماء من فوقه وأشرق عليه الشمس وأتى له بالليل فيه القمر هل يقول إنسان ذلك ؟! إذن الإنسان طارئ على هذا الوجود فالأرض والسماوات كل ذلك وجد قبل خلق الإنسان فمن الذي خلق السماوات والأرض ؟! مع أنه قد يقول قائل : انه هو الذي خلق نفسه كذلك الذي كان مباهتا لإبراهيم عليه السلام {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } وهذا ارتقاء في الحجة حتى لا يتوقف المرء مع هذه المماحكات التي لا تغني عن الحق شيئا ولكن أخذ برأسه حتى دقها بالحجر أو دق بها الحجر من أجل أن ينتبه فهذا يقول { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت } فيأتي بمغالطة مكشوفة فيقول : ان الله عز وجل هو الذي يأتي بالشمس من المشرق وأنت تدعي أنك رب واله إذن فأت بالشمس من المغرب فبهت الذي كفر .

فقد يوجد من يقول سيرا على هذا النهج المرذول : انه هو الذي خلق نفسه كما قال الأول فيقال : فمن الذي خلق السماوات والأرض ؟!

خلقتها أنت ؟!! من خلقها إذن ؟! ولذلك قرر الخطابي رحمه الله أن الكفار لا يمكن أن يدعو هذا وفائدة ذكره والسؤال عنه : قطع اللجاج والخصام إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول : أنا خلقت نفسي كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحيي ويميت { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت }فماذا كان الجواب ؟ سؤال اخر أبان عجزه وأكذبه في زعمه الأول { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)} .

فهب شخصا قال : أنا خلقت نفسي هل يستطيع أن يزعم أنه خلق السماوات والأرض ؟! إذا كان العدم لا يوجد سماء ولا أرضا واذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما واذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنهم أوجدوا ذلك كله لأنه لا بد لهذا كله من موجد هذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى .

لا بد من التسليم بما تقضي به العقول السليمة من هذا القانون الذي إذا رد فانه لا يمكن بحال من الأحوال أن يصح في العقل قانون.

قانون السببية جعله الله رب العالمين قانونا فطريا في كل فطرة إنسانية وأنت تستعمل قانون السببية في كل أمر ولكن من أجل توضيح ذلك بالمثال كما مر أنت عندما تجد إنسانا في ساحة المسجد ثم بعد حين تجده فوق سطح المسجد فأنت لا تسأله : كيف صعدت إلى سطح المسجد لأن هذا الإنسان قادر على الصعود إلى سطح المسجد ولكن لو وجدت حجرا جمادا في ساحة المسجد ثم بعد حين وقد غبت عنه رأيته فوق سطح المسجد فانك ستقول : من الذي صعد بهذا الحجر إلى هذا المكان ؟ لأنه لا يستطيع أن يصعد وحده فأنت تبحث عن السبب وكذلك الشأن في كل شيء. فهذا الخلق من الذي أوجده ؟ من السبب في وجود هذا المسبب ؟ هذا أثر من الذي أثره ؟ من الذي كان سببا فيه ؟ العربي الذي يعيش في الصحراء يرعى الإبل ويأكل الشيح والقيصوم ويبول على عقبيه التفت إلى قانون السببية كما التفت إليه الفلاسفة الأولون بلا خلاف ولا فرق .

قال : أثر الشيء يدل على المسير البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ثم نظر إلى أسباب وراء مسببات هو يعرفها فقال : سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ؟!

ما سبب هذا ؟ ومن السبب فيه ؟ هذا عربي جاهل أمي لم يجلس أمام عالم ولم يدخل أكاديمية أفلاطون ولا أرسطو من قبل وإنما هدته الفطرة إلى الإقرار بهذا القانون وهو قانون السببية فالمخلوق لا بد له من خالق والقران يبين لنا ذلك بأعذب لفظ وأجمله وأبلغه وأفصحه مع قيام الحجة العقلية التي لا تدفع {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)} فينهار بهذا كله هذا الوثن العصري الذي يعبد من دون الله جل وعلا أعني الطبيعة التي يقولون : انها أزلية أبدية وهي التي خلقت الخلق وأوجدت العالم فيحاولون أن يريحوا أنفسهم وهم بذلك وثنيون مشركون ليسوا بملحدين وقد مر أن كل ملحد إنما هو مشرك في الحقيقة لأن الله فطر الناس على إثبات الخالق الصانع الموجد ولكنهم يضلون حتى الذين في هذا العصر من الشيوعيين أنكروا وجود الخالق هم عبدوا مؤسس المبدأ فكانوا يذهبون إلى زيارة قبره وكانت رمته فيه محنطة وكانوا يطوفون ربما بذلك الميدان الأحمر وفيه رمة مؤسس المذهب الإلحادي في هذا العصر ثم لما انهار الاتحاد أخرجوا رمته فلا أدري ألقوها إلى الكلاب أم إلى ماذا ؟ فهم كانوا يعبدونه من دون الله رب العالمين .

والذين قالوا : لا خالق للكون وإنما وجد بالطبيعة أو أن الطبيعة هي التي أوجدته هؤلاء يعبدون الطبيعة من دون الله جل وعلا .

الإنسان متدين بالطبع ولذلك قالوا : ان علماء الحفريات والذين ينقبون في الآثار القديمة بالمدن والمدنيات وجدوا كثيرا من تلك المدن المطمورة أو المهجورة فلما بحثوا ونقبوا وجدوا مدنا بلا حصون ولا معاهد علمية ولا مشافي ولا مدارس ولا غير ذلك ولكنهم لم يجدوا مدينة قط من المدائن القديمة بغير معبد كل مدينة لا بد أن يكون فيها معبد : قوم يعبدون الشمس يعبدون الفرعون يعبدون ما شاءوا من أمثال هذه الأوثان ولكنهم في المنتهى لا بد أن يكونوا عابدين لشيء بل ان الذي يريد أن يفر من العبودية للإله الحق لا بد أن يكون كإبليس فان الله عز وجل لما أمر

إبليس بالسجود لآدم أبى واستكبر فامتنع أن يكون ساجدا لآدم الذي كرمه الله رب العالمين ولكنه لم يستنكف بعد أن يكون قوادا للفجار من ذريته فكذلك كل من أراد أن يفر أن يكون مقرا بالإله الحق عابدا للإله الحق فلا بد أن يتخذ لنفسه صنما ووثنا يعبده من دون الله جل وعلا .

الإنسان مفطور على العبادة لا بد أن يكون عابدا فإما أن يكون عابدا للإله الحق وإما أن يكون عابدا لإله من الآلهة الباطلة .

نسأل الله أن يثبتنا على الحق حتى يقبضنا عليه .

{دليل العناية ودلالته على وجود الله جل وعلا}

دليل العناية هو : أن الله خلق هذا الخلق وجعل له من أسباب استمرار وجوده ما جعل في هذه الحياة وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله حاجة العالم إلى الرسالة والوحي في مواطن كثيرة من {مجموع الفتاوى}

منها : قوله رحمه الله :

وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَحَاجَتُهُمْ إلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟ وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنْ الْأَمْوَاتِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ كَانَ مَيِّتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ.

وقال رحمه الله تعالى ـ وكلامه كله داخل في هذا الدليل وهو دليل العناية أن الله تعالى أرسل للناس الرسل وأنزل عليهم الكتب من أجل أن يعرفوا الغاية التي لأجلها خلقوا ـ قال رحمه الله :

سَمَّى اللَّهَ تَعَالَى رِسَالَتَهُ رُوحًا وَالرُّوحُ إِذَا عَدِمَ فَقَدْ فُقِدَتْ الْحَيَاةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} فَذَكَرَ هُنَا الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا: الرُّوحُ وَالنُّورُ فَالرُّوحُ الْحَيَاةُ وَالنُّورُ النُّورُ

وقال رحمه الله تعالى :

يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ وَنُورًا لَهَا بِالْمَاءِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنْ السَّمَاءِ حَيَاةً لِلْأَرْضِ وَبِالنَّارِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا النُّورُ وَهَذَا كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} . فَشَبَّهَ الْعِلْمَ بِالْمَاءِ الْمُنَزَّلِ مِنْ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ بِالْمَاءِ حَيَاةَ الْأَبْدَانِ وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْعِلْمِ كَمَا أَنَّ الْأَوْدِيَةَ مَحَلُّ الْمَاءِ فَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا وَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلًا وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً قَلِيلًا وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى السَّيْلِ مِنْ الزَّبَدِ بِسَبَبِ مُخَالَطَةِ الْمَاءِ وَأَنَّهُ يَذْهَبُ جُفَاءً أَيْ: يُرْمَى بِهِ وَيُخْفَى وَالَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْتَقِرُّ وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ تُخَالِطُهَا الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ فَإِذَا ترابى فِيهَا الْحَقُّ ثَارَتْ فِيهَا تِلْكَ الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ ثُمَّ تَذْهَبُ جُفَاءً وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَالنَّاسَ وَقَالَ: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} فَهَذَا الْمَثَلُ الْآخَرُ وَهُوَ النَّارِيُّ فَالْأَوَّلُ لِلْحَيَاةِ وَالثَّانِي لِلضِّيَاءِ.

وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْمِثَالَيْنِ: الْمِثَالَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْله تَعَالَى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} إلَى قَوْلِهِ: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} إلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَفِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ غَيْرَ حَيٍّ وَإِنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ حَيَاةً بَهِيمِيَّةً فَهُوَ عَادِمُ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ الْعُلْوِيَّةِ الَّتِي سَبَّبَهَا سَبَبُ الْإِيمَانِ وَبِهَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ وَتَكْمِيلُ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَادِهِمْ وَبُعِثُوا جَمِيعًا بِالدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إلَيْهِ وَبَيَانِ حَالِهِمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إلَيْهِ.

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَدْرِ وَذِكْرِ أَيَّامِ اللَّهِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ وَهِيَ الْقِصَصُ الَّتِي قَصَّهَا عَلَى عِبَادِهِ وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا لَهُمْ. وَالْأَصْلُ الثَّانِي يَتَضَمَّنُ تَفْصِيلَ الشَّرَائِعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِبَاحَةِ وَبَيَانِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ. وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَعَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مَدَارُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهَا وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِهَا وَإِنْ كَانَ قَدْ يُدْرِكُ وَجْهَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُدْرِكُ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَى الطِّبِّ وَمَنْ يُدَاوِيهِ وَلَا يَهْتَدِي إِلَى تَفَاصِيلِ الْمَرَضِ وَتَنْزِيلِ الدَّوَاءِ عَلَيْهِ.

وقد قال السفاريني في {لوامع الأنوار}:

اعْلَمْ أَنَّ حَاجَةَ الْخَلْقِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَبَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضَرُورِيَّةٌ، لَا يَنْتَظِمُ لَهُمْ حَالٌ، وَلَا يَصْلُحُ لَهُمْ دِينٌ وَلَا بَالٌ إِلَّا بِذَلِكَ، فَهُمْ أَشَدُّ احْتِيَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْ إِرْسَالِ الْمَطَرِ وَالْهَوَاءِ، بَلْ وَمِنَ النَّفَسِ الَّذِي لَابُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، كَمَا فِي مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ لِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .اهـ

وكلام ابن القيم رحمه الله الذي أشار إليه السفاريني رحمه الله هو في {مفتاح دار السعادة} وهو :
حَاجَة النَّاس إِلَى الشَّرِيعَة ضَرُورِيَّة فَوق حَاجَتهم إِلَى كل شَيْء وَلَا نِسْبَة لحاجتهم إِلَى علم الطِّبّ إِلَيْهَا إِلَّا ترى أَن أَكثر الْعَالم يعيشون بِغَيْر طَبِيب وَلَا يكون الطَّبِيب إِلَّا فِي بعض المدن الجامعة وَأما أهل البدو كلهم وَأهل الكفور كلهم وَعَامة بني آدم فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى طَبِيب وهم أصح أبدانا وَأقوى طبيعة مِمَّن هُوَ متقيد بالطبيب وَلَعَلَّ أعمارهم مُتَقَارِبَة وَقد فطر الله بني آدم على تنَاول مَا يَنْفَعهُمْ وَاجْتنَاب مَا يضرهم وَجعل لكل قوم عَادَة وَعرفا فِي استِخْرَاج مَا يهجم عَلَيْهِم من الأدواء حَتَّى أَن كثيرا من أصُول الطِّبّ إِنَّمَا أخذت عَن عوائد النَّاس وعرفهم وتجاربهم وَأما الشَّرِيعَة فمبناها على تَعْرِيف مواقع رضى الله وَسخطه فِي حركات الْعباد الاختيارية فمبناها على الْوَحْي الْمَحْض وَالْحَاجة إلى الشريعة أشد من الحاجة إِلَى التنفس فضلا عَن الطَّعَام وَالشرَاب لِأَن غَايَة مَا يقدر فِي عدم التنفس وَالطَّعَام وَالشرَاب موت الْبدن وتعطل الرّوح عَنهُ وَأما مَا يقدر عِنْد

عدم الشَّرِيعَة ففساد الرّوح وَالْقلب جملَة وهلاك الْأَبدَان وشتان بَين هَذَا وهلاك الْبدن بِالْمَوْتِ فَلَيْسَ النَّاس قطّ إِلَى شَيْء أحْوج مِنْهُم إِلَى معرفَة مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول وَالْقِيَام بِهِ والدعوة إِلَيْهِ وَالصَّبْر عَلَيْهِ وَجِهَاد من خرج عَنهُ حَتَّى يرجع إِلَيْهِ وَلَيْسَ للْعَالم صَلَاح بِدُونِ ذَلِك الْبَتَّةَ وَلَا سَبِيل إِلَى الْوُصُول إِلَى السَّعَادَة والفوز الْأَكْبَر إِلَّا بالعبور على هَذَا الْجِسْم .اه

فهذا الذي ذكره علماؤنا رحمهم الله تعالى هو أعظم عناية بالجنس البشري في هذه الأرض : أن الله تعالى لأنه لم يخلقهم عبثا أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب من أجل أن يبينوا لهم مواقع مرضاة الله ومساخطه من أن يقوموا بوظيفتهم في هذه الحياة وهذا أعظم مظاهر العناية بالكائن الإنساني في هذا الوجود الا أن العلماء رحمهم الله لما تعرضوا لذكر دليل العناية جعلوه شيئا يشمل كل من وما في الأرض من مخلوق خلقه الله فقالوا كما في كتاب {الله جل جلاله } :

كل نعمة وراءها منعم وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم رعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى .

أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان أليس وراءها يد ؟ ان إنكار ذلك تعطيل للعقل أي تعطيل !

ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمة على الإنسان من أكثر الظواهر تفصيلا في القران لما يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه .

وبالتالي يستخرج بذلك شكر العاقل لله المنعم جل وعلا أو إقامة الحجة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده وبالتالي استحقاقه كل عقاب لما كان ذلك كذلك فقد ذكر الله رب العالمين في كثير من الآيات في القران المجيد بعض مظاهر العناية بالإنسان كدليل على وجوده فقال جل وعلا { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) } وقال جل وعلا { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)} .

الملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }بينما ختمت الأخرى بوصف الإنسان {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } فإذا ما نظرت في سياق الآيتين وختامهما اطلعت على معان

منها : أن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة بل هي من خلق الله جل وعلا وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن إذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياما كاملا { إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } وأيضا ترى أن جهل الإنسان الذي ينتج عنه الكفر وترى أن كبره الذي ينتج عنه الظلم هو الذي يجعل الإنسان لا يرى بداهة نعم الله عليه ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد بل ينسبها إلى أي شيء مهما كان تافها وباطلا {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } وقال ربنا جل وعلا {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)} .

وقد أجمل الله تعالى ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه في آيات .

منها : قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} وقال تعالى {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} وقال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}.

وفي هذا الاجمال تتبين أن أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان : خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة وثاني هذه المظاهر : أن الأرض بما فيها والسماوات بما فيها مسخرة للإنسان وأن هذا الأنعام كلها سخرها الله رب العالمين للإنسان ومكنه الله منها .

فهذا الأنعام كله بجزئيه على الإنسان من الله جل وعلا وأسبغ كما قال تعالى { جميعا منه } ولا يمكن أن يكون الا ذلك لأن مناسبة الكون للإنسان ولأن إمكانه من تسخيره لا يكون الا بمسخر .

وبعد هذا الاجمال يذكر الله تعالى بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمه على الإنسان في القران { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) }وقال تعالى {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)} وقال تعالى {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)} فلم ينعم على مخلوق من

المخلوقات كما أنعم على الإنسان من حيث ما أعطي من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة وكذلك ما أنعم الله عليه من اعتدال خلقه {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}

كفى بالعقل للإنسان نعمة وبسبب مما أعطي استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه أي بسبب نعمة الله عليه بالعقل ثم يعدد الله نعمه الكونية على الإنسان وما أكثر الآيات في ذلك ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة هي سورة الأنعام كلها تقريبا تتحدث عن هذا الأمر وكذلك سورة النمل وكذلك سورة النعم وهي سورة النحل فتأمل في قول ربك { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } وقال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}.

الطريق الوحيد الذي يسلكه الإنسان لكي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو أن يتبع النجم وقد كانت المسألة قديما أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم ولكن في الحاضر والى الأبد سيبقى اهتداء الإنسان بالنجم شيئا ضروريا يهتدي بها قاطع الصحراء في سيره والجندي في معركته هجوما أو انسحابا والإنسان حيث كان .

ان السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على الآلات وعلى خطوط الطول والعرض هي حتى في هذه معتمدة على النجوم إذ لو لا نجم القطب ما عرف طول ولا عرض ولو لا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب وبدون نجوم الكون كم كان يتعذب الإنسان ؟ وكم كان يضل ؟! وكم كان تتقلص دائرة عمله ؟!

قال جل وعلا { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) }وقال جل وعلا { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)} وقال تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) } فبين ربنا تبارك وتعالى في هذه الآيات وفي كثير من غيرها في القران المجيد عنايته بهذا الإنسان بهذا الخلق في هذه الأرض في هذه الحياة وكيف أن الله تعالى جعل ذلك ممهدا لحياته ولأداء وظيفته في هذه الأرض على النحو الذي طلبه الله رب العالمين منه .

فدليل العناية يدل على وجود الخالق جل وعلا وعلى أن الله تعالى هو الذي خلق هذا الخلق وجعل هذه العناية مصروفة لهذا الخلق في هذه الأرض في هذه الحياة من أجل أن يمارس وظيفته فيها على أن هنالك في هذا العصر الحديث أمور أخرى لما تأمل فيها العلماء في مجالاتهم المختلفة وصلوا إلى النتيجة ذاتها التي دلت عليها الآيات في ما مر ذكره.

في كتاب {العقيدة في الله } بيان لبعض هذا الدليل العظيم وهو دليل العناية :

أ- مم تتكون أجسام الأحياء وكيف؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجلياً هذا الموضوع: ﴿ معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسميها (الخلايا) ، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة ﴾.

وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة. وكلّ خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم ((البروتوبلازم)) .

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم ((الكروموسومات)) .

وعدد هذه ((الكروموسومات)) ثابت في خلايا كلّ نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، فعددها في خلايا القط - مثلاً - يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول.

وفي كل خليّة من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه (الكروموسومات) .

وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا فإنّ كلّ خلية جديدة لا بدّ أن تحتوي على العدد نفسه من (الكروموسومات) ، وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنساناً.

والخلايا كما ذكرت دائمة الانقسام، يحدث هذا في جميع ساعات اليوم حتى في أثناء نومنا، ونحن حتى الآن لا ندرك حقيقة القوى المهيمنة على هذه العملية المذهلة: عملية انقسام الخلايا، بل يكتفي العلم بوصف الخطوات العملية التي يمكن ملاحظتها تحت عدسات (الميكروسكوب{المجهر }) العادي أو عن طريق (الميكروسكوب {المجهر } الإلكتروني) الذي يكبر الأشياء تكبيراً أكثر بكثير من تكبير الميكروسكوب{المجهر } العادي ﴾.

جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بدّ أن تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) فيما عدا نوعين من الخلايا، هما الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، وعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين (كروموسوماً) ، بل تحتوي على نصف هذا العدد، أي يصبح في كل خلية تناسلية ذكرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسوماً) فقط ﴾.

يحدث هذا لحكمة بالغة ولهدف عظيم، إذ إنّ الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) لا بدّ أن تندمج مع الخلية الأنثوية (البويضة) لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وهي التي نطلق عليها اسم (الخلية الملقحة) ، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسوماً) التي في الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسوماً) التي في الخلية الأنثوية لكي يعود عدد (الكروموسومات) في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي، وهو ستة وأربعون (كروموسوماً) .

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) توالي انقسامها، فتصبح خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من رحم أمه، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنساناً كامل النمو في كلّ خلية من خلاياه ستة

وأربعون (كروموسوماً) كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري ﴾.

﴿ إنَّ اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقاً أن يكون نتيجة مصادفة عمياء، بل لا بدّ أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل.

وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني. أي أنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود، ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة؟ ﴾.

{ما الذي يجعل هذه الخلايا التناسلية خاصة تكون على النصف في حاملات الوراثة في حاملات الصفات حتى إذا ما اندمج الحيوان المنوي مع البويضة الأنثوية عاد العدد إلى أصله كما كان في جسد الأب وفي جسد الأم وفي الجنس البشري .

فلأن ذلك يحدث أي هذا الاندماج جعل الله رب العالمين العدد على النصف في الخلايا التناسلية حتى إذا ما تم الاندماج عاد العدد إلى أصله وأما سائر الخلايا الجسدية في الجنس البشري فإنها على الأصل الذي مر ذكره وهو ستة وأربعون .

فمن الذي فعل ذلك ؟! هل يمكن أن يقع ذلك على هذا النحو الدقيق مصادفة أو من غير صانع ؟! هذا كما مر نوع يخالف سائر الخلايا الجسدية وهناك نوع أخر في الجسد الإنساني وهو : الخلايا العصبية }

أما النوع الآخر من الخلايا التي تخالف بقية خلايا الجسم فهي خلايا الدماغ، وهي تخالف بقية الخلايا في كونها لا تنقسم، وأما السر في عدم انقسامها فانه لا يمكن أن يكون عن طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي، لو انقسمت كما يحدث لباقي الخلايا لحدثت كارثة مروعة، إنّ خلايا

المخ في هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل.

إنَّ عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته، بينما نجد أنّ الكرات الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ما هي إلا خلايا تموت، ويحلّ محلها خلايا جديدة كلّ نحو مائة يوم. وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) في نخاع العظام، ثم تنطلق لكي تسبح في تيار الدم؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت ﴾.

وأما السر في تفاوت قوة عضلات الجسم{لأنه مما يلاحظ: أن العضلات في الجسم الإنساني متفاوتة من حيث القوة }:

أقوى عضلات في جسم الإنسان أو الحيوانات الثديية هي عضلات الرحم عند الأنثى، تلك هي التي تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيره من الحيوانات لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه.

{ وتقلصاتها تكون عنيفة جدا وتكون مؤلمة جدا لذلك لما جاء الرجل من اليمن يحمل أمه على رقبته ويطوف بها حول البيت ثم ذهب إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال :أترى أني قد وفيتها حقها ؟ قال : ولا بطلقة واحدة . وهو ما يكون من انقباض عضلات الرحم عند الولادة فهذه هي الطلقة التي تعاني منها المرأة عند الوضع قال : ولا بطلقة واحدة أي : هذا الذي صنعت وقد أتى بأمه من اليمن إلى مكة ثم هو يطوف بها حول البيت وقد صار لها بعيرا مذللا كل هذا ليس بمعادل لطلقة واحدة عند ولادته .

فهذه العضلات هي أقوى عضلات الجسد الإنساني .}

وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب والفكين، فعضلات القلب لا بد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام، وكذلك الحال في عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكي تمضغ أطناناً من الطعام طوال حياة الإنسان ﴾.

وقد قرر العلم الحديث وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها، هذه الصفة هي مقاومة عوامل الفناء، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء.

إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه .

{وهذا معروف فاش في معارف الناس الطبية في هذا العصر أن هذا الفيروس يتكون حينا بعد حين فيه أمور تجعله عصيا على ما وصل إليه الإنسان من أسباب مقاومته فعندما يستعملون بعض المضادات له فإنها لا تجدي فتيلا فما تزال التجارب شيئا فشيئا حتى يتوصل إلى شيء فيكون هو قد غير من كيميائيته بقدر الله تبارك وتعالى وكذلك الحشرات }

يقول : إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه، والحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعة ضدّ المبيدات الكيميائية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس.

بل في الإنسان نفسه لوحظ كثرة الإنجاب في فترات الحروب، كما لوحظ أنّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام - فإنّ النتيجة في معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم؛ لتعويض النقص في الذرية الذي حدث في أثناء فترة الامتناع عن الحمل. وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين؛

{ حتى انه يمكن أن يحيا بثمن كلية فإذا استأصلت كلية وكذلك إذا تعطلت في الأخرى سبعة أثمانها فانه يمكن بهذا الثمن الباقي أن يظل مؤديا لوظيفته من ما احتياج إلى أن يغسل دمه بالوسائل الحديثة .}

الله وحده هو الذي زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف في ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها من هذه الحيوانات فلكل وسائل دفاعه التي جعلها الله تعالى له مهما كان ضعيفا .

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات ﴾.

وقد مر أن هنالك وحدة للنظام في هذا الكون وهي دليل على وحدانية الخالق العظيم سبحانه .

في كتاب { وجود الله بالدليل العقلي والنقلي }:

لو أخذنا ورقة نبات رقيقة وفحصناها تحت المجهر لوجدناها تتألف من ملايين الخلايا التي تنتظم مع بعضها البعض في طبقات وصفوف بشكل رائع يأخذ الألباب وينم عن وجود خالق مبدع لهذا التصميم العظيم لو كبرنا هذه الخلايا تحت المجهر باستخدام عدسات قوية فأننا سنشاهد التركيب العجيب لكل منها لكل خلية على حدة سنشاهد النواة وهي المركز الحيوي في الخلية وحولها مادة يقال لها : السيتوبلازم الذي يحده غشاء رقيق متماسك يحافظ عليه ستقف مذهولا عندما تدرك الحركة الدائمة الموجودة داخل خلايا النبات والتي لا ينبأ عنها ظاهر الورقة الخارجي الساكن يعني أنت عندما تنظر إلى ورقة النبات تجدها ساكنة وفيها حركة داخلية موارة على مستوى ما لا يحصيه الا الله من الخلايا التي تتكون منها الورقة فهي في حركة دائمة ولكن العين المجردة تراها ساكنة لأنها لا تستطيع أن ترى هذه الخلايا الدقيقة سترى البروتوبلازم سيتهادى تهادي السفن على ساحل بحر خضم فما هي القدرة أو القوة

التي تدفع البروتوبلازم إلى الحركة التي تعرف في علم الأحياء بظاهرة تدفق الحشوة أو تدفق البروتوبلازم .

ما هي القوة التي جعلت هذه المادة في هذه الحركة الدائمة ؟ فرغم صغر حجم الخلية النباتية التي لا ترى الا بالمجهر الا أنها تشكل جهازا معقدا يقوم بالعديد من الوظائف الحيوية الدقيقة التي تفوق في دقتها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة في صناعة الساعات الصغيرة وما دونها حجما من المخترعات فهل تصدق أن ساعة يدك قد تشكلت بمحض الصدفة ؟! وهل يمكن لهذه الساعة أن توجد نفسها بنفسها كما يدعي الماديون ؟! المادة لا تعقل ولا تدرك ولا تبصر فهي إذن عاجزة كل العجز عن الخلق والإبداع وكذلك الحال بالنسبة لهذا الكون بما يحتويه من مجرات ونجوم وكواكب

ومخلوقات ونباتات ومواد فالذي خلقها هو الذي أحسن كل شيء خلقه وهو لا يمكن أن يكون الا الله عز وجل .

إذا فحصنا الأمبية في قطرة ماء مأخوذة من مستنقع لو فحصناها تحت المجهر فأننا سنذهل لدى مراقبة العمليات الحيوية التي ينجزها هذا الحيوان البدائي التناهي في الصغر والذي يتكون من خلية واحدة ولكنها خلية عجيبة لأنها تحس وتدرك فتتحرك باتجاه فريستها فتلتهمها ثم تهضمها ثم تطرح الفضلات الناجمة عن هضمها كما أنها تتنفس وتتكاثر وتقوم بأعمال حيوية كثيرة أخرى وهي ذلك الحيوان البدائي الذي يتألف من بعض البروتينات التي تتألف بدورها من بعض الأحماض الأمبيية البسيطة .

هل بإمكان الصدفة أن توجد هذا الحيوان المجهري الدقيق من بعض الأحماض الأمبيية أم هل خلق الأميبا نفسه بنفسه بعد أن جمع ذرات خليته من هنا وهناك ثم رتبها بهذه الطريقة البديعة الخلابة لتقوم بالهضم والتنفس والإحساس والتكاثر وغير ذلك ؟! وهل للأميبا عقل يسيره أم أن قوة الهية أوجدته ثم قدرت له حركاته وسكناته وكافة نشاطاته الحيوية المذهلة ؟! وهل بإمكان العلماء أن يركبوا أحماضا أمبيية يسيرة كتلك التي يتركب منها الأمبية ثم يجعلوها تقوم بكل هذه الوظائف الحيوية ؟! لن يكون هذا أبدا بدون روح والروح من أمر ربي فقط فالأحماض الأمبيية موجودة فهل يستطيعون أن يكونوا لنا هذه الخلية الحية التي تحس وتتكاثر وتأكل وتخرج إلى غير ذلك من الوظائف الحيوية ؟! ان ذلك يحتاج إلى الروح والروح من أمر ربي فقط .

قال بعض علماء الأحياء وهو أستاذ كان في جامعة فرانكفورك بألمانيا :

لقد توصلت من خلال أبحاثي في علم الأحياء إلى الإيمان بالله والى الاقتناع بوجوده وتأكد لي أنه هو المسير لكل ما في هذا الكون

قال : وباعتقادي فان الإيمان بالله يقوم على المنطق والاقتناع ولكن لكي يصل الإنسان إلى هذه الحقيقة لا بد له من بعض المنطق ثم يتجه إلى الله بالتأمل والبحث والتفكير والاستدلال اه

وقد مر أن وجود الله تبارك وتعالى لا يحتاج في الحقيقة إلى منطق واستدلال لأنه وجوده جعله الله رب العالمين فطرة فطر الناس عليها ولكن كما في هذه المجتمعات الملحدة الكافرة المشركة يحدث

التواء للفطرة يحدث فيها غبش فحينئذ لا تستطيع أن ترى الله رب العالمين ولا أن توقن بوجوده فتحتاج إلى أمثال هذا الذي يقوله هذا العالم الطبيعي بل ان الله تعالى دلنا على ما وصل هو إليه بطريقة هي أعمق من ذلك وأجل كقوله تعالى :{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } وقوله {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا } وقوله {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } .

فبين لنا ربنا تبارك وتعالى حقيقة النظر في آيات السماوات والأرض وما بينهما من أجل أن نصل إلى هذا الأمر الكبير الذي فطر الناس عليه إذا ما حادت الفطرة عن مسلكها الذي فطرت عليه فبالنظر والتأمل يصل الإنسان إلى هذا الأمر الكبير .

مستشار هندسي كان مصمما للعقل الالكتروني بالجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجليفيلد بأمريكا قال :

من أسباب إيماني بالله : ما أقوم به من أعمال هندسية فبعد اشتغالي سنين عديدة في عمل تصميمات لأجهزة كهربائية معقدة وعقول الية وحواسيب ازداد تقديري لكل تصميم أو إبداع أشاهده ثم أنه مما لا يتفق مع العقل والمنطق ان يكون ذلك التصميم البديع المذهل للعالم من حولنا والذي يتألف من مليارات التصميمات المعقدة قد وجد من إبداع اله أعظم لا حدود لحكمته ولا نهاية لتدبيره وإبداعه وعبقريته. حقيقة ان هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله، ولكن العلوم الحديثة قد صقلتها وجعلتها أشد بيانا واسطع نورا وأقوى حجة وإقناعا منها في أي وقت مضى.

ان كل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم أكثر تعقيدا من ذلك العقل الالكتروني الذي صنعته بيدي فان احتاج هذا الحاسوب إلى مهندس والى مصمم ومن ثم إلى منفذ لانجازه فان الجسد المليء بالأجهزة والأعضاء الحيوية التي ينجز كل منها من المهام الفسيولوجية ما يعجز عنه عشرات الآلات والأجهزة الالكترونية هذا الجسد بحاجة إلى خالق حكيم وعالم عليم لتصويره وبرأه وإيجاده واذا قمنا بمقارنة أعقد وأضخم العقول الالكترونية بالعقل البشري فان عظمة الله وإبداعه في خلقه ستتجلى لنا ساطعة نيرة .اه

فهذا كلامهم أولئك الذين أحدثوا في هذا الكون ما أحدثوه من هذه الاكتشافات والمخترعات فأدى هذا الأمر من الكشف عن بعض أسرار الله تعالى في المادة التي خلقها لنا أدى هذا الأمر العظيم إلى الحاد أقوام بالله رب العالمين والى جحد وجوده فكأنما أنعم عليهم بنعمة لم يقدروا من أنعم بها ولم يقدروه قدره ولم يعرفوا له نعمته عليهم فكان أن جحدوا بنعمة الله تبارك وتعالى فكانت النعمة سبيلا إلى جحد وجوده فأنكروا وجود الله رب العالمين وألحدوا .

وقد يظن أقوام أن هذا الإلحاد إنما هو عند أولئك الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من هذا التقدم المذهل فأدى بهم ذلك إلى إنكار وجود الخالق العظيم ولكن تعجب العجب كله من أن تعلم يقينا وتعرف أشخاصا بأعيانهم قد ألحدوا في بعض القرى في مصر هنالك من ألحد وأنكر وجود الله تعالى وهم مبثوثون في النجوع وفي القرى ليسوا بأولئك الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من تقدم مذهل في التقنية وإنما هم قوم ما زالوا يحيون حياة بدائية بالنسبة إلى ما وصل إليه أولئك الملحدون وهذا أمر يحتاج إلى بذل المجهود من أجل حماية إيمان المؤمن وتقوية هذا الإيمان من جانب واستنقاذ من يمن الله تعالى بالحياة في ظل الإيمان العظيم من جانب اخر وأما من كتب عليه الشقاوة فانك لو بذلت له مليء الأرض حججا ما استقام على الحق قلبه وفؤاده والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو على كل شيء قدير .

هل تأمل أحدنا في الأرض التي نعيش عليها ؟ ذلك الكوكب المعلق في الفضاء الشاسع وكيف أضحى ملائما لسكن الناس وعيش الحيوان ونمو النبات ! بينما ملايين الملايين من الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها لو كانت الأرض صغيرة أو بحجم القمر مثلا فإنها ستعجز عن الاحتفاظ بغلافها الجوي الذي يحميها من الأشعة الكونية القاتلة ويمنع تسرب الأكسجين إلى الفضاء الخارجي فتصبح الحياة على سطحها مستحيلة كما لن تتمكن الأرض من الحفاظ على مياه بحارها ومحيطاتها وبالتالي فان دورة الماء فيها ستنعدم وستنعدم الأمطار وكل أنواع الحياة وبنقصان ماء الأرض سترتفع درجة حرارتها لتصبح غير ملائمة للحياة أيضا .

لو كان قطر الأرض لا أصغر بل كان ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها إلى أربعة أضعاف سطحها الحالي وبالتالي ستزداد قوة جاذبيتها للأجرام السماوية العابرة بالقرب منها كما

ستقل سماكة غلافها الجوي وهو السقف المحفوظ مما سيؤدي إلى مهاجمتها بالقذائف الكونية والأجرام السماوية المختلفة من ساعة إلى أخرى مما سيؤدي إلى القضاء على كل أنواع الحياة على سطحها كما سيزداد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد على السنتيمتر المربع الواحد إلى كيلوين فتزيد بذلك مساحة المناطق الباردة والقطبية زيادة كبيرة وستتقلص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة ويعاني الناس نقصا كبيرا مما سيجعل الناس يتجمعون في مناطق سكنية محدودة تفصلهم عن بعضهم مساحات شاسعة ما الأراضي الجرداء القاحلة وسيكون هناك فاقة كبيرة في الماء وفي المنتجات الزراعية والحيوانية بحيث لا تفي بحاجة سكان الأرض .

لو كان حجم الأرض بحجم الشمس مثلا فان جاذبيتها للأجسام الكونية ستزداد مائة وخمسين ضعفا وبذلك سترتطن كل بضع دقائق بجرم سماوي مجاور لينجم عن ذلك انفجارات نووية هائلة على سطحها تحرق الأخضر واليابس وتقضي على كافة أنواع الحياة كما سيزداد الضغط الجوي إلى مائة وخمسين ضعفا على السنتيمتر المربع الواحد من سطحها مما سيؤدي إلى ازدياد وزن الأجسام والكائنات التي تدب على سطحها مائة وخمسين ضعفا كما سيتضاءل حجم المخلوقات كافة حتى يصبح الإنسان بحجم السنجاب أو ما شابهه فكونها على ما هي عليه بحكمة بالغة وهذه وحدها نعمة عظيمة من نعم الله الكثيرة التي أفاض علينا بها فليس كون الأرض على ما هي عليه من حيث الكتلة ومن حيث الحجم ليس ذلك عشوائيا وإنما هو على نحو مضبوط قدره العليم الحكيم وجعل ذلك من مقومات وجود هذه الأرض وقيام الحياة عليها إلى غير ذلك مما دلنا عليه الباحثون في هذه الأمور وليسوا هم بمسلمين حتى يقول قائل : ان هذه الأمور موجهة أتى بها المسلمون كما يفعل كثير من البسطاء المساكين الذين يأتون ببعض النظريات ثم يلوون أعناق الآيات من أجل أن يقولوا : هذا عندنا في كتاب ربنا ثم يتبين بعد زيف ما ذهبوا إليه من تلك النظريات ويقعون حينئذ في مأزق خطير ولكن هذا الذي قرره أولئك بالحسابات الدقيقة والآلات المضبوطة على أحدث ما وصل إليه العلم من الوسائل والبحث هذا كله وصل إليه أقوام لا يؤمنون بالله رب العالمين في الجملة وان امنوا بالله تعالى فهم ليسوا بمسلمين .

الأرض بحجمها وبعدها عن الشمس وسرعة دورانها حولها وحول نفسها وسماكة غلافها الجوي وحجم مياهها بالنسبة لحجم قاراتها وتركيب غلافها الجوي وتركيب تربتها وسماكتها كلها لا يمكن أن تتجمع معا بمحض الصدفة لتكون هذا الكوكب الجميل الذاخر بالحياة الغني بالموارد والكنوز وبأسباب المعيشة اللازمة لحياة الإنسان الذي اختاره الله تعالى ليكون خليفة في الأرض لو توفرت كل العوامل التي سبق ذكرها وانعدم ماء الأرض منها ستصبح الأرض كوكبا ميتا مهجورا كباقي كواكب المجموعة الشمسية قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } وقال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)}. الله وحده لا شريك له سبحانه هو الذي جعل لنا من أنفسنا ومن كل ذرة من ذرات هذا الوجود آية عظيمة تشهد بوجوده وعظيم قدرته وبإبداعه في خلقه جل وعلا .

في هذا التأمل وهذا الاستدلال العقلي السليم ستجد التوافق الكبير بين ما وصل إليه علماء العصر في كل مجالات العلوم وما ورد في القران الكريم من آيات بينات ومعجزات ساطعات تنطق كلها بوجود الله رب العالمين وتسبح بحمده وعظمته وقدرته وحكمته وحسن تدبيره جل وعلا .

{ كلام العلامة ابن القيم عن هداية النحل}

لا تحسبن هذا الذي نأتي لك به إنما هو بدعة من البدع أو هو محدث من المحدثات فهناك ما ذكره الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في { شفاء العليل } وانظر هل تجد جديدا بينما مر ذكره وما يذكره أو ما ذكره رحمه الله تعالى منذ قرون فيما يتعلق بهذا الأمر الذي نحن بصدده قال رحمه الله وهو يتأمل في هذا الخلق العجيب الذي جعله الله رب العالمين آية للعالمين وهو النحل فالعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بحث كما في {شفاء العليل } وكذلك بحث كما في { مفتاح دار السعادة } بحث أمورا تجعلك تعتقد أنه كان عالما بالطب وعالما بالهندسة وعالما بالحشرات وعالما بالنبات وعالما بأمور كثيرة رحمه الله رحمة واسعة وساتيك بكلامه كما ذكره وبكلام العلماء المحدثين فيما يتعلق بهذا الأمر الذي تعرض له خاصة وهو : النحل وتأمل هل تجد كبير فرق بين كلامه وكلامهم ؟

قال رحمه الله :

أمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميرا ومدبرا وهو اليعسوب وهو أكبر جسما من جميع النحل وأحسن لونا وشكلا وإناث النحل تلد في إقبال الربيع وأكثر أولادها يكن إناثا وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه النحل بينها بل إما أن تطرده وإما أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك .... تقتسم النحل فرقا فمنها فرقه تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب وهم حاشية الملك من الذكورة ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه والشمع هو ثفل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها وفرقة تبني البيوت وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعها وقتلها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال وتعديهن ببطالتها ومهانتها وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته فيبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه ويجعل النحل بين يديه شيئا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاما للملك وخواصه ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع كأنها قرأت كتاب أقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلا مستديرا كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضا حتى يصير طبقا واحدا محكما لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين إحداهما: أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلا الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعا ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها بل يبقى فيما بينها فروج خاليه ضائعة وأما المسدس

فهو موصوف بهاتين الصفتين فهداها سبحانه على بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطر ولا آلة ولا مثال يحتذي عليه وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتها ذللا لا تستعصي عليها ولا تضل عنها وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصا تسيح سهلا وجبلا فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطانا وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجا ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتا وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى فإذا برد الهوى وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل فإذا أمست رجعت إلى بيوتها وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب و يتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرة أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قده نصفين ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية هذا دأب البواب كل عشية وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرا إذا اشتهى التنزه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها ويتبعه جميع النحل وتبقى الخلية خالية فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل فيعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودا وهو إذا خرج غضبا جلس على مكان مرتفع من الشجرة وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة

فيأخذ صاحب النحل رمحا أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ويدنيه إلى محل الملك ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث وتبعه خدمه وسائر النحل فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ولا تدين لطاعتها والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا وإذا فعلت ذلك جاد العسل وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم وبينها وبين العسالة حرب فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران ولا يفلت منها الآكل طويل العمر فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية .... وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة فالكرام دائما تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادا من الكبار وأقل لسعا وأجود عسلا ولسعها إذا لسعت أقل ضررا من لسع الكبار ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته لما لم يشركها فيه غيرها وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان أعداء وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم .اه

هذا ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في {شفاء العليل}.

وأما العلم المعاصر : فانه نظر أيضا في حياة النحل وخصها بكثير من النظر والبحث فقد تقدم العلم اليوم كثيرا وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون .

{ عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام }

لقد أكد لنا العلماء ما عرفناه من قبل من أن عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي : النحلة الملكة والنحلة الذكر والنحلة الشغالة .

أما ملكة النحل : فهي أم الخلية كلها وجميع النحل في الخلية أبناؤها ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع في كل يوم تطلع فيه الشمس ما بين خمسمائة وألف بيضة إلى ألفي بيضة بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع، وينتهي بانتهاء الصيف.

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل، فالنحلة عمرها قصير، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع، ولذلك فإنّ الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها، كي تستمرّ الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

{ من بديع صنع الله في ملكة النحل }

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها الشغالة بمقاسات مختلفة، فالمقاس الكبير يعده النحل لملكة المستقبل، والبيضة التي تضعها الملكة فيه أي في ذلك البيت ذي المقاس الكبير تكون ملكة، لأن الشغالة تغذيها بغذاء خاص بالملكات هو : الغذاء الملكي فتكون هذه البيضة ملكة بعد حين والبيضة التي تضعها الملكة في البيت الأصغر حجماً ومقاسه ربع بوصة تصبح نحلة ذكراً، أما البيضة التي تضعها في البيت الصغير ومقاسه خمس بوصة فتنتج نحلة شغالة، بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها، فتكون نحلة شغالة، بينما تضع في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة.

ومن عجيب صنع الله في النحلة الملكة : أنها لا تُلقحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها، ولذلك سرّ عجيب، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الملكة وهي رابضة على الأرض، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء، وعند ذلك تمتلئ أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء، فتنتفخ في أثناء الطيران، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير، فيخرج من مكمنه.

ومن عجائب صنع الله في الملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها، وتخرج من خليتها حائمة حولها مصدرة تلك الأصوات، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها، بل في جميع الخلايا المجاورة، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكور وأشدها وأسرعها، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك، ذلك أنه بعد تلقيحه الملكة يفقد عضو تذكيره، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفاً يفقده حياته.

ويسأل القارئ عن كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة، والجواب: أن الله زود كل نحلة بقرني استشعار، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتا عشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الملكة إحدى عشرة حلقة.

ويبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقب، وفي الشغالة (٢٤٠٠) ، وفي الملكة (١٦٠٠) .

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة، ولغير ذلك من الأصوات، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس.

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق.

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها، فهو كبير قوي، يأكل كثيراً، ولا يعمل شيئاً، فلا يجمع الرحيق، ولا يصنعه، ولا يبني، ولا يحرس، حتى طعامه، تضعه النحلة الشغالة في فمه، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن إمداده بالغذاء، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها فعند الرجوع من عملية تلقيح الملكة تعود الذكور فإذا ما عادت تلقتها الشغالة عند باب الخلية فيحدث ما يعرف بمذبحة الذكور فتقتلها لأنه لا فائدة منها .

بقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليل بالنسبة لتعداد النحل، فلا يتجاوز عددها في الخلية الواحدة المائتين.

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية، كما أنها العنصر الفعال فيها، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة، والمهمات الصعبة.

فهي التي تجني الرحيق، وتجمع غبار الطلع، وتصنع العسل، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل، وتحرس الخلية، وتقوم بتنظيفها، والمحافظة عليها، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

والمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة، فلكل سن من النحل عمل يقوم به، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمر آخر، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إليها الخلية، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول، وجني الرحيق وغبار الطلع والماء، ثم صنع العسل وتخزينه، ونلاحظ أيضاً أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها تتواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة.

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها، فتنظف هذه البيوت، وتعدها لأجيال أخرى، ولا تضع الملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن تتفحصها وتجدها نظيفة تماماً.

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية.

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها، كما تمدّ الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥-١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جانبي البلعوم، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي.

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران، ولكنها لا تذهب بعيداً، كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر إلى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة.

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن، ومن هذا الشمع تقوم النحلة باستخدام فكيها في هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والإتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم.

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل، وجلب الماء إلى الخلية، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة.

أجيال تذهب من النحل، وأجيال تأتي، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر.

سبحان الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والإتقان، إنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير.

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار، أو تحمل بها الماء، وتنقله إلى الخلية، والمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله، ولكنها في أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك.

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية، تسمى سلة الطلع، وجعل لها على الوجه الداخلي لرسغ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيداً لجمعه في سلة الطلع.

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها العلماء في النحلة، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن، وقد سماها العلماء (غدة ناسانوف) ، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة المميزة عن رائحة غيرها من النحل، وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعي ذلك، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة، فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة، وعندما مزج العلماء بطريقة علمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجه تعارف على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره.

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح،

وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حيّة، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة.

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل (وأوحى ربُّك إلى النَّحل أن اتَّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشَّجر ومما يعرشون - ثُمَّ كلي من كل الثَّمرات فاسلكي سبل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للنَّاس إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون) [النحل: ٦٨-٦٩] .

وقد اهتدى المسلمون للمنافع العظيمة التي في العسل، ولكن الضالون عن هدى الله لم يكتشفوا ما فيه من المنافع إلا في هذه الأيام، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء، وهو غذاء من نوع راق، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض، ولا يزال العلم يكتشف في كل يوم في العسل نفعاً جديداً.

فهذا بعض ما يتعلق بحياة النحل داخل خلاياه .

وأما كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء، يقول الدكتور يوسف عز الدين: ﴿ لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدراً للغذاء، فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال، عن هذا الكنز الذي اكتشفه، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا.

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة، إذ إن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإنّ الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بُعد الحقل مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنّ حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس.

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أنّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله، فيطير باقي الأفراد، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنّ النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في المستعمرة عدداً من المعلومات برقصتها، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتاً لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية، ولكن النحل يفهم كلّ ذلك في الحال، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدراً من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها ﴾.

ومن عجائب النحل : رؤيته لوناً لا نراه نحن البشر، ولا يمكن أن نتصوره، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية .

ما الحكمة في ذلك ؟

الحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب.

والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، فلا يموت النحل جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، حقيقة مذهلة تدلّ على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم ما يصنع، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن، بل لا بد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل، إذ لو لم توجد من أول الأمر، لانقرض النحل في تلك المناطق منذ أمد بعيد ﴾.

{بعض ما يتعلق بهداية النمل}

العلامة ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر ما ذكر فيما يتعلق بهدايات النحل ذكر في { شفاء العليل } بعض ما يتعلق بهدايات النمل فقال رحمه الله تعالى :

وهذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك وهذا من أعجب الهداية وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} ثم قال: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت لا يحطمنكم سليمان وجنوده فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت {وهم لا يشعرون} فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها وإنه لموضع تعجب وتبسم ....ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال فرفعت

ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها قال فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا قال فعلت ذلك مرارا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا قال شيخنا ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ وقد حكيت له هذه الحكاية فقال : هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

قال ابن القيم : والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ قالت ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال أين زعمك أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي فعجب سليمان من شدة حرصها وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها : أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحلمه وتذهب به وإن كان أكبر منها فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى حجرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها وإن وجدتها شعيرا فلا ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة

نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه وجربنا نحن ذلك وأحمى صانع مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط.اه

قال يوسف عز الدين عما كشف العلم من أسرار النمل الأبيض :

ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجداً للخالق العظيم.

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض) ، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة، فإنّ هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض، وبذلك يسهم النمل في حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ إن التهام البيض يعتبر تغذية، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية.

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك، ولكنّها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء.

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها ـ أي بالنمل الأبيض ـ قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها، وانهارت في ليلة واحدة.

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها.

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى، وهي أقوى من الإسمنت المسلح، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض.

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إنها تفعلها عن طريق الإلهام المسمى الغريزة.

ولقد احتار العلماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب، فالخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم، وأخيراً اكتشفوا السر.

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها إفرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض.

ومن العجيب : أنه لم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما أمكنها الحياة، ولانقرضت منذ أول جيل من أجيالها، هل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم؟ ✤.

ومن عجائب النمل : أنه يربي المواشي ويفلح الأرض .

النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأناً، بينما لم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة.

إنَّ حشرات المن التي يطلق عليها أحياناً (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها. ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

ولا يعتني النمل بتربية ((المواشي)) هذه وحدها، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضاً، وكان طول الأرز نحو ستة ((سنتيمترات)) ، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنّ أحداً لا بد يعتني بها، فالطينة حول الجذور كانت مشققة، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة، والغريب أنّه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه، وإنّما زرعه زارع.

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه، فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له، تشغل كل وقته، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، وبعض آخر كان يزيل الأعشاب الضارة، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه، ثم يحملونه بعيداً عن المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمتراً، وكانت حبوب الأرز قد نضجت، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفاً من شغالة النمل لا ينقطع متجهاً نحو العيدان، فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرز، فتنتزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب، وتهبط بها سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض.

بل الأعجب من ذلك : أنّ طائفة من النّمل كانت تتسلق الأعواد، فتلتقط الحب، ثم تلقي به، بينما طائفة أخرى تتلقاه، وتذهب به إلى المخازن..

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء فوق الأرض، في هذه المدن نجد الخدم والعبيد.

بل الأعجب من ذلك : نجد الممرضات اللاتي تعني بالمرضى ليلاً ونهاراً، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل....

يفعل ذلك النوع من النمل كلّ هذا بدون تفكير، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة.اه

فهل وقع ذلك اتفاقا ؟! هل وقع ذلك مصادفة ؟! هل في النمل من عقل يفعل ذلك ويقوم به ؟!

{بعض ما يتعلق بهداية الهدهد}

العلامة الامام ابن القيم رحمه الله تعالى يذكر نوعا اخر من مخلوقات الله تعالى التي لها في كتاب الله ذكر وهو الهدهد فيتحدث عن هداية الله تعالى له فيقول :

هذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره

ومن هدايته : ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال {أحطت بما لم تحط به} وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال {وجئتك من سبأ بنبأ يقين} والنبأ هو : الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفا مؤكدا بأدلة التأكيد فقال {إني وجدت امرأة تملكهم} ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} وحذف أداة العطف من هذه الجملة

وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو : تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض .اه

فهذا أيضا طير من الطيور جعل الله تعالى له هذه الهداية الكاملة .

{بعض ما يتعلق بهداية الحمام}

قال العلامة الامام ابن القيم رحمه الله تعالى في عجيب هدايته إلى ما هداه الله إليه في حديث طويل ممتع يدل على أن التفكير في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقا لأمر الله لعباده قال رحمه الله :

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعي: ﴿أعقل الطير الحمام﴾ وبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها ـ أي بأنساب الحمام الذي هو برد الحمام الذي يقال له : الحمام الزاجل ـ اعتناء عظيما فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ويتعرفون صحة طرقها ومحلها ولا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ولا يحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماما ساقطا لم يخف عليهم حسبها

ونسبها وبلدها ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ويقولون : هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنا وأقوى بدنا وأحسن اهتداء وطائفة منهم يختارون لذلك الإناث ويقولون : الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها .

وهدايته على قدر التعليم والتوطين والحمام موصوف باليمن والإلف للناس ويحب الناس ويحبونه ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه ويعود إليه من مسافات بعيدة وربما صد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحه ثم يدنو من الأنثى فيهدر لها ويقبلها ويزفها وينتفش ويرفع صدره ثم يعتريه ضرب من الوله والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقدم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان فيعملان منه أفحوصة وينسجانها نسجا متداخلا في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة لئلا يتدحرج عنها البيض ويكون حصنا للحاضن ثم يتعاودان ذلك المكان ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعا آخر مشتقا ومستخرجا من طباع أبدانهما ورائحتهما لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تسقط من الفزع فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفراخ فأعاناه على خروجه فيبدآن أولا بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته علما منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء فتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتقاقها ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء فيزقانه بلعابهما المختلط

بالغذاء وفيه قوى الطعم ثم يعلمان أن طبع الحوصلة يضعف عن استمرار الغذاء وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية لتكون لها بعض المتانة فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو ويزقانه الفرخ ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ وهو يطلب ذلك منهما حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت وأنهما إن فطماه فطما تاما قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق ومنعاه ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب ثم يبتدآن العمل ابتداء على ذلك النظام والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها وفيه أخرى لا ترد يد لامس وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث وأخرى تركب من أول وهلة وأول طلب وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرا آخر منها إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره وأخرى تعمط الذكر وتدعوه إلى نفسها وأنثى تركب أنثى وتساحقها وذكر يركب ذكرا ويعسفه وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام وفيها من لا تبيض وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتة بمنزلة المرأة الحرة ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها تم ينتقل عنها إلى غيرها وكذلك الأنثى توافق ذكرا آخر عن زوجها وتنتقل عنه وإن كانوا جميعا في برج واحد ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿رأى حمامة تتبع حمامة فقال شيطان يتبع شيطانه﴾ ومنها ما يزق فراخه خاصة ومنا ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس لئلا يعرض لها من يصدها ولا يرد مياههم بل يرد المياه التي لا يردها الناس ومن هدايتها أيضا أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده وأي نوع من الأنواع ضده فيخالف فعله ليسلم منه ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب وبين الرخم

والبازي وبين الغراب والصقر فيعرف من يقصده ومن لا يقصده وإن رأى الشاهين ـ وهو الطير الجارح ـ فكأنه يرى السم الناقع وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب والحمار عند مشاهدة الأسد .

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى وجلب القوت والرزق على الذكر فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم والأم هي التي تحبل وتلد وترضع ومن عجيب أمرها : أن رجلا كان له زوج حمام مقصوص وزوج طيار وللطيار فرخان قال : ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما قال فحبسني السلطان فجأة فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام ولم أشك في موتهما لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة وليس عندهما ما يأكلان ويشربان قال فلما خلى سبيلي لم يكن لي هم غيرهما ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ووجدت المقصوص على أحسن حال فعجبت فما لبث أن جاء الزوج الطيار فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين فزقاهما كما يزقان فرخيهما .

{بعض ما يتعلق بهداية الثعلب}

ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله من عجيب صنع الله وهدايته للثعلب : أنه إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه ثم عمد إلى ماء رقيق فنزل فيه قليلا قليلا حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج ومن عجيب أمره: أن ذئبا أكل أولاده وكان للذئب أولاد وهناك زبية ـ وهي : الرابية لا يعلوها الماء ـ فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سردابا يخرج منه ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه وهو

يتبعه فألقى يعني الثعلب نفسه في الزبية ثم خرج من السرداب فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية .

ومن عجيب أمره : أن رجلا كان معه دجاجتان فاختفى له وخطف إحداهما وفر ثم أعمل فكرة في أخذ الأخرى فتراأى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر فظن الرجل أنها الدجاجة فأسرع نحوها وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب .

ومن عجيب أمره : أنه أتى إلى جزيرة فيها طير فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئا فلم يطق فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع الطير منه فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها فعاد الثعلب لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى تواظب الطير على ذلك وألفته فعمد إلى جرزة ـ وهي : الحزمة من القت ونحوه ـ أكبر من ذلك الضغث فدخل فيها وعبر إلى الطير فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله فلم تنفر منه فوثب على طائر منها وعدا به .

ومن عجيب أمر الثعلب : إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة فتتداوله الطير فلا يظهر حركة ولا نفسا فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمها ضمة الموت ومن عجيب أمر الثعلب : أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره لأجل شوكه فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه فإذا أصابه البول اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه .

ومن عجيب أمر الثعلب : أنه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم .

ومن عجيب أمر الذئب : أنه عرض لإنسان يريد قتله فرأى معه قوسا وسهما فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه وأقبل نحو الرجل فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه وعاين نفاذ سهامه فصادف من استعان به على طرد الذئب .

ومن عجيب أمر الثعلب : أنه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم .

{بعض ما يتعلق بهداية القرود وغيرها}

من عجيب أمر القرود : ما ذكره البخاري في { الصحيح } عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: «رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ .

ومن عجيب أمر الفئران : أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلا الجرة فنقص وعز عليها الوصول إليه ذهبت وحملت في أفواهها ماء وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة .

ومن علم الدب إذا أصابه كلم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ .

هذا كله ماذا ؟! هذا كله من الهداية التي جعلها الله رب العالمين في المخلوقات من العناية بخلق الله رب العالمين .

هذا الذي ذكره الامام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى قليل من كثير في ذلك الكتاب العظيم وهو { شفاء العليل } وكذلك ذكر بعض الحكمة فيما يتعلق بالخلق جملة على ترتيب أصنافها فيما ذكر وكذلك في الأعضاء الإنسانية والحكمة التي استجلاها من خلقها على النحو التي هي مخلوقة عليه ذكر ذلك رحمه الله تعالى في كتابه العجاب { مفتاح دار السعادة } فأطال في ذلك وأطاب رحمه الله رحمة واسعة .

هذا كله إنما كان لاستجلاء بعض الحكمة الإلهية في هذا الخلق الإنساني وهو يتكلم عن الحكمة والتعليل أن الله رب العالمين لم يخلق شيئا الا لحكمة فليس في هذا الكون كله من شيء مخلوق الا على مقتضى الحكمة خلق وعلى مقتضى العلم وجد والله رب العالمين هو العليم الحكيم وهو سبحانه وتعالى القادر القدير المقتدر وهو على كل شيء قدير .

فأمثال هذه الأمور ينبغي على المسلم قبل الملحد قبل الشاك قبل المشرك أن يتأمل فيها فهؤلاء أئمتنا عليهم الرحمة اعتنوا بأمثال هذه الأمور هذه العناية الفائقة و لو تأملت في كلام العلامة ابن

القيم في أمثال هذه المسائل فكأنما يخامرك حينئذ كثير من الظن أن هذا الرجل قد ضرب بسهم وافر في جميع علوم عصره فكان طبيبا صيدلانيا وكان عالما من علماء الطيور عالما من علماء الحيوان عالما من علماء الحشرات رحمه الله رحمة واسعة .

هذا مما ذكره رحمه الله تعالى في هذا الكتاب وكله من دليل العناية الذي يستدل به العلماء رحمهم الله تعالى على وجود الخالق العظيم الذي لم يخلق شيئا سدى ولم يترك الناس في الأرض بغير هداية وعناية ورعاية أرسل اليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وهدى كل مخلوق لما به قوام حياته فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

{ تتمة الكلام عن دليل العناية }

مر في دليل الكون ودليل الآيات أن حدوث الأشياء إنما هو دليل على حاجتها إلى خالق يخلقها .

والحدوث : صفة كل ما في الكون من مخلوقات لذلك كان كل منها اية وعلامة دالة على خالقها .

وأما في دليل العناية : فان الصفة التي نستدل بها على وجود الخالق هي في علاقة هذه المخلوقات بعضها ببعض أو في علاقة أجزاء الواحد منها ببقية الأجزاء .

ان كل متأمل للمخلوقات يرى أنها ليست كومة عشوائية من الموجودات بل هي مرتبة ترتيبا ومصممة تصميما وراءه غاية تدل على أن لها صانعا عالما حكيما يتجلى هذا التصميم في الاحكام الذي يجعل كل مخلوق أو كل جزء من مخلوق مصنوعا بطريقة وموضوعا وضعا يجعله محققا لهدف والذي يجعل حركة الخلق حركة متسقة لا يعطل بعضها بعضا والذي يجعلها أنواعا متشابهة تشابها دقيقا والذي يجعل القوانين التي تحكمها قوانين واحدة لا تختلف مهما اختلف الزمان أو المكان اللهم الا إذا أراد الله لها أن تتخلف تخلفا يكون هو نفسه معجزة دالة على الخالق الواضع لتلك القوانين .

في كتاب { الفيزياء ووجود الخالق } :

هذا الاحكام الدال على أن للمخلوقات خالقا مريدا عليما حكيما هذا الاحكام تنبهنا إليه كثير من آيات القران الكريم { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)} هذه الآيات لا تقول لنا : ان هناك أرضا وجبالا وبشرا ونوما وليلا وسماء وشمسا وماء ونباتا وجنات ألفافا هذه كلها أمور نشهدها ونشاهدها ونعرفها وكل إنسان كافرا كان أو مؤمنا يسلم بها وإنما تدعونا الآيات إلى أن نفكر في الصلة بين كل واحد من هذه المخلوقات والأحوال وبين شيء اخر هو الإنسان المخاطب بهذا الكلام تدعونا الآيات إلى أن نلاحظ أن كل واحد من هذه الأشياء والأحوال يحقق بالنسبة لنا نحن البشر هدفا وهذا لا يمنع أن تكون لها غايات أخرى لا نعلمها فالأرض هذا المكان الذي نعيش فيه جعل لنا مهادا أي : فراشا كما جاء في اية أخرى والمقصود أنها جعلت مناسبة لحاجتنا مناسبة الفراش لصاحبه من حيث اللين والسعة والوقاية فكأن الاية تقول لنا : انه إذا كانت صناعة الفراش تدل على أن إنسانا عاقلا صنعها وأنه لم يأت اتفاقا فمن الأولى أن تدل صناعة الأرض بهذه الطريقة المناسبة لمعاشكم على أن لها صانعا حكيما {والجبال أوتادا } فكما أن الوتد الذي تصنعونه ليس مجرد قطعة من الخشب مغروسة في الأرض بل هو مصنوع ومغروس بهذه الطريقة ليؤدي غاية فكذلك الجبال ليس مجرد نتوآت في الأرض بل ان لها وظيفة متعلقة بالأرض ومن ثم بحياتكم {وخلقناكم أزواجا } لكي يستمتع بعضكم ببعض ولكي تنجبوا أطفالا تستمتعون بهم ولكي يحفظ جنسكم البشري { وجعلنا نومكم سباتا } تنقطع فيه حركتكم وترتاح فيه أجسامكم وتبرد أعصابكم وتتخلصون به من كثير من الهموم والمشكلات النفسية والليل والنهار انهما ليسا مجرد ظواهر فلكية نتجتا مصادفة عن حركتي الشمس والأرض بل ان لهما خالقا جعلهما بهذه الطريقة خدمة لكم ففي الليل ترتاحون وفي النهار تكدحون وحتى تلك الأفلاك البعيدة عنكم لها تعلق بكم فكما أن الأرض لكم فراش فالسماء لكم بناء أي سقف والشمس سراج يمدكم بالنور والحرارة اللتين لا تكون بدونهما حياة بشرية ولا حيوانية ولا نباتية {الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء }{

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)}{ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)} إذا كان كثير من الناس يغفلون عن الحكمة في خلق ما مضى ذكره من ظواهر وأحوال فلا يكاد أحد ينظر إلى الغيث على أنه مجرد ماء نازل على الأرض من السحاب بل انهم ليدركون صلتهم به وحاجتهم إليه فبه ينبت الزرع الذي يأكلون منه كما تأكل أنعامهم التي يعيشون عليها .

ان ميزة الأدلة القرآنية أن دلالتها ليست قاصرة على أن للكون خالقا بل تتضمن الدلالة على أن هذا الخالق هو وحده الذي ينبغي أن يعبد ويشكر ولا يكفر بل ان بعضها كما هو الحال هنا في الآيات ليتضمن الدلالة على أن بعد هذه الحياة حياة أخرى يلقى فيها المحسنون جزاء احسانهم ويعاقب فيها الظالمون على ظلمهم .

ان بعض المنكرين لوجود الخالق المستكبرين عن عبادته يذهبون كل مذهب في إنكار هذا التناسق العجيب في المخلوقات لما يعلمون من دلالته على وجود الخالق ووجوب عبادته وهم حتى يعترفون به يتعلقون بأوهى النظريات التي تفسره تفسيرا ينفي عنه القصد ويجعله أمرا حادثا بالمصادفة فهذا هو دليل العناية وقد مر ذكر كثير من الأمثلة عليه فيما يتعلق بالناس وما يتعلق بكثير من الأحياء بل من الموجودات.

{ الدليل الخلقي ودلالته على وجود الله جل وعلا}

يلحق بدليل العناية : الدليل الخلقي فالقيم الخلقية قيم الصدق والأمانة والوفاء وغيرها قيم ضرورية لوجود المجتمعات البشرية انها قيم لا يقوم بدونها مجتمع ولذلك قال بعضهم : انها ملاط المجتمع الذي يمسك أفراده كما يمسك الملاط اللبنات التي يتكون منها البناء .

انه بغير هذه القيم لا يكون علم حتى بأمور الدنيا ولا يكون اقتصاد ولا تكون علاقات اجتماعية تصور مجتمعا لا يرى بالكذب بأسا ولا يعده مذمة فالناس فيه كلهم كذابون وليس من شرط الكذاب ألا يصدق أبدا بل هو يصدق إذا رأى الصدق له ويكذب إذا رأى الصدق عليه هل يكون في هذا المجتمع الذي خلا من الصدق علم ؟! لا يكون فان من ضرورات العلم : الصدق في الرواية فإذا ادعى إنسان في مثل هذا المجتمع الذي عم فيه الكذب أنه اكتشف في مخبره حقيقة ما فاننا لن نصدقه لأننا لا نعلم ان كان صادقا أو كاذبا بل سنقطع بكذبه إذا وجدنا أن هذه الدعوى تخدم غرضا له ولن تكون هنالك كتب ولا دروس ولا محاضرات ولا مدارس ولا جامعات ما الفائدة من قراءة كتاب لا أعلم ان كان صاحبه صادقا أو كاذبا ؟ ولا أستطيع أن أستعين بغيري لأنه هو الاخر قد يكذب علي وقل مثل ذلك عن المدرسين والمحاضرين وقل مثله عن رواة الأخبار في سائر وسائل الاعلام وقل مثله عن التجار والزراع والصناع كيف تتعامل مع أي من هؤلاء إذا كنت لا تدري أصادق هو أم كاذب فيما يدعيه لك من ثمن بضاعة أو جودة محصول أو احكام صنعة ؟!

إذن فالصدق ليس فضيلة خلقية فحسب بل هو ضرورة اجتماعية أيضا وعليه فكلما كثر عدد الصادقين في المجتمع كان المجتمع أقوى تماسكا وأدعى لأن تزدهر فيه العلوم والتقنية والاقتصاد إذا ما توفرت شروطها الأخرى وكلما تفشى الكذب بين حكامه وولاة أمره وعلمائه وتجاره وزراعه وصناعه كان أكثر تمزقا وأقل تطورا في تلك الأمور كلها فالصادقون إذن يسدون إلى المجتمع خدمة هي من ضرورات وجود المجتمع والكذابون من معاول تقويض المجتمع لكن مشكلة الأخلاق في حياتنا الدنيوية هذه هي أن الصادق قد لا يجد جزاء صدقه بل قد يكون صدقه سببا في خسارة مالية أو فقدان مكانة اجتماعية بل قد يوقعه الصدق حتى في عقوبات جسدية والكاذب لا يعاقب دائما على كذبه بل قد يكون كذبه وسيلة إلى كسب مالي أو نيل منصب اجتماعي أو تفادي أذى جسدي ولو لا ذلك ما كذب إنسان .

فالمشكلة إذن هي أن الذين ينفعون المجتمع قد يضارون ماديا بينما الذين يضرون قد ينتفعون ماديا فإذا لم يكن هنالك من خالق يرى ويسمع ما يفعل البشر واذا لم يكن هنالك من دار أخرى يثيب الله فيها المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته وكان الكسب المادي في هذه الحياة الدنيوية هو وحده الكسب المعتبر لكان الصادقون الأمناء الموفون بعهودهم هم المغفلين الذين لا عقل لهم ولكان الكذابون الخونة هم العقلاء لكن العقل يقول : ان الأمر لا يمكن أن يكون كذلك لا يمكن أن يكون العقلاء هم الذين يقوضون المجتمع والمغفلون هم الذين يبقونه متماسكا لو كان الأمر كذلك لكانت اللاعقلانية أصلا أصيلا في بنية هذه الحياة الدنيوية ولكانت هذه الحياة لذلك كلها عبثا لكن ما من عاقل يمكن أن يقبل نتيجة كهذه لأن فيها من بين ما فيها تقويضا لأهم مبدأ تقوم عليه علومنا الكونية كلها .

ان هذه العلوم كلها تقوم على اقتراض المبدأ المسمى بتناسق الطبيعة المبدأ الذي يقول : ان قوانين الطبيعة لا تتخلف وانه لذلك يمكن أن تدرس دراسة علمية بل رياضية فكيف يكون هذا الكون في جانبه المادي عقلانيا وفي جانبه البشري متناقضا مع المبادئ العقلية ؟!

وهناك تناقض اخر يؤدي إليه الإلحاد بالنسبة للقيم الخلقية .

ان الناس مفطورون على أن هذه القيم قيم يحسن بهم أن يلتزموا بها فهي جزء من تكوينهم العقلي وهم يشعرون لذلك وما داموا محتفظين بفطرتهم يشعرون بالسعادة حين يصدقون الحديث ويؤدون الأمانة ويوفون بالعهد ويشعرون بالشقاء حين يكذبون أن يخونون وينكثون فالملحد الذي يريد أن يتصرف وفق ما يقتضيه إلحاده يمر بحالات يشعر فيها بالتمزق بين وازعه الداخلي وتفكيره العقلاني فبينما يقول له الوازع الداخلي : اصدق فهذا أكثر راحة لنفسك وأسعد لقلبك يقول له فكره : لكنك تعتقد أنه ليس وراء هذه الحياة من حياة والصدق في هذه الحال يفوت عليك لذة عاجلة ففيم التضحية بها وأنت لا تنتظر أخرى بعدها اجلة ؟!

يقول بعض من يسمع مثل هذه الحجة : لكن الواقع ما كل الملحدين كذابون ولا كل المؤمنين صادقون فقد يصدق الملحد وقد يكذب المؤمن .

والجواب : أجل ان هذا لا يحدث لكن الملحد حين يصدق يتناقض مع مقتضيات مبدئه أي أنه لا يصدق صدقا يفوت عليه مصلحة الا حين يتخلى مؤقتا عن مبدئه أو عن عقله أما المؤمن : فلأمر بالنسبة له عكس ذلك تماما فهو حين يكذب يكون قد سلك سلوكا يتناقض مع مبدئه ومع عقله وحين يصدق يكون موافقا لهما ولفطرته .

وعليه : فانه كلما كثر عدد الملحدين واشتد اقترابهم من مقتضيات مذهبهم فان الكذب عندهم سيزداد لا محالة وكلما كثر عدد المؤمنين واشتد استمساكهم بدينهم ازداد عدد الصادقين منهم لا محالة .

يقول بعض المتحذلقين من الفلاسفة :

انه لا معنى للسلوك الخلقي الا أن تضحي مثل هذه التضحية التي لا ترجو لها ثوابا وأنك إذا عملت الخير رجاء الثواب كما يفعل المتدينون لا يكون سلوكك هذا سلوكا خلقيا بل تجاريا لكن هؤلاء ما علموا أن التضحية المطلقة أمر يتنافى مع العقل الذي يسير عليه الناس في حياتهم الدنيوية كلها والا لو كانت مثل هذه التضحية مما يدعو إليه العقل لكان أعقل الناس هم الذين لا يسعون لنيل لذة ولا يعملون مما يؤدي إلى اتقاء الأذى فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتقون حرا ولا

بردا ولا خطرا واذا كان هذا غير سائغ عقلا فلماذا يسوغ في حالة السلوك الخلقي ؟ وما الفرق بين هذا السلوك وغيره من أنواع السلوك ؟

قد يقال : ان الفرق هو ما ذكرته أنت نفسك انفا من أن في الإنسان وازعا داخليا يدعوه إلى السلوك الخلقي .

فنقول : هذه هي المشكلة كيف نوفق بين هذا الوازع الداخلي الذي يدعونا إلى مكارم الأخلاق والعقل الذي يدعونا إلى تحصيل ما ينفعنا ودرء ما يضرنا ؟! انه لا حل عند الملحد فان إلحاده يوجب عليه اما أن يكون داعيا إلى نبذ الأخلاق أو أن يكون داعيا إلى نبذ العقل وكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

كيف يحل الدين هذا الاشكال ؟! يقول الدين الحق : نعم ان الأخلاق من الخير الذي فطر الله عليه عباده ولكن هذه الأخلاق نفسها تقتضي أن يثاب المحسن على احسانه وأن يعاقب المسيء على اساءته ولكن هذا لا يتأتى في دار الدنيا هذه كما هو مشاهد ولا يمكن إذن الا أن يتأتى في حياة أخرى بعد هذه الحياة ولا يتأتى في تلك الحياة الثانية الا إذا كان هنالك اله عليم حكيم عادل يعلم ما يعلم الناس الآن ليجازيهم عليه غدا فالمؤمن يعمل الخير لأن الله فطره على حبه ويعمله لأن الله يثيبه على فعله ولا تناقض بين الأمرين لأن اثابة المحسن هي نفسها مبدأ خلقي فاثابة المحسن نفسها مبدأ خلقي .

ذكر تعالى ما أعده لعباده الصالحين فقال { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)}ثم ختم ذلك بقوله { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)}.

فاثابة المحسن هي نفسها مبدأ أخلاقي .

السؤال هاهنا { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)} سؤال استنكاري فكأن الاية تقول : ان هذا هو الأمر الذي تدلكم عقولكم على أنه ينبغي أن يكون فكيف تتوقعون غيره ؟!

لا شك أن الدليل الخلقي هو فرع عن دليل العناية لأن فحوى هذا الدليل الخلقي : أن الكون فيه من التناسق والعناية ما يدل على أن له مبدعا حكيما والحكيم لا يفعل شيئا عبثا لكن عدم وجود دار الآخرة يلقى فيها المحسن ثواب احسانه والمسيء عقاب اساءته هو مما يتناقض مع تلك الحكمة وهذا الاحكام .

فهذا الذي مر ذكره مما يتعلق بالعناية يمت بصلة وثيقة إلى هذا الدليل الخلقي فمما لا يخطئه الناظر المتمعن لاسيما الناظر في القران الكريم : أنه يجد في الكتاب العزيز عدة آيات تدعو إلى التفكر في الكون لمعرفة أن له خالقا حكيما ينبغي أن يعبد وحده وألا يعبد غيره معه مما لا يخلد ولمعرفة أنه لم يخلق عبثا ولا لعبا ولا باطلا وإنما خلق بالحق أي من أجل غاية وانك لتجد في أكثر تلك الآيات أو في سياقها ربطا بين نفي البطلان واللعب والعبث عن خالق الكون وبين أنه لا بد أن تكون هناك دار اخرة أي : انه لو لم تكن اخرة لكان خلق هذا الكون كله عبثا وباطلا ولعبا ولم يكن حق لأن هذا يتنافى مع الاحكام الذي فيه ومع ما يدل عليه هذا الاحكام من كونه مخلوقا لخالق حكيم .

ان الخالق الحكيم لا يخلق خلقا فيأمرهم وينهاهم ثم يجعل مصير الذين استجابوا لرسله فعملوا صالحا كمصير الذين تمردوا عليهم وخاضوا في كل فعل قبيح فالاخرة إذن ضرورة خلقية وتأمل في هذه الآيات وانظر كيف جعلت الاحكام في خلق الله دليلا على ضرورة وجود دار اخرة

قال تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) } تأمل كيف ربطت الاية بين خلق السماوات والأرض بالحق وبين عدم الظلم وتأمل كيف ربطت الاية التالية بين عدم خلقها باطلا أي : عبثا وبين مساواة المحسنين بالمسيئين قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) }.

ان أولي الألباب أولئك الذين يتفكرون في الأمور ويستدلون بها الاستدلالات الصحيحة لا أولئك الذين يدعون العقلانية وهم من أبعد الناس عن الالتزام بمقتضيات العقول هم الذين يتدبرون في كون الله المخلوق وفي كتابه المقروء وفي آيات الله الكونية وآياته الكلامية فيصلون بفكرهم المستقيم إلى الحق ويلتزمون بمقتضياته .

هذه المعاني تتكرر في آيات كثيرة من آيات الكتاب العزيز .

قد يقال : ان هذه الحجة إنما تصلح لإنسان يؤمن بالخالق وينكر وجود الدار الآخرة لكننا هنا بصدد إنسان ملحد ينكر وجود الخالق والله رب العالمين يقول { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) } فهذه الاية فيها أمران من ناحية تخاطب من يقر بوجود الخالق وينكر البعث ولكنها من ناحية أخرى تدل على أن احكام الخلق وما فيه من تناسق وعناية من بينها وجود قيم خلقية لا تصلح مجتمعات الناس الا بها يتنافى مع عدم وجوده دار اخرة ولكن إذا كانت هنالك دار اخرة ولم يكن هنالك اله شهيد على الناس في هذه الحياة الدنيا كي يجازيهم عليها في تلك الدار لم يكن لها من فائدة بل صار الأمر فيها كالأمر في هذه الحياة الدنيا فالاخرة إذن ضرورة خلقية ولو شئت لقلت : هي ضرورة عقلية لأن المبادئ الخلقية هي من بين الموازين التي فطر الله عليها العقول لقياس الأمور وتقويمها فالذي يتنافى مع الأخلاق يتنافى مع هذا العقل الفطري واذا قرر الله تعالى أمرا في صيغة سؤال استنكاري فانه يدل على أن الأمر معروف لا ينبغي أن ينكر أو يخالف .

ومما يدخل في هذا : ما كان معروفا في هذا العقل الفطري .

تأمل هذه الآيات كيف تستنكر أن يكون مصير المحسنين كمصير المسيئين سواء بسواء لأن هذا مما يتنافى مع تلك المبادئ الخلقية العقلية الفطرية وعليه : فلا بد من دار اخرة يستقيم فيها هذا الأمر قال تعالى :{كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} وقال تعالى :{

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) } .

هنالك مشكلة أخرى تتعلق بالقيم الخلقية : انه لا مكان في الفيزياء مثلا ولا في غيرها من العلوم الطبيعية للقيم الخلقية أو للقيم الجمالية أو غيرها من القيم ذلك أن مجال هذه العلوم إنما هو الكائنات الطبيعية لكن الناس لا يكفيهم في حياتهم علمهم بالطبيعة مهما ازداد وعظم انهم يحتاجون مع هذا إلى قيم يهتدون بها في معاملاتهم واذا حلت العلوم الطبيعية محل الدين كما يريد لها الملحدون في عصرنا واذا حصر الحق فيها وفي ما يأتي عن طريق هذه العلوم الطبيعية فأنى يجد الناس تلك الهداية التي هي من ضرورات حياتهم .

ان كثيرا من ملاحدة العلماء الطبيعيين يعترفون بهذه المشكلة لكنهم لا يذكرون لها جوابا ينقل تيلر عن عالم الأحياء البريطاني ميداور وهو ملحد مثله ينقل عنه قوله : ان الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالبدايات والنهايات أمر خارج منطقيا عن مقدرة العلم الطبيعي لكنه يعلق على هذا بقوله :

ان هذا مسلك يصعب قبوله فما زالت هناك فجوة في حياة أناس كثيرين بسبب انعدام الغاية هذه .

لقد كتب العالم النفساني يونك : انه لم يكن من بين كل مرضاي الذين هم في النصف الثاني من عمرهم بعد سن الخامسة والثلاثين لم يكن من بينهم أحد لم تكن مشكلته في النهاية هي الظفر بنظرة دينية إلى الحياة.

ثم ينقل عن صحفي معاصر يقول عنه : انه ابن لأحد الفيزيائيين ينقل عنه قوله :

ان العلم الطبيعي ليس سلعة محايدة أو بريئة يمكن أن يستخدمها الناس للاستفادة منها بحيث انهم لا يريدون الا أن يكون لهم نصيب من قوة الغرب المادية ان هذا العلم الطبيعي مدمر روحيا مود بكل المرجعيات والتقاليد القديمة وبعد أن يودي بكل منافسيه يبقى السؤال : أي نوع من الحياة تلك التي يقدمها العلم الطبيعي لأهله ؟ ماذا يقول لنا عن أنفسنا ؟ وكيف نحيا ؟ ثم قال : ليس هناك من جواب جاهز عن هذا السؤال .

الذين يريدون أن يحل العلم المادي مكان الدين إنما يسعون إلى تدمير الإنسانية إلى تدمير هذه الحياة إلى تدمير هذا الوجود لأن الناس لا يمكن أن يحيوا على العلم المادي وحده لأنه كما مر ليس سلعة محايدة ليس سلعة بريئة يمكن أن يستخدمها للاستفادة منها قوم لا يريدون الا أن يكون لهم نصيب من قوة الغرب المادية .

ان العلم المادي مدمر روحيا مود بكل المرجعيات والتقاليد القديمة وبعد أن يودي بكل منافسيه يبقى السؤال : أي نوع من الحياة تلك التي يقدمها العلم الطبيعي لأهله ؟ ماذا يقول لنا عن أنفسنا ؟ وكيف نحيا ؟ إذا لم يعطنا الطريقة التي نحيا بها وهو لا يعطينا من ذلك شيئا وليس هنالك من سؤال يمكن أن يكون له اجابة جاهزة على هذا النحو المذكور .

الإنسان من أعظم ما خلق الله لذلك كان أبدع ما يعرف الله به فبقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه وأهم شيء في الإنسان : صفاته الأساسية التي لا يمكن تعليلها الا بأنها قبس من أمر الله جل وعلا ثم أخلاق الإنسان والصفات الأساسية للإنسان : العلم والإرادة والقدرة .

المادة لا تعرف نفسها ولا تعقل غيرها .

المادة لا يمكن أن يكون لها خيار .

قدرتها قدرة محدوة باطار .

أما الإنسان : فيعلم ويريد تبعا لهذا العلم وقدرته تنفذ في ضوء هذه الارادة .

ان استعداد الإنسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود إذ الإنسان وحده من هذه المخلوقات التي نراها عنده استعداد ليعرف كل شيء : يحلل ويركب ويقايس ويعلل ويقبل ويرفض ويتصور ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولا في ضوء معلوم ويرسم للحياة طريقا أو طرقا ويبني حضارة أو يهدمها .

ويتبع ظاهرة العلم ظاهرة التعبير حين يعبر الإنسان عن كل هذا تارة أدبا وأحيانا كلمة بهدوء أو بشدة بعاطفة أو بعقل .

ان علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله قال تعالى : { الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)} وقال تعالى : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} .

المادة لا تريد بل هي خاضعة لارادة وهذه الارادة لا تتغير ولا تتبدل سننها .

الحيوان ان كانت له ارادة فهي ارادة غريزة ضمن أطر معينة : اطار الحياة أو الموت اطار الرزق أو السفاد .

أما ما عدا هذا : فهو في بهيمية غامضة لا يعرف معنى الارادة حين يريد ولكن الإنسان عنده طاقة ارادة يرجح بها بين المتقابلين ويختار من بين الضدين كلامه بارادة وحركته بارادة وعلمه بارادة .

ان الإنسان وحده يملك حرية الاختيار بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس يختار الكذب فيكذب ويختار الصدق فيصدق ويختار الخراب فيخرب والاعمار فيعمر .

طاقة هائلة من الارادة يرافقها طاقة هائلة من القدرة .

انه بقدر ما أعطي الإنسان من طاقة ارادة أعطي قدرة ومظهر هذه القدرة : امكانية التسخير والاستفادة من كل شيء .

انه يستطيع أن يستنبت الأرض إذا لم تنبت وأن يحصد إذا زرع وأن يركب متن الريح والماء وأن يأكل لحم الطير والسمك وأن يستخرج من كل شيء ما ينفع نفسه وأن يترك من كل شيء ما يضره .

ان علم الإنسان وارادة الإنسان وقدرة الإنسان تدل بشكل واضح على تميز الإنسان على المادة والمادة لا يمكن أن تعطيه علما ولا ادراكا ولا قدرة ولا ارادة بل الله وحده هو الذي يملك أن يعطي الإنسان هذا

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}{ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) }{ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) } .

فهذا كله يتعلق بعلمه وإرادته وقدرته .

وأما الأخلاق ؛ فإنها تلك المشاعر التي تنتج سلوكا ، ومحل هذه المشاعر : عالم النفس عند الإنسان ، إنها عالم كامل لا نعرف عنه إلا أثارة نحسها في أعماقنا ، وتظهر تارة على صفحات وجوهنا أو على ألستنا أو على جوارحنا .

مشاعر الرحمة والقسوة ، مشاعر العفو والانتقام ، مشاعر الذلة والعزة والعدل والظلم والأمن والخوف والحرب والسلم والغضب والحلم والجبن والشجاعة والكبر والتواضع والجبروت واللين والهداية والضلال والقبض والبسط والانخفاض والارتفاع والتجمع والتفرقة والحب والبغض ، ومشاعر الحقد والغل والكراهية والحسد والإحساس بالجمال والإخلاص للمثل ، ومشاعر تفيض بها النفس كأنها أمواج بحر كبير .

نساء فنبكي ، ونسر فنضحك ، ونحب ونبغض من أحببنا ، ونرجو ونيأس .

إنها النفس أغمض ما في الإنسان .

أن تجمع بروتينات والكترونات لا يكون إحساسات خلقية .

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)} .

إن على الإنسان ألا يخدع نفسه ؛ فلو فكر الإنسان بعمق ونظر وإنصاف من نفسه ؛ سواء كان عالما أو جاهلا ؛ فماذا يرى ؟

إن الله تعالى يخاطب الإنسان في القران { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذي خلق .

وجود النفس نفسه آية ، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية ، وعدا هذا ففي النفس آيات أخرى تدل على أن هذا الكون فيه عجائب ليست بمادية .

إن نشأة الحياة دليل على الله ، وتعقيدات الحياة دليل على الله ، وتنوع الأحياء دليل على الله ، ومركز الإنسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله .

وفي النفس البشرية أخلاقها وعجائبها دليل على الله ، وهذا وحده كاف لتعرف به الله ؛ فكيف إذا اجتمع معه ما سبق ذكره ؟! وكيف إذا اجتمع مع هذا وحي يتنزل ومعجزات تتحدث ؟! وكيف

إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء أزكياء بررة ؟! فهل يبقى بعد هذا كله لكافر من حجة أو سبيل ؟! إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدي إلى البوار ثم إلى النار .

ألا لعنة الله على الكافرين الملحدين .

{ من الأدلة المادية على وجود الله }

{من الأدلة المادية على وجود الله : أن الْعدم لا يخلق شيئا}

الْعدم لا يخلق شيئا ولا يستطيع أن يصنع شيئا ؛ لأنه غير موجود ، وإذا ما تأملنا في المخلوقات التي تولد في كل يوم من إنسان وحيوان ، والتي توجد من نبات وظواهر يجعلها الله عز وجل في هذا الكون ، وتفكرنا في كل ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار وليل ونهار ، ونظرنا إلى ما يجري في كل حين من حركات منتظمة للشمس والقمر والنجوم والكواكب ، إذا تأملنا في هذا وغيره من التغيرات المحكمة التي تجري في الوجود في كل لحظة ؛ فإن العقل يجزم بأن هذا كله لا يمكن أن يكون من صنع العدم ؛ لأن العدم لا وجود له ، وإنما هذا كله من صنع الخالق الموجود سبحانه وتعالى .

قال جل وعلا : { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) } ، فالتفكر في المصنوع يدل على وجود الصانع ، بل وعلى صفاته ، فكل

شيء يوجد في المصنوع يدل على قدرة أو على صفة عند الصانع ، فلا يمكن أن يوجد شيء في المصنوع إذا كان الصانع لا يملك قدرة ولا صفة مكنته من فعل ذلك الشيء في المصنوع ، فضلا عن أن يكون هذا المصنوع وجد بغير صانع ، يعني : أنت إذا رأيت بابا من خشب قد أتقن صنعه ؛ فإنك ستعلم أن الصانع ملك هذا الخشب واستطاع أن يقطعه بانتظام وإحكام ، وجعله على هذا النحو بابا من الأبواب ، فهو قادر على أن يجعل الخشب أملس ، ويملك الأدوات التي يستطيع أن يفعل بها ذلك ، وهو يملك القدرة على تثبيت أجزاء هذا الباب بالوسائل الممكنة ، وأن لديه علما بصناعة هذا الأمر وله خبرة ، فإذا وجدنا ثقبا منتظما في الباب محلا للمفتاح ؛ شهد لنا ذلك بأن الصانع لديه قدرة على ثقب هذا الباب بهذه الدقة ، وأن لديه إحكاما في عمله ، وكذلك نجد كل شيء في المصنوع يدل على وجود صانعه ابتداء ، ويدل على قدرته ، ويدل على علمه وعلى إرادته ؛ لأنه يخصص هذا الممكن ببعض وجوهه الممكنة ، فلا يمكن أن يوجد شيء في المصنوع إلا إذا كان الصانع يملك قدرة أو صفة تمكنه على صنع ذلك الشيء .

كذلك لو أننا تفكرنا في المصنوع ؛ فإنه يدلنا على بعض صفات صانعه ، فمن هنا نعرف أن التفكر في المخلوقات يدل على بعض صفات الخالق ، قال ربنا جل وعلا : { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)

- وتصريفها : تقليبها في مهابها وأحوالها - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) } .

إذا تأملنا وتفكرنا في المخلوقات ؛ فستعلمنا آيات الله تبارك وتعالى فيها ببعض صفات الله جل وعلا ، قال تعالى : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } .

وقال تعالى : {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) } .

فهذا الخلق دليل مادي على وجود الرب تبارك وتعالى ، فإذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية على وجود الله جل وعلا ؛ فلا بد أن نبدأ بالخلق ؛ لأنه الدليل الذي نراه جميعا أمام أعيننا ليلا ونهارا ، ونلمسه لأننا نعيشه.

{من الأدلة المادية على وجود الله : الخلق}

هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولا قبل أن يخلق الإنسان ، وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها ، فلا أحد يستطيع أن يقوا : إن خلق السماوات والأرض قد حدث بعد خلق الإنسان ، بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هنالك أرض يعيش عليها ولا شمس تشرق عليه ، ولم يكن هنالك ليل ولا نهار ولا هواء يتنفسه ، إلى غير ذلك من مفردات هذا الوجود .

الإنسان جاء ، وكل شيء أعد له قبل أن يجيء أو يوجد ، بل إن هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت لتخدمه وتعطيه كل متطلبات الحياة بدون مقابل ، وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء ؛ ولكنها محتاجة إلى جهد الإنسان وعمله ، وذلك حتى تتم عمارة الأرض ، فإن الله عز وجل جعل الشمس تشرق على هذا الكون تمده بالطاقة ، وهي لا تميز بين مؤمن وكافر ، ولا بر فاجر ، وإنما هي مسخرة هذا التسخير بأمر الله جل وعلا ، وكذلك جعل الله جل وعلا الأرض مسخرة لفلحها وزراعتها ، ولكن هذا يحتاج إلى جهد إنساني وعمل ، فهذا وهذا مسخر ، والفرق بينهما ما مر ، ولكن لا أحد يستطيع باستخدام العقل وحده أن يجادل أن هذا الكون قد خلق وأعد لحياة الإنسان قبل أن يخلق الإنسان نفسه ، فإذا قال الله جل وعلا لنا : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) }؛ فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن ينكر أن الكون قد تم خلقه قبل خلق الإنسان ؛ فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق ؟!

ثم تأتي الآية وهي : قول الله جل وعلا : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } ، فتأكد أن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق ، وهذه قضية يأكدها العقل ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها ، فإذا وصلنا إلى هذه المسألة – وهي أن الله تعالى بكمال صفاته وقدرته قد خلق هذا الكون ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه ، ولا محتاج لأحد من عباده – ؛ وصلنا إلى أننا جميع – أي البشر – قد جئنا إلى كون معد لنا إعدادا كاملا ، ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا ، بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير ، فالشمس مثلا أقوى من قدرة البشر جميعا ، وكذلك الأرض والبحار والجبال .

إذا ؛ فلا بد أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بقدرة من خالقها وموجدها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولم تخضع لنا بقدرتنا نحن ، وإنما بقدرة الذي أوجدها ، خلقها لنا قبل أن يخلقنا ، فخلق الله السماوات والأرض ، وجعل هذا الكون مهيأ للإنسان على هذا النحو ، وخلق الإنسان ، فلا بد أن تكون قد أخضعت لنا من قبل من قبل من خلقها ؛ لأنها لا تخضع لنا بقدرتنا نحن ، فهي مسخرة لنا ، ولا تستطيع أن تعصي أمره .

الشمس لا تستطيع أن تشرق يوما وتغيب يوما على حسب هواها ؛ لتعطي الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريد وتمنعه عمن تريد .

الهواء لا يستطيع أن يهب يوما ويتوقف يوما .

المطر لا يستطيع أن يمتنع عن الأرض ، فتنعدم الحياة ويهلك الناس .

الأرض لا تستطيع أن تمنع نفسها عن إنبات الزرع .

لا تستطيع البشرية كلها أن تدعي أن لها دخلا في خلق هذه الأشياء ولا في مهمتها ولا في استمرارها في عملها .

فهذا كله لا يخضع لإرادة البشر ، فإذا جئنا إلى الإنسان ؛ وجدناه هو الآخر لا بد أن يشهد بأن له خالقا وموجدا ، فلا يوجد من يدعي أنه خلق إنسانا ، ولا من يدعي أنه خلق نفسه ، ولكن إذا جاء بعض الناس فقال : إن هذا الكون خلق بالمصادفة ؛ فهو مقر بأن له خالقا ، ولكنه ضل عن الحق في إثبات الخالق ، فادعى أن المصادفة هي التي أوجدت .

فيقال له : إن المصادفة لا تنشأ نظاما دقيقا كنظام الكون الذي لم يختل رغم مرور ملايين السنين .
وإذا جاء بعض الملحدين ليدعي أنه كانت هناك ذرات ساكنة ، ثم تحركت وتكثفت واتحدت إلى آخر ما يقولون ؛ فيقال لهم : ومن الذي أوجد هذه الذرات بدءا ؟!
ومن الذي حركها من السكون ؟!
ومن الذي حركها ؟! والعقل قاض بأنه لا يمكن أن يوجد متحرك بغير محرك ، ولا يمكن أن يوجد موجود بغير موجد ، ولا يمكن أن يكون خلق بغير خالق .
فإذا قيل : إن الحياة بدأت بخلية واحدة في الماء نتيجة تفاعلات كيمياوية ...إلى آخر ما يقولون ؛ فيقال لهم : ومن الذي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية ؟!!
هذه التفاعلات فيها دقة شديدة ، وفيها نظام محكم ؛ فكيف كانت على هذا النحو ؟! ومن الذي أنشأ هذا ؟! فضلا عن السؤال الأول ، وهو : من أوجد هذه الخلايا التي وقعت فيها تلك التفاعلات ؟!
والعاقل لا يدخل في جدل عقيم مع أمثال هؤلاء ، وإنما يقول لهم : إن من إعجاز الخالق : أنه أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا ، وأنبأنا أن هؤلاء مضلون ، أي ليسوا على حق ، ولكنهم على ضلال ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) } ، فهذا دليل على وجود الله ، وأنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، وأنه علام الغيوب ؛ لأنه أخبرنا عن هؤلاء المضلين قبل أن يوجدوا ، فذكر لنا أن هؤلاء سيقولون كلاما على هذا النحو الذي مر من ذلك الكلام الفارغ الذي يأتي به الملحدون .
إذا جاء بعض المضللين ليضل الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق الإنسان ، فيدعي مثلا أن الجد الأعلى للإنسان في آخر مراحل التطور الإنساني إنما هو القرد !!
فيقال له : أصله قرد ؛ فمن الذي أوجد القرد الأول ؟!
وكذلك من الذي أوجد الشجرة الأولى ؟ إنه الله ، فلا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم ، وهذا الدليل ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم على صورة أخرى كما في الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟» .

يعني : أنت الآن تريد أن تقول : إن هذه الإبل لما أصابتها العدوى إنما انتقلت إليها من هذا البعير الأجرب ، فلنتسلسل في هذا :

هذا البعير الأجرب من أجربه ؟ سيقول : بعير أجرب كان قبله .

فيقال له : ومن الذي أعدى الذي قبله ؟ إلى أن نصل إلى أول بعير على ظهر الأرض أصابه الجرب ، من أجربه ؟

وكذلك أنت إذا ما انتقلت إلى أنواع الموجودات ، الثمرة الأولى من كل فاكهة ، حبة القمح الأولى ، شجرة القطن الأولى ، من الذي أوجد هذه المسائل والأشياء أول مرة ؟

إنك تجد هذه وغيرها من كل ما تنتجه الأرض إنما هو من خلق الله جل وعلا ، خلقه الله عز وجل خلقا مباشرا ، ثم بعد ذلك استمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله عز وجل في الكون وهي من خلقه ، فالخلق كله له .

وهذه الأمور المبتدأة أول مرة ، من الذي أنشأها ؟ أنشأها الله رب العالمين ، ثم جعل لها أسبابا في استمرارها في هذا الوجود .

قد يقال مثلا : إن هنالك تهجينا أو تحسينا أو خلطا بين الأنواع لتنتج نوعا أكثر جودة على حسب قواعد الهندسة الوراثية كما هو في هذا العصر .

فيقال : هذا كله لا ينفي أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقا مباشرا من الله .

قد يدعي بعض العلماء أنهم حسنوا أو استنبطوا أنواعا جديدة .

فيقال لهم : هذا لا ينفي الوجود الأول من الله جل وعلا ، وإنما هم استخدموا ما خلق الله من العلم المتاح لهم من الله في كل ما فعلوه ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يدعي أنه أوجد أي شيء في الأرض من عدم ، فكل هذه الاكتشافات العلمية هي من موجود ، ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم ، وفي هذا أيضا وجه من وجوه الرد على الذين فتنوا أو ضلوا بسبب الاستنساخ ؛ لأنهم قالوا : إن الاستنساخ كأنه خلق وقد عرفنا سر الخلق ، فهم يأخذون خلية من الخلايا – ولو

كان من ميت مات من عشرات السنين – ، ومن معالجات معينة يتم التعامل مع هذه الخلية ، ثم بعد ذلك يمكن أن يزرع ما هنالك في رحم المرأة إلى أن يتم وضعها ، كما حدث في النعجة دلي ، وكما وقع في بعض الأجنة الإنسانية ، إلى غير ذلك ، وفتن الناس فتنة عظيمة وقالوا : لقد عرف سر الخلق ! أين هي المعرفة بسر الخلق؟! أنت أخذت ما خلقه الله فجعلته في الظروف التي خلقها الله ، وبالأدوات التي خلقها الله ، وغذيت ذلك بالغذاء الذي خلقه الله ، إلى أن وصلت إلى خلق الله ؛ فأي خلق هذا ؟!

ولكن دع هذا كله جانبا ، واخلق من العدم كائنا ، فهذا لا يستطاع ، وإنما أنت تأتي بما خلق الله لتتعامل معه بالعلم الذي جعله الله في رأسك ، وهو من خلق الله جل وعلا في أحوال نظمها الله رب العالمين ، وبأدوات خلقها الله رب العالمين ، ثم بعد ذلك تقول : إن هذه فتنة ؟!

ليست بفتنة ، وإنما هذا كله تعامل مع خلق الله رب العالمين .

لو أننا انتقلنا من النبات إلى الحيوان ؛ فكل الحيوانات والطيور والحشرات بدأت بخلق من الله سبحانه وتعالى ، وبخلق من ذكر وأنثى ، وهذه هي بداية الخلق جميعا ، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق من عدم ذكرا وأنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان .

الله عز وجل لفت أنظارنا وعقولنا إلى هذا الأمر الكبير في القرآن الكريم فقال : { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} ، بل إنهم يقولون : إن الزوجية موجودة على جميع المستويات ، حتى في الذرة ، ففي الذرة كهيرب سالب وشحنة موجبة تكون في النواة ، فإذا زاد عدد الكهيربات السالبة ؛ زاد ما يقابلها أيضا من هذه الشحنات الموجبة في أنوية الذرات ، فقالوا : الكون كله مبني على الزوجية ، ثم قال بعض أهل العلم : إن ذلك يدلنا على أن الله رب العالمين وحده هو الواحد الأحد ، وأما جميع الخلق ؛ فجعله الله زوجين زوجين : { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} ، حتى على مستوى الجمادات بهذا النحو الذي مر ذكره .

لم يأت أحد من المخترعين ليقول لنا أنه أوجد شيئا من عدم ، أو أنه خلق ذكرا وأنثى من أي شيء من الموجودات في هذا الكون ، وما أكثر الموجودات في كون الله جل وعلا ، لم يحدث هذا ، ولن يحدث أبدا ، وهنا تأتي حقيقة قرآنية عظيمة تتحدى الخلق أجمعين {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ

فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)} ، هذا هو التحدي الإلهي الذي سيبقى قائما إلى يوم القيامة .

لن يستطيع علماء الدنيا مهما بلغوا - ولو اجتمعوا على - أن يخلقوا ذبابة .

وضرب الله تعالى المثل بالذبابة وهي مخلوق محتقر ؛ ليدل على عجز هؤلاء الناس ، بل إن الأمر ترقى في التحدي إلى ما هو أعلى من ذلك ، فإن الله عز وجل أسقط عنهم الأمر بالتحدي هاهنا في مسألة الخلق فقال : { وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)} ، فإن الطيب الذي كانوا يضعونه على آلهتهم كان الذباب يحط عليه ؛ ليمصه بخراطيمه ، فتحداهم الله رب العالمين أن يستنقذوا هذا الطيب من الذباب الذي استلبه منهم ، { وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)} ، فهذا التحدي الإلهي الذي سيبقى قائما إلى يوم القيامة لن يستطيع علماء الدنيا – ولو اجتمعوا – أن يواجهوه ، ولا أن يقبلوه ؛ لأنهم – ولو اجتمعوا – لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة .

لقد وصل الإنسان إلى القمر – كما قيل - ، وقد يصل إلى المريخ كما يحاولون ، وقد يتجاوز ذلك ، كل هذا باب الاحتمالات فيه مفتوح ؛ ولكن الإنسان مع هذا التقدم التقني العظيم سيظل عاجزا عن خلق ذبابة ، فيا أيها الذين صنعتم ما صنعتم ، واخترعتم ما اخترعتم ، وجاوزتم ما جاوزتم في أجواز الفضاء ، وغصتم في الماء ، إلى غير ذلك مما وصلتم إليه ؛ لن تستطيعوا أن تخلقوا ذبابة ولو اجتمعتم على خلقها ، فالله رب العالمين لن يعطي أحدا القدرة على الخلق ؛ لأن الخلق لله رب العالمين وحده ، ولا أحد يمكن أن يخلق شيئا من العدم مهما صغر شأنه ، حتى ولو كانت ذبابة ، وهذا من إعجاز الله ؛ لأنه وحده الذي خلق كل شيء ، والعلم كاشف لقدرات الله تبارك وتعالى في الأرض ؛ ولكنه ليس موجدا لشيء ، ولذلك يقول القرآن الكريم : {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ} ، فمهما حاول الناس فإنما يحاولون في هذه البابة ، وهي أن يكتشفوا أسرار الله عز وجل في كونه ، أما أن يخلقوا – ولو ذبابة - ؛ فهم عن ذلك في أقمأ وأحط وأحقر درجات العجز ؛ لأن هذا لا يكون بحال أبدا ، فيثبت لنا بالدليل العقلي وبالقرآن الكريم أن الله

وحده هو خالق كل شيء ، وأنه تعالى على كل شيء قدير ، وتلحظ شيئا آخر وهو ما يتعلق بقدرة الله رب العالمين الطليقة ، فمظاهر طلاقة هذه القدرة هي المعجزات التي تخرق النواميس ؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل السنن الإلهية قائمة في كونه ، ولكنها مطردة إلا إذا خرقها الله رب العالمين بآية – أي بمعجزة – ، يؤيد بها رسله وأنبياءه ، فأنت تعلم أن الله تبارك وتعالى جعل قانون الماء على الاستطراق ، فهذا الاستطراق من قانون الماء ، وهذا هو القانون الذي هو من سنن الله تبارك وتعالى في هذا الخلق في الأرض ؛ ولكنه يخرق ، فيضرب موسى البحر بعصاه ، فيجد طرقا بعدد الأسباط ، ثم يكون الماء قائما والطريق يابسا ، وتجد هذا كله حتى يعبر موسى وقومه ، فإذا ما أتى فرعون وملأه فدخلوا حيث دخل موسى ؛ عاد الماء إلى قانونه ، فأطبق عليهم فأهلكهم .

القمر جعله الله تبارك وتعالى – وهو آية سماوية – على النحو المعروف ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه ، فينفلق إلى شقين ، ويكون الجبل بينهما ، فإذا كل شق على جانب من جانبي جبل أبي قبيس ، يشاهدون ذلك ويرصدونه في الهند ؛ لأنه وجد في بعض آثارهم ما يرجع إلى أنهم رصدوا في ليلة كذا من سنة كذا بتقويمهم ظاهرة غريبة جدا وقعت للقمر في السماء وهو انشقاقه ، فإذا قوبل ذلك بالتاريخ الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم داعيا للناس إلى دين الحق ؛ وجد ذلك متطابقا ؛ ولكن ناموس هذا المخلوق والجرم السماوي ليس على هذا النحو ، وطلاقة القدرة هاهنا تدلك على أن وراءها إلها قادرا مريدا حكيما فاعلا ، ؛ن اضطراد السنن ينسي أحيانا من سنها ، كاطراد النعم ينسي أحيانا من أنعم بها ، فإن الإنسان إذا ما عان العافية ؛ فإنه لا يتذكر المرض ، والنعمة التي ينعم الله عز وجل بها على الإنسان من إلف عادته لها لا يحس بها ، فالمرء إذا كان صحيح البصر ؛ فإنه لا يحس أن له عينين ، ولكنه إذا ما أصيب ورابه من بصره شيء ؛ فحينئذ يعرف أن الله قد خلق له عينين .

القلب الإنساني يدق منذ المرحلة الرحمية الجنينية ، والكائن الإنساني ما زال في مرحلة التخلق في رحم أمه جنينا بعد ، فيبدأ القلب في مراحل التكون والتخلق في الرحم ، يبدأ في الدق ، والأطباء عند فحص المرأة يسمعون ذلك ، وقد يكبرونه حتى يسمعه من كان حاضرا ، فيسمع دقات قلب الجنين في رحم أمه ، ثم إذا ما دفعته إلى هذه الحياة فبقي فيها قرنا من الزمان مثلا ؛ فقلبه يدق لا

يتوقف ، لو توقف لمات ، ولكنه ربما يحيا قرنا من الزمان ولا يحس أن له قلبا ، لا أعني أن له قلبا من الناحية الروحية ولا من ناحية الخشوع ، ولكن من الناحية العضوية ، فإذا ما آلمه منه شيء أو اعتل هذا العضو في جسده ؛ حينئذ يتذكر أن له قلبا ، فكذلك ما يحدث في كون الله من هذه السنن المطردة .

الشمس تشرق ثم تغيب من المشرق إلى المغرب ، وكذلك ما يكون من الليل والنهار ، وكذلك ما يكون من البحار والأنهار ، إلى غير ذلك من هذه الأمر ، إلف الإنسان لها ينسيه خالقها ، ينسيه من سببها ، فإلف الإنسان للسبب ينسيه المسبب ، وهذا من الخلل الكبير من الناحية العقلية ومن الناحية الشرعية ، فعلى الإنسان دائما أن يتأمل في هذا .

جعل الله تبارك وتعالى طلاقة القدرة نافذة في أمثال هذه الظواهر المألوفة في كونه ، وأجرى على أيدي أنبيائه ورسله آيات أو معجزات لتدل على صدقهم .

جعل الله رب العالمين من هذه السنن : أنه إذا التقى الذكر والأنثى ؛ كان بينهما ولد ، ولكن هذا ليس بمطرد ، فالله عز وجل يلفتنا إلى هذا بقوله : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) } ، فيلتقي الذكر والأنثى ولا يكون بينهما ولد { وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا } ، وهذا من بعض الحكمة التي يستجليها كثير من أهل العلم فيما تجده في الخلق من بعض الأمور التي تختل فيها أعضاؤهم الظاهرة ، فإنك ترى بعض الناس على صفة معينة من حيث الخلق ، ويتفلسف بعض الناس فيقول : ما ذنبه إذ خلق بغير يدين ، أو ولد أكمه لا عين له ، إلى غير ذلك من هذه الأشياء .

فعندما تنظر إلى هذا ؛ تعلم أن ما تراه من السنة المطردة في الخلق على ما خلقهم الله تبارك وتعالى عليه ليست فاعلة بذاتها ، وليست بمحض عملية طبيعية تكون من التقاء الذكر بالأنثى مع ما يكون في الرحم ، ثم يدفع الرحم ما فيه ، فيأتي هذا الكائن الإنساني على هذا النحو ، وإنما يتوقف هذا الاطراد أحيانا ، فتجد أمثال هذه الأمور ، فإذا رأى الإنسان ذلك قال الحمد لله الذي

عافاني مما ابتلى به غيري ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا ؛ ليخرج الإنسان قسرا من إلف العادة فيما يتعلق بأعضائه وصحته إلى معرفة أن هذا من محض النعمة والفضل عليه ؛ لأن الإنسان إذا رأى مبتلى ؛ فإنه يقول : صحح الله لي نظير ما ابتلي هذا به ، فيحمد الله تبارك وتعالى على ما أنعم عليه به .

وأما إذا ما كان الأمر مطردا في الجميع ؛ فإن ذلك يكون أدعى لنسيان نعمة الله على العبد لإلف العادة في هذه الأمور المنعم بها .

الله سبحانه وتعالى جعل في قوانين الأسباب أنه متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد ، ولكن أبقى لنفسه سبحانه طلاقة القدرة ، فجعل هناك ذكرا وأنثى يتزوجان أعواما طويلة ولا يرزقان ولدا ، فمع قوانين الأسباب كانت هناك أيضا الإرادة الحازمة ، وطلاقة القدرة لم يجعلها الله رب العالمين عامة ، بل جعلها في أمثلة قليلة ؛ لتلفتنا إلى طلاقة قدرته ، { وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا } ، فحتى لا نحسب أننا نعيش بالأسباب وحدها ، ولا تجد هذا في الإنسان وحده ، بل إنه ليمتد ليشمل جميع الخلق في جميع أوجه الخلق في هذا الوجود .

الأصل في الإيجاد من ذكر وأنثى ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة خلق إنسانا بدون ذكر أو أنثى ، وهو آدم عليه السلام ، فإنه تعالى خلق من آدم زوجه ، فجعلها مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، خلقها من ضلعه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلق الله رب العالمين إنسانا من أنثى بلا ذكر ، وهو عيسى بن مريم عليه السلام ، فهذا كله يدلنا – مع أنه قد حدث مرة بعد مرة – على أن الأمر ليس مطردا ، هذا من خلق الله ، فإذا شاء أن يخالف هذا القانون المطرد ؛ خولف .

إن الله عز وجل بدأ خلق آدم من طين ، من تراب ، من صلصال ، من حمإ مسنون ، ونفخ فيه من روحه ، فخلق آدم من غير وساطة ذكر ولا أنثى ، ثم خلق من آدم زوجه ، وخلق أنثى من ذكر على هذا النحو بلا أنثى ، فخلق حواء من ضلع آدم ، وخلق الله رب العالمين عيسى من مريم بغير واسطة ذكر ، وخلق أيضا من أنثى بلا ذكر ، كما خلق من ذكر بلا أنثى ، كما خلق من لا ذكر ولا أنثى ، ثم يأتي عامة الخلق الإنساني من ذكر وأنثى .

فهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى على كل شيء قدير ، وأنه ليس لقدرته من حد تقف عنده ولا قيد يقيدها ، فهي قدرة طليقة بلا قيد ولا حد .

الله عز وجل خالق الأسباب ، وقدرته تعالى فوق الأسباب ، فالله يفعل ما يشاء .

لو نظرنا إلى المطر مثلا ؛ لوجدناه سبحانه قد جعل في الكون مناطق ممطرة ، ومناطق لا ينزل فيها المطر ، ثم كشف العلماء من علم الله تبارك وتعالى ما جعلهم يضعون خريطة لأسباب تحدد المناطق الممطرة والمناطق التي لا مطر فيها ؛ ولكن قد يحدث العكس في بعض الأحيان ؛ ليوجهنا الله تبارك وتعالى إلى طلاقة القدرة ، وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعا للأسباب وحدها ؛ ولكن الذي يحكمه هو إرادة الله رب العالمين على حسب علمه وحكمته ؛ حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكناها بالأسباب ، ولكن نعرف أن هناك طلاقة قدرة الله سبحانه الذي يسبب ما يشاء ، ويغير ما يشاء ، ويبدل ما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

فالعلماء الآن فيما يعرف بالأرصاد وغيرها يقولون : نحن نتوقع – إن شاء الله – على حسب الصور الأقمار الصناعية ، وعلى حسب الخرائط الفلكية الجغرافية ، إلى غير ذلك من وسائلهم ؛ أن يوم كذا سيقع فيه كذا ، ثم لا يقع ، وأحيانا يقع ، وهذا ليس من باب التنبأ في شيء ، ولا من باب التدخل في خلق الله رب العالمين في شيء ، ليس هذا من التنجيم ؛ لأنه مبني على قواعد الحساب التي توصل إليها هؤلاء بحسب علمهم ؛ ولكن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد ، وأنت تعلم أنه قد قيل : إن الأمس مثلا كانت درجة الحرارة ستصل إلى درجتين مأويتين ، يعني فوق درجة الصفر المأوي بدرجتين ، ولم يقع من ذلك شيء ، بل كان الجو محتملا ولطيفا أو دافئا أو ما شئت ؛ لأن الله فعال لما يريد ، الناس يستعملون علمهم ؛ ولكن علمهم ليس بحاكم على قدرة الله ، فالله فعال لما يشاء .

كذلك عندما ندرس الكون ؛ نرى فيه هداية كاملة ، من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه ، من أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره ؛ فما هو تعليل ذلك ؟ كيف وجد ذلك ؟ وكيف استمر ؟ وكيف ثبت ؟ هنالك جواب واحد يقدمه العقل على ذلك ، وهو وجود ذات هادية ، وجود الله ، فلا يمكن أن يعلل ذلك إلا بوجود الله جل وعلا العليم الحكيم القدير الذي هو يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد .

لو أنك مثلا نظرت إلى ثعبان الماء : متى اكتمل نموه ؟ هاجر من مختلف البرك والأنهار قاطعا آلاف الأميال في المحيط ، قاصدا إلى الأعمال السحيقة جنوب برمودا ، حيث ملتقى ثعابين الماء في كل أنحاء العالم ، فتبيض الإناث وتموت ، وأما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء سوى أنها في مياه غريبة ؛ فإنها تعود أدراجها مرة أخرى ، كيف ؟ تجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها ، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من الماء أهلا بثعابين البحار ، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية مثلا ، لم يدخل في المياه الإقليمية الأوروبية ثعبان أمريكي ، ولم يخترق هذا السياج ، فمن الذي دل هذا على هذا ؟ ومن الذي علمه ؟ ومن الذي أرشده ؟

الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاما في ولاية يوإنجلاند يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة ، ويظهر بالملايين في الرابع والعشرين من مايو من السنة السابعة عشرة من عمره تماما ، بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريبا – أي في ذلك اليوم – بهداية يعجز الإنسان عنها لو أنه استعمل التقويم .

خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج ، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض ، ووضعه في جهاز التفريخ ؛ نصحه فلاح أمي أن يقلب البيض ؛ لأنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم ، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل من البيضة حرارة جسمها التي حرمتها ، وأما هو ؛ فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيض ، استمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس ، وفات ميعاده ولم يخرج فرخ واحد ، ولا فقست بيضة واحدة ، فأعاد التجربة آخذا بنصيحة الفلاح ، أو بالأحرى : أراد أن يقلد الدجاجة ، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس ؛ خرجت الفراريج .

ما هو التعليل العلمي لهذا ؟

آخر تعليل علمي لتقليب البيض – وهو ما تقوم به الدجاجة – أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ؛ ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه ، فإذا بقي بدون تحريك لأوعيته ؛ أدى ذلك إلى

هلاكه ، فالدجاجة لا تقلب البيض لذلك لا في اليوم الأول ولا في اليوم الأخير ؛ فمن الذي علمها ؟!

في عملية بناء هذه العمليات المعقدة التي تؤدي إلى بقاء الأجناس المختلفة في الأرض ، بقي بهذه العملية الدجاج في العالم ؛ لأنه يعلم تماما ما ينبغي أن يفعله ، وما فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج في الأرض ؛ من أين أتت به ؟!

ومن الذي علمها ؟!

لو أنك نظرت إلى ترتيب الأذن في الإنسان وفي عدد من الحيوانات الأخرى ؛ فلا يمكن أبدا لأي عاقل أن يتصور حدوث ذلك عن طريق المصادفة ، وهو : أن للأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية ، فتتذبذب تلك الطبلة ، هذه الذبذبات تؤثر في ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيبا معينا ، والضغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يكون متساويا ، لهذا الغرض تمتد أنبوبة خلف الطبلة توصل إلى تجويف الأنف ؛ لكي يكون هناك تعادل بين الضغط في الجانبين – أي في جانبي الطبلة – ، لذلك إذا ركبت الطائرة واختلف ضغط الهواء ؛ يقال لك : افتح فمك ، تنفس من فمك ، وإلا طارت الطبلة ؛ لأن الضغط يكون شديدا ، ولا يكون الضغط خلف غشاء الطبلة من الداخل مساويا للخارج ، فمع الضغط يمكن أن يطير ، فيقول لك حينئذ : تنفس من فمك ؛ لكي تعادل الضغط في الداخل مع الضغط على الطبلة طبلة الأذن من الخارج .

فهنالك أنبوب خلف الطبلة يوصل إلى تجويف الأنف ، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمة تشبه القوقعة في شكلها ، وظيفتها تحليل الصوت ، وهي تؤدي وظيفة أخرى هي مسألة الحفظ على التوازن ، لذلك الذين يدورون يدورون يختل هذا السائل الذي يحفظ التوازن في القوقعة في الأذن الداخلية ، فإذا ما اختل ؛ لا يستطيع هو أن يحفظ توازنه ، وهذا يفعله الصبيان أو الغلمان أو الأطفال عندما يدورون ، ثم لا يستطيع الواحد منهم أن يحفظ توازنه من أجل أن هذا السائل حدث له اختلال ؛ لأنه مثله لا أقول هو مثل ، بل مثله ميزان الماء .

تتميز الأنغام المختلفة على حسب الذبذبات عند نقلها إلى المخ من أجل التفسير ، هذا يفسر صوتا ، وأنت تعرف صوت فلان من فلان وأصوات المخلوقات بعضها من بعض ، كيف ترجمت هذه الاهتزازات إلى شيء أنت تسمعه وتدركه ؟

وكذلك هذا الضوء عندما ينعكس على الأشياء ، ثم يأتي إلى العين ، وينقل عن طريق العصب البصري إلى مركز الترجمة في المخ ، وفيه أيضا تكبير ؛ لأنك خبير بأنك إذا رأيت جملا ؛ فعينك صغيرة ومخك ليس بحجم الجمل ، يعني كلما رأيت شيئا يكون مخك مثل ما رأيت ؟

فكيف تعطيه أنت نسبة التكبير التي تجعله على حقيقته ؟!

هذا تفسيره في المخ ، فأنت ترى الأشياء على حقيقتها ، مع أنها عندما تنقل ؛ تنقل مقلوبة ، فإذا ما ذهبت إلى مركز الترجمة في المخ لكي يعيدها إلى أصلها ؛ أعادها إلى وضعها الأصلي ، وأعطاها حجمها الأصلي .

هذا كله إنما هو مؤثرات تتعلق بالضوء ، وكل الخلايا العصبية جعل الله تبارك وتعالى لها مؤثراتها ، فأنت مثلا إذا ما ضغطت – أي على مدخل أذنك – فجعلت المؤثر هاهنا هو الضغط على الأذن ؛ سمعت صوتا ، وكذلك إذا ضغطت على العين ؛ فإنك ترى نجوما ، فيتحول الضغط هاهنا من مؤثر هو الضغط إلى ما يستجيب له هذا العضو من المؤثرات وهو الضوء ، فإذا ضغطت على عينك ؛ رأيت النجوم في عز الظهر ، وكذلك إذا ما ضغطت على أذنك ؛ فإنك تسمع وَشّاً كما يقولون ، فهل هذا كله من المصادفة ؟! وهل هذا كله من لا شيء ؟!

وهل هذا كله خلقه الإنسان بنفسه لنفسه ؟!

تنتقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعصاب إلى مركز السمع بالمخ ؛ ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضها عن بعض ؛ هل يمكن أن يحدث كل هذا في وقت واحد عن طريق المصادفة ؟!

نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية تنفي المصادفة هاهنا نفيا قاطعا ، وتحدث في الكائنات الحية أشياء عجيبة جدا ، وهي لا تعد ولا تحصى

، فما كشفه الإنسان منها وما وصل إليه لا شيء بالنسبة لحقيقة وجودها ، وهذه كلها تدل على وجود من رتب وقدر لاستمرار بقاء الكائنات .

هناك أمور تحدث مثلا لديدان الفلاريا ، وهذه الديدان إذا أصيب بها الإنسان ؛ سببت له مرضا يقال له مرض الفيل .

هذه الديدان تغيض في طورها الكامل في الأوعية اللنفاوية والغدد اللنفاوية للإنسان ، وتسد الأوعية اللنفاوية ، فتسبب تضخم بعض الأعضاء ، وعلى الأخص ما يحدث في الساقين أو في إحداهما حتى تصبح ساق الإنسان في حجم ساق الفيل ، ولذلك قيل له : مرض الفيل .

تتزاوج هذه الديدان في أثناء وجودها داخل الأوعية اللنفاوية للإنسان ، وتنتج ديدانا صغيرة تنتقل من الأوعية اللنفاوية إلى الأوعية الدموية ، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية للإنسان ؛ فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها ، إذ لا بد لها من أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكي تتم تلك الدورة ، ولكي تصبح قادرة على عدوى الإنسان ، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب ؛ فإنها تمتص مع الدم عددا من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوضة حتى يكتمل نموها في دورة حياتها ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه في أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الذي تتغذى عليه .

وما الذي يجعلها تحقنها في دمه ؟

الجواب : لأنها تفرز مادة تحقنها في دم الإنسان حيث لدغته من أجل ألا يتجلط الدم ، فكذلك تصنع البعوضة ، فحينئذ يكون ذلك الطور من أطوار حياة تلك الدودة جاهزا لإصابة الإنسان .

حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ؛ ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل ، إلى أن وقع شيء عجيب :

في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهرا في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب بتلك الديدان ، وفحصها تحت المجهر ، ففوجئ بعدد هائل من هذه الديدان في العينة التي أخذها ، وفي أثناء النهار في اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان

أثرا ، احتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة ؛ لماذا توجد هذه الديدان في عينة الدم التي أخذها من المصاب ليلا ، ولا تظهر إذا أخذها نهارا ؟

ثم اتضح بعد ذلك أن تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار ، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد في أثناء الليل ، والحكمة في ذلك : هي أن البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان في هذه الأماكن لا ينشط إلا في أثناء الليل ، ولذا فإن الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة .

فهذه الديدان قطعا لا تدرك شيئا من هذا ولا تعلمه ، ولا تعلم شيئا عن البعوضة التي ستتم دورة حياتها داخل جسمها ، بل تفعل هذا عن غريزة وتوجيه وهداية من الله جل وعلا .

إذا ؛ هنالك سبب وراء ذلك ، وهذا السبب خالق خلاق عليم قدير فعال لما يريد .

ومن العجيب : أنه في الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدم فيها نهارا ولا تنشط ليلا ، تجد أن الديدان تفعل العكس ، فتبقى في الأوعية الدموية الداخلية ليلا ، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهارا ؛ ليتمكن البعوض في هذه الحال من امتصاصها مع الدم ، فهذا بعض نهاري ، فتتعرض هي له ، تتبرج له بتعرضها تبرج الأنثى تصدت للذكر ؛ لتتم دورة الحياة ، وأما البعوض الليلي ؛ فهذا البعوض الليلي تظهر له ديدان الفلاريا في الأوعية الدموية السطحية من أجل أن تتم دورة الحياة في ذلك البعوض .

هل يحدث هذا عن طريق المصادفة ؟!

يقول ربنا تبارك وتعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) } ، فتأكد هذه الآية العظيمة مع آيات أخرى كثيرة في القرآن المجيد أن الله سبحانه هو الخالق وحده لهذا الكون بإرادته ، وهو تبارك وتعالى جعله على هذا النحو بتلك الإرادة الفاعلة والقدرة الطليقة على مقتضى علمه وحكمته .

والباحث المتأمل في كل خلق إلهي يجد الكثير من الدلائل التي يدحض بها مزاعم الملحدين والمشركين وافتراءاهم ؛سواء فيما يزعمون من نشأة الحياة بالصدفة ، أو ما ينسبونه للطبيعة من

قدرة على الاختيار والانتقاء وإعمال القوانين في حركة الكون والحياة ، أو ما يزعمون من تطور للمخلوقات أدى إلى ارتقاء الجماد والحيوان ، وانحدار الإنسان من أصل مشترك بينه وبين القردة العليا ، وهذه كلها مزاعم فلسفية ، هذه ليست بالمزاعم العلمية ، بل هي خيالات ، والمنطق العلمي نفسه يرفض تلك المزاعم ، ويكشف غاياتها الخبيثة في تزيين الكفر والإلحاد .

إذا بحثنا في جسم الإنسان على سبيل المثال ؛ نجد العديد من التوافقات المذهلة والتنظيمات العجيبة التي تأكد أن الإنسان لم ينشأ نتيجة صدفة عمياء ، ولم يتطور من جماد وحيوان بفعل قوى الطبيعة المزعومة ، بل هو من صنع إله قادر عليم جبار يملك القدرة المطلقة على التدبير والتخطيط ، وهذه القوة هي قوة القصد الإلهي التي تؤكد أهمية الغاية والهدف من وراء خلق الكائنات مصداقا لقوله تعالى : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)} ، لقوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) } .

من أمثلة التوافقات والتنظيمات المعجزة في جسم الإنسان : أن خلايا الجسم دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم أو لتعويض ما يفقد أو يموت من هذه الخلايا .

أما الخلايا العصبية فهي لا تنقسم ؛ لأنها لو انقسمت ؛ تحدث كارثة مروعة بتلاشي جميع معالم الذاكرة في الخلايا العصبية للمخ ، فهذه الخلايا العصبية هي هي ، ولكن هذه الخلايا العصبية لها قانونها الخاص ، وهي خلية حيوانية ؛ ولكنها سوى الخلية الجسمية ، فالخلايا الجسمية تتكاثر ، وأما الخلايا العصبية ؛ فما دمر منها فإنه لا يعاد .

عضلات الرحم عند المرأة أقوى عضلات الإنسان ؛ للحاجة إلى تلك العضلات في دفع الجنين عندما يأذن في دفع الجنين عندما تعالى يأذن الله بخروجه من بطن أمه .

تلي عضلات الرحم عضلات القلب التي لا بد أن تكون قوية لتحتمل العمل ليلا ونهارا ، وتدفع الدم باستمرار إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول في بعض الأحيان لأكثر من مائة عام ، وكذلك ما يتعلق بعضلات الفكين ؛ لأنه لا بد من طحن ذلك الغذاء ، فالإنسان كم يطحن من أطنان من الطعام في حياته ؟!

فهو يحتاج إلى أن تكون هذه العضلات في غاية من القوة .

عند حدوث جرح من الجسم يندفع الدم من الأوعية الدموية المجروحة ، ولكنه لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح ليوقف استمرار النزيف ، ولو لا هذا التجلط لظل النزيف حتى الموت .

المعدة في الإنسان أشبه بمصنع كيميائي أعده الله تعالى لكي يعمل وينتج مواد كيميائية أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره الإنسان ، فالمعدة تقوم تلقائيا بتحليل ما يتناوله الإنسان من أطعمة على اختلاف أنواعها ، وتقوم بمعالجتها وتجهيزها من جديد ، وتتولى فرزها وتصنيفها وتوريدها بصورة مستمرة ومنتظمة إلى الأمعاء من أجل أن تمتص إلى الدماء ؛ لتصل إلى كل خلية من بلايين الخلايا على حسب احتياجات هذه الخلايا وتخصصاتها ؛ لتكوين العظام أو الأظافر أو الشعر أو اللحم أو الأسنان أو الأنسجة أو الدم أو غير ذلك .

ولا تغل عن شيء مهم يدل على وحدة النظام في الكون ، وهو بالتالي يدل على الإله الواحد الأحد : أن هذا الغذاء واحد ، الذي تأكله شيء واحد ، يعني مهما تعددت أنواعه من طعام وشراب هو شيء واحد ؛ ولكنه يصير على هذا النحو خلايا جسدية ، أو يصير حيوانات منوية ، أو يصير بويضات عند الأنثى ، أو يصير عرقا ، أو يصير دموعا ، إلى غير ذلك من هذه الأمور ، وهو شيء واحد !!

فالذي يؤخذ ليصير على هذه التنوعات المختلفة هو شيء واحد ، ولكن الله عز وجل هو الخلاق العليم .

الأذن البشرية – كما مر – عضو معقد جدا ، وهو بالغ الحساسية ، يقوم بتحليل الأمواج الصوتية ونقلها إلى المخ في صورة تيار معين يسري في العصب السمعي إلى مركز خاص في المخ ، فيحس الإنسان بسماع الصوت .

خلق الله الأذن البشرية ، وجعل استجابتها محدودة بمدى معين من الذبذبات ، يتراوح ترددها – وهو عددها – في الثانية الواحدة ؛ مثل ما تأتي بالشوكة الرنانة ، ثم تضربها في جسم ما ، ثم ترى تلك الذبذبات ، فعدد الذبذبات في الثانية الواحدة هو التردد .

الأذن تسمع ترددات الأصوات من عشرين إلى عشرين ألف ذبذبة في الثانية الواحدة ، ولو قل عن هذا العدد – أي عن العشرين ذبذبة في الثانية الواحدة – ؛ لا يسمع ، فكم من الأصوات في الكون تحت هذا المستوى من الذبذبات وأنت لا تسمعه ؟! كثيرة هي ، وكذلك ما فوق العشرين ألفا من الذبذبات في الثانية الواحدة ، ما زاد على ذلك لا تسمعه ، فيكون حولك وأنت لا تسمعه ؛ لكي تنعم بالهدوء ، ولكي لا تسمع الموجات الأقل أو الأكبر من هذا المدى ، وإلا ظللت في شغل دائم أبدا حتى لا تنام .

لو استجابت الأذن لكل الذبذبات الصوتية ؛ لعاش الإنسان في ضجيج لا ينقطع ، لذلك تنفي هذا الأثير من أصوات تلتقط بوسائل معينة وأنت لا تسمعها .

الزحام في الأثير أكبر من الزحام في الأرض ، زحام ترددات الأصوات في الأثير على حسب الإرسال والاستقبال لا يعلم عدده إلا الله جل وعلا ، لذلك تتكلم الملائكة وأنت لا تسمع ، وتتكلم الشياطين وأنت لا تسمع ، وتتكلم الحيوانات وأنت لا تسمع ، ولكن إذا مكنك الله تبارك وتعالى من ذلك فهذا شيء آخر ، فقد مكن الله جل وعلا سليمان عليه السلام من معرفة لغات تلك المخلوقات .

الذي يقال عن الخلايا والعضلات والدم ، وكذلك عن المعدة والأذن ؛ يقال عن العين واللسان والأنف والحنجرة والجلد وغيرها من ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة في جسم الإنسان ، بل ومختلف التنظيمات الموجودة في كل الكائنات النباتية والحيوانية مما يدل على أن جميع المخلوقات خلقت منذ البداية على نحو من الدقة المقصودة التي لا تدع مجالا للصدفة أو للاحتمال .

قال ربنا تبارك وتعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)} .

هذه الآية الكريمة وغيرها كثير من آيات القرآن المجيد تدعو إلى إعمال العقل في إثبات وجود الإله الواحد والخالق العليم كضرورة حتمية لوجود هذا الكون واستمرار حركته منذ بداية خلقه وحتى يقضي الله فيه أمرا كان مفعولا ؛ لكن الملحدين والكافرين لا يعلمون ، أو لعلهم لا يريدون أن يعرفوا .

هذه الحقيقة الواضحة بالرغم من اعتراف بعضهم بوجود النظام في الكون وسريان الحكمة والروح في الوجود ؛ فهم عاجزون عن أن يشعروا بوجود منظم مدبر خالق لهذا الكون ؛ لأنهم استسلموا لأوهام الفكر ، وبالغوا في تقديس العقل ، وما يستنبطه من علم ، ونسوا أو تناسوا وجود خالق العقل وخالق العلم وخالق كل شيء في هذا الوجود ؛ ليقوم بوظيفته التي هيأه وأعده لها على أكمل وجه .

لقد تمادى هؤلاء الملحدون عبر العصور في غيهم ، وحاولوا أن يبدلوا سنة الله التي لا تتبدل ، وأن يثبتوا أن الله غير موجود ، ولم يستطع أحد منهم أن يقدم دليلا واحدا يؤيد إنكارهم لوجود الله .

كما مر : الذي يجحد وجود الخالق ويطلب من المؤمن أن يأتي بالأدلة على وجود الخالق العظيم ، فليقل له المؤمن : فلتأت أنت بدليل واحد على أنه غير موجود ، يعني أنت تطالب المؤمن بأن يأتي بأدلة على وجود الله جل وعلا ، وهو يطالبك بأن تأتي بدليل واحد على عدم وجود الخالق العظيم ، لا يملكون دليلا أبدا ، بل الأدلة كلها تثبت وجود الخالق العظيم ، ولكن عبثا يمكن إقناعهم ؛ لأن لديهم بقعة عمياء في عقولهم تمنع من تصور الله ، تجعلهم لا يستمعون إلى كلام الله ولا إلى بلاغ الأنبياء والرسل ، بل لا ينصتون لحقائق البحث العلمي في مختلف ظواهر الكون والحياة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)} .

والعلم الصحيح يقدم لنا الأدلة الكثيرة علو وجوده تعالى وعلى وحدانيته ، ويدحض مزاعم الملحدين والكافرين ، ويقف بقوة – أي العلم المادي الذي يتخذونه تكأة من أجل إنكار وجود الخالق – مع دعوة الدين إلى إعمال العقل بعيدا عن الهوى والتعصب ؛ لكشف حقائق الوجود ، والاهتداء إلى الإيمان الخالص بالخالق الواحد الأحد - سبحانه وتعالى - على هدى وبصيرة ، فليس من المعقول أن يفكر الجماد في تطوير نفسه ، أو أن تمنح الطبيعة الجامدة نفسها قبس الحياة، أن تحكم المصادفة حركة الكون ، ويتولد النظام تلقائيا من الفوضى والعشوائية .

من المستحل أيضا : أن تتكرر المصادفة لتتخذ شكل ظاهرة عامة تسري على ملايين الكائنات الحية في النبات والإنسان والحيوان ، وعلى ملايين الظواهر الكونية في السماوات والأرض ؛ سواء فيما

يتصل بمقاومة عوامل العطب والفناء ، أو فيما يتعلق بالتركيب الخارجي والداخلي للأفراد والمفردات المختلفة التي تعمل في توافق عجيب وتعاون مذهل لاستمرار هذه الحياة .

لقد اكتشف العلم الحديث أن الأرض التي شاء الله أن يجعلها مقرا للإنسان مسخرة لكل ما فيها وما عليها لاحتضان الحياة والأحياء ، وتتخذ ملاءمتها للحياة صورا عديدة من التنظيمات والتوافقات الرائعة التي لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية ؛ فكيف تعرف الطبيعة الجامد عن طريق الصدفة ، أن الأرض يجب أن تكون بهذا الحجم ، بهذا الوزن ، بهذا التكوين ، وأن غلافها الجوي لا بد أن يكون له هذا التركيب والتوزيع أفقيا ورأسيا ، وأن موقعها من الشمس والكواكب الأخرى لا بد أن يتحدد بهذه الدقة العجيبة التي تنسجم انسجاما معجزا مع كل مقومات الحياة التي أرادها الله سبحانه وتعالى عليها ؟!

كيف يمكن أن ينشأ هذا البناء الكوني المحكم عن طريق الصدفة ؟!

وهل من المعقول مثلا أن تنشأ عمارة أنيقة رائعة من انفجار عشوائي في تلال من الأحجار والحديد والأخشاب والزجاج ؟!

يبقى بعد هذا سر أسرار الحياة : الروح التي جعلها الله مصدر الوعي ومنبع الشعور ، فقد خلق الله الإنسان خلقا يجمع بين المادة والروح ، فالإنسان بجسمه المادي مشدود إلى الأرض ، له دوافعه وشهواته ومطالبه الحيوانية ، وبروحه الشفافة يتطلع إلى السموم ، أما النفس ؛ فلها طبيعة مزدوجة تحتوي على معنويات الخير والشر والتقوى والفجور ، ورغم أن العلم قد تعرف على التركيب المادي لجسم الإنسان بعناصره ومركباته ، وذلك عن طريق التحليل الكيميائي ؛ إلا أنه لا يزال عاجزا وسيظل حيال عالم النفس الذي يحاول اقتحامه ، كما أنه يقف عاجزا أمام عالم الروح ، ولن يقدر للعلم البشري أن يصل إلى سر الحياة الذي استأثر به خالق الكون والحياة ، فالإنسان يكون أمام المحتضر وهو في آخر نزع معلقا بين الحياة والموت ، ثم فجأة يصير ميتا ، ما الذي جرى ؟! لقد كان منذ قليل يحب ويكره ، يأكل ويشرب ، يتحرك ويسكن ، ثم مات ، ما الذي دهاه ؟! ثم هذه الجثة ما هي ؟! أي شيء هذه ؟! وما تكون ؟! وما الذي استلب منها ؟! وما الذي تحتاجه أن يعاد إليها حتى تعود إلى سالف عهدها ؟!

هذا كله سر الأسرار في الروح التي استأثر الله تبارك وتعالى بعلمها ، قال تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} .

وقال تعالى : {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)} .

وقال تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)} .

تقرر هذه الآية الكريمة أن جميع المخلوقات والكائنات في هذا الكون الفسيح على اختلاف أنواعها وأحجامها ونواميسها ، يجمع بينها مهمة التسخير للإنسان ، ويوحد بينها أنها مقدرة بقدرة الخالق الواحد الأحد ، والإيمان الخالص بوحدانية الله سبحانه أساس العقيدة الإسلامية ، وأمر فطري ينعم به على كل من أراد الله تبارك وتعالى له الهداية والسعادة ، فينعم به كل إنسان يتمتع بفطرة نقية ؛ لكن البحث العلمي يوصلنا إلى حقائق كونية تسير قبول العقول بمسلمة التوحيد الإسلامي أمرا حتميا ، وشتان بين إيمان القلب وإيمان العقل ، إن إيمان القلب هو إيمان الفطرة التي ترجع إلى ربها تبارك وتعالى ، وتحن إلى عبادته ، بل لا تكون سوية إلا بعبادته وإخلاص العبادة لوجهه ، وأما العقل ؛ فإن هذه الأمور تعرض عليه ، فقد يقر ، ويبقى القلب جامحا كالفرس الشموس ، لا تذلل ولا يحكمها خطام ولا لجام ، فنسأل الله أن يمن علينا بهداية القلوب ، إنه تعالى على كل شيء قدير .

{ الرد على بعض شبهات الملحدين}

قد مر أن العلماء يتخذون الخلق وسيلة للوصول إلى إثبات الخالق ، وهذا أمر بدهي فطري ، فدليل الخلق دليل لا يدفع ، ومع ذلك فبعض الفيزيائيين – كما في {الفيزياء ووجود الخالق} – يزعم أن هذا الدليل الكوني دليل فاسد من حيث المبدأ لأنه متناقض ؛ لكن مسألة صحة دليل ما أو فساده مسألة منطقية لا تعلق لها بالفيزياء التي هي تخصص أمثال هؤلاء ، لهذا فعندما يزعم فيزيائي كديفيز أن الدليل الكوني ليس صحيحا ؛ فإنه لا يفعل هذا بوصفه فيزيائيا ، بل هو متأثر في ما يقول ببعض مشاهير الفلاسفة الغربيين ، بل هو ناقل عنهم ومقلد لهم ؛ لأن كثيرا من الناس

يحدث عنده خلط كبير ، فيأتي مثل هذا العالم الفيزيائي ليقرر أمثال هذه الحقائق – كذا يجعلها حقائق – ، وهي في غير تخصصه الذي ينظر إليه فيه ، فيتلقاها من يتلقاها من الأغرار المخدوعين على أنها من نتاج علمه في تخصصه ، ولكنه لا يقول مثل هذا القول على أنه فيزيائي ، ولا عالم في الطبيعة ، وإنما هو مقلد في ذلك لبعض الخائبين من الفلاسفة المنحرفين الغربيين ، فيقول ديفيز :

إن الدليل الكوني مبني على افتراض أن كل شيء لا بد له من سبب .

ويقصد ديفيز بهذا الكلام قانون السببية ، فهو يريد بكلامه السابق أن الدليل الكوني الذي يصل به المؤمنون إلى إثبات وجود الخالق العظيم ، أو كما يقول المتقدمون : السبب الأول الذي هو سبب الأسباب . يقول : إن هذا الدليل الكوني مبني على افتراض أن كل شيء لا بد له من سبب ؛ لكنه ينتهي إلى القول بأن هنالك شيئا واحدا على الأقل – يعني الله عز وجل – ليس له سبب .

يقول : فالدليل يبدو متناقضا . اه

وشرح كلام ديفيز هو : كيف تقولون : إن لكل شيء سببا ، ثم تقولون : إن الله لا سبب له ؟

هو نفسه يعترف بأن هنالك صيغا مختلفة للدليل الكوني ، وهو بالطبع لا يشير هنا إلى صيغة القرآن التي لا يصدق عليها ما يقول ؛ لكن كثيرا من اعتراضاته لا تصدق حتى على صيغتها التي اختارها للمناقشة ، هذه الصيغة تقول : كل حادثة لا بد لها من سبب .

ولا يمكن أن تكون هنالك سلسلة غير متناهية من الأسباب ، وإذا فيلزم أن يكون هنالك سبب أول لكل الأشياء ، وهذا السبب هو الله.

هذه الصيغة تقول : كل حادثة لا بد لها من سبب .

لكنه جعل الصيغة هكذا : كل شيء لا بد له من سبب .

وشتان بين الصيغتين ، فالصيغة تقول : كل حادثة لا بد لها من سبب ، كل حادث لا بد له من محدث ، كل مخلوق لا بد له من خالق ، كل موجود لا بد له من موجد .

وأما هو فيقول : كل شيء لا بد له من سبب . فيقول : الله عز وجل لا بد له من سبب – على القانون الذي صاغه هو – .

والفرق بين الصيغتين كبير ؛ فالحادثة لها بالضرورة بداية ؛ لكن ما كل شيء حادث ، وما كل شيء يلزم أن تكون له بداية ، فالله تعالى شيء { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} ، ومع ذلك فهو أزلي ، وعليه فليس هنالك من تناقض في قول القائل : كل شيء حادث لا بد له من سبب ، وأما الأشياء التي ليس لوجودها بداية ؛ فلا يمكن أن يكون لها سبب .

هذه الحجة كانت تصلح .... {كلمة لا أفهمها} الجدوى لو أنها بدأت بالقول بأن كل شيء حادث ، ولا بد لكل حادث من سبب ، فيلزم أن يكون له سبب فاعل ، وانتهت إلى القول بأنه حتى الأشياء التي لا بداية لها فلا بد لها كذلك من سبب فاعل .

الحجة بحسب ما ساقها هو تبدأ بتقرير أن لكل حادثة سببا ، وتنتهي إلى القول بأن كل الأشياء يلزم أن يكون لها سبب .

لعله وقع منه ذهول في تقرير الحجة ، فلعله تأثر في هذا بما قال الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو ؛ لأن اعتراضه هو عين اعتراض هذا .

قال بعضهم : إنه إذا كان الكون بحاجة إلى سبب ؛ فالله كذلك بحاجة إلى سبب .

يقول ديفيز أيضا : حتى لو سلمنا للدليل الكوني إلى حد القول بأن للكون سببا ؛ فهنالك مشكلة منطقية في عزو ذلك السبب إلى الله ؛ لأنه يمكن حينئذ أن يقال : وما الذي سبب الله ؟

الإجابة المعهودة : هي أن الله لا يحتاج إلى سبب ، لأنه واجب الوجود ، ولا سبب له إلا نفسه ، ثم إنه إذا كان المرء مستعدا للتسليم بأن شيئا ما هو الله ؛ يمكن أن يكون موجودا من غير سبب خارجي ، فلماذا المضي إلى هذا الحد في السلسلة ؟!

لماذا لا يكون الكون موجودا من غير سبب خارجي ؟!

هل يقتضي القول بأن الكون خلق نفسه تعليقا أعظم لعدم الإيمان من القول بأن الله خلق نفسه ؟! فلماذا تسير في هذه السلسة ؟! لماذا لا تقول من البداية : إن الكون هو سبب نفسه ، فيكون سببا ومسببا في آن واحد ، وخالقا ومخلوقا في آن واحد ؟!

فاعتراضه على الدليل الكوني هو بعينه اعتراض هيوم عليه ، لذلك فهو ينقل عنه موافقا له في قوله : إذا كنا نقف ولا نمشي أبعد عن الله – كذا يقولون – ؛ فلماذا نمضي إلى هذا الحد ؟!

لماذا لا نقف عند حدود العالم المادي بافتراضنا أنه يتضمن في نفسه مبادئ نظامه ، فنكون قد أكدنا القول بأنه هو الله ؟

حجته هذه ؛ بل كل حججه في تأييد الإلحاد ؛ لأنه من كبار الداعين إلى الإلحاد ومن كبار الملحدين ، هي حجج في غاية التهافت ؛ لكنها وجدت طريقها إلى قلوب أعداد كبيرة من المفكرين الغربيين المعاصرين ، فهم يقلدونه فيها من غير نظر ولا تفكير ، فها هو الفيزيائي بارو يأتي من بعد ديفيز ليقول : لأنه يزعم أن كل شيء يجب أن يكون له سبب ؛ عليه فيجب أن يكون للكون سبب مختلف في جوهره عن الكون ، بيد أن منطق هذه الحجة بالذات ليس قوي الإلزام – كذا يقول – ، إن كل من يستطيع أن يقنع بمفهوم للخالق على أنه سبب غريب مسبب ، يستطيع بكل تأكيد أن يقنع بالكون نفسه على أنه سبب غير مسبب . اه

وهذا عكس للدليل ، والجواب :

إن الدليل الكوني لا ينتهي إلى القول بأن الله خالق نفسه ، بل بأن الله أزلي ، والأزلي لا يكون له خالق .

كذلك لا يمكن أن يتصور أن إنسانا مفكرا – مؤمنا كان أو غير مؤمن – يمكن أن يتساءل جادا : من خلق الله ؟

هل يعرف المعنى التي تدل عليه هذه الكلمة ؟

لا شك أنه يبدو أن بعض كبار الفيزيائيين الغربيين والملحدين يأخذون هذا السؤال مأخذ الجد ، بل ويعدونه من المآخذ الكبيرة على القول بوجود الخالق سبحانه ، فها هو هنك يقول عن الله : ومن الذي خلقه؟

والإجابة عن هذا السؤال الذي يظنه هؤلاء الفلاسفة والعلماء وكثيرون غيرهم سؤالا عويصا ، هو في غاية السهولة .

إذا سلم الخصم بأن الكون الحادث لا بد له من سبب غير حادث ، ثم سلم بأن هذا السبب غير الحادث – أي الأزلي – هو المسمى : الله ؛ فإن سؤاله عن خالقه أو سبب لله لا يكون له معنى

إطلاقا ، إنه سؤال من لا يتصور ما يقول ، إنه سؤال ينطوي على تناقض عجيب ؛ لأن السبب ضرورة سابق للمسبب ، ولأن الأزلي ضرورة غير مسبوق بشيء ؛ فكيف يكون له سبب ؟!

فالذي يقول بضد ذلك هو لا يدري ما يخرج من رأسه .

قول القائل : من خلق الله ؟ يساوي قوله : ما الذي سبق الشيء الذي لا شيء قبله ؟ أو : ما بعد الشيء الذي لا شيء بعده ؟

فهل تجد لمثل هذا السؤال من معنى ؟!

إذا أخبرت إنسانا بأن فلانا كان أول العدائين ؛ فهل يصح أن يقول لك : نعم ؛ ولكن من الذي سبقه ؟! ولله المثل الأعلى .

قام الدليل على أن الله هو الأول الذي لا شيء قبله ؛ فكيف يقال : ما سببه ؟! أو : من خالقه ؟!

ومن العجب العجاب : أن ديفيز الذي قلد هيوم في هذا الاعتراض على وجود الخالق قال بنقيضه تماما في سياق آخر أتى به أيضا للاعتراض على وجود الخالق سبحانه .

اسمعه يقول : انظر في هذا القول الجازم السابق ، كل شيء يجيء إلى الوجود يكون قد أوجده شيء ، ماذا لو أن الشيء لم يجئ إلى الوجود أبدا ، بل كان دائما موجودا ؟ هل من معنى للسؤال عما إذا كان هنالك سبب لشيء هو موجود أزلا لشيء لم يكن موجودا في أي وقت من الأوقات ؟

والجواب : أجل ، إذا كان الكون أو شيء فيه موجودا أزلا ؛ فإنه لا معنى للسؤال عن موجد له ، ولكن إذا ثبت أنه لا الكون ولا شيء منه موجود أزلا ؛ فلا بد له موجد أزلي ، فلا معنى للسؤال بعد ذلك عن موجد أو خالق لهذا الخالق الأزلي ، لكنك تسلم بهذه الحجة حين تفترض الأزلي شيئا في هذا الكون ، وتنكرها حين يكون هو الخالق الذي تتحدث عنه الأديان .

فيتبين لنا الآن سهولة الرد على هذا السؤال الذي طرحه هذا الملحد ديفيز ، ومن قبله طرحه الملحد هيوم : إذا كان الله تعالى موجودا من غير سبب موجد ؛ فلماذا لا يكون العالم أيضا موجودا من غير سبب موجد ؟

والإجابة : لأن الله تعالى أزلي ، أول لا بداية له ولا شيء قبله ، بينما الكون حادث ، أوجده الله رب العالمين الذي أوجد كل شيء ، وخلقه الله تعالى الذي خلق كل شيء .

إن ما يأتي به هؤلاء الملحدون من شبهات لا يخرج عن كونه محض مغالطات كما فعل ديفيز تبعا لهيوم ، وهما من كبار الملحدين ، وقد تبين لنا سهولة الرد على سؤال ديفيز ، ومن قبله هيوم ، وهو السؤال القائل : إذا كان الله تعالى موجودا من غير سبب موجد ؛ فلماذا لا يكون العالم أيضا موجودا من غير سبب موجد ؟

والإجابة : لأن الله تعالى أزلي ، بينما الكون حادث .

ديفيز وبارو ومن نحا نحوهم في تقليد هيوم يعطون انطباعا بأن المستدلين على وجود الخالق بالدليل الكوني قرروا بمحض الهوى أن الكون يحتاج إلى سبب موجد ، ثم قرروا اعتباطا ان الله لا يحتاج إلى مثل هذا السبب ، ولذلك زعموا – أعني أولئك الملحدين – أنه لا يمكن الوقوف عند حدود العالم ، لكنهم عندما وصلوا إلى الله ؛ وقفوا عنده فلم يتعدوه .

فهذا كلام الملحدين بالنسبة للمؤمنين ، ولا فرق بزعمهم بين الوقوف هنا والوقوف هنالك ، وهذا منهما ومن غيرهما تخليط غفل أصحابه عن الفرق الكبير بين طبيعة الكون الحادث والخالق الأزلي ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا أن السؤال عمن خلق الله هو من إيحاء الشيطان ، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ ﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على هذا الحديث كما في {درء التعارض}{٣/ ٣٠٦} ط دار الكتب العلمية :

العلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها وقد يعرض للفطرة يفسدها ويمرضها فترى الحق باطلا كما في البدن إذا فسد أو مرض فإنه يجد الحلو مرا ويرى الواحد اثنين فهذا يعالج بما يزيل مرضه

والقرآن فيه شفاء لما في الصدور من الأمراض والنبي صلى اله عليه وسلم علم أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس وأنه معلوم الفساد بالضرورة فأمر عند وروده بالاستعاذة بالله منه .اه

وهذا الحديث فيه إشارة لطيفة إلى أن إنكار بدائه العقول ودلالاتها القطعية يعد مخالفة للدين الحق واتباعا للشيطان ، ويلزم عن هذا أن يكون في مخالفة ما جاء به الدين الحق أن يكون فيه مخالفة لمقتضيات العقل ، فأنى يكون من يثير الشبهات حول بعض الحقائق الشرعية عقلانيا ؟!

فليت الإسلاميين المعاصرين يسمون أمثال هؤلاء بأهل الأهواء كما كان يسميهم أهل السنة قديما ؛ لأن هذا هو الوصف المناسب لحالهم ، ولأن وصفهم بالعقلانيين يزيدهم غرورا وشرا ؛ لأنه يزين لهم أن العقل معهم ، وأن المستمسكين بالنصوص عاطفيون وليسوا بعقلانيين ؛ لأنهم يقولون عن هؤلاء المخلطين من الملحدين والمخرفين : هم العقلانيون ، فيعطونهم سندا وحجة مما يزيدهم غواية وشرا .

شبهة أخرى من شبهات الملحدين :

شبيه بما سبق : قول يردده كثير من الفلاسفة الملحدين وأخذه عنهم ويردده على الطلاب في الجامعات بعض الأساتذة ، فحوى هذا القول : أن فكرة الإله القادر على كل شيء فكرة متناقضة يستحيل كما يزعمون أن يكون أحد على كل شيء ، لماذا ؟

يجيبون بأنه إذا كان قادرا على فعل كل شيء ؛ فليقدر على فعل كذا وكذا ، ثم يأتون ببعض المحالات العقلية : هل يستطيع أن يربع الدائرة؟ هل يستطيع أن يفعل ما لا يمكنه فعله ؟ هل يستطيع أن يخلق حجرا لا يمكنه تحريكه ؟ وسخف كثير كمثل هذا .

ما علموا أن علماءنا قد قالوا منذ زمان بعيد : إن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات ، ولم يقولوا : إنه لا يقدر على فعل المستحيلات ؛ لأن الله تعالى قادر على فعل كل شيء ، وأما المستحيل فليس بشيء ؛ لأن المستحيل عدمه لذاته من حيث هي ، فهو معدوم أصلا ، فلا تتعلق به قدرة الله رب العالمين ، فقدرة الله جل وعلا لا تتعلق بالمستحيلات ، ولكن علماءنا كانوا أعظم

دقة وأكثر أدبا ، فلم يقولوا : إن الله لا يقدر على كذا من هذه المستحيلات العقلية ، وإنما قالوا : لا تتعلق بها قدرة الله .

هب زيدا من الناس اتهم بحادث سرقة ، فجيء بعمرو أمام القاضي ليشهد ، فجرى بينه وبين القاضي الحوار التالي :

القاضي : ما اسمك ؟

الشاهد : ليس لي من اسم ، لكن اسمي بطرس .

القاضي : هل رأيت هذا الرجل من قبل ؟

الشاهد : نعم رأيته .

القاضي : منذ متى ؟

الشاهد : منذ الغد .

القاضي : هل رأيته يسرق ؟

الشاهد : رأيته ؛ لكني لم أره ألبتة .

ماذا يفهم القاضي من هذه الأجوبة البطرسية ؟ لا شيء .

هل عدم فهم القاضي راجع إلى نقص في عقله بحيث إذا جئنا بقاض آخر أذكى منه ؛ يستطيع أن يفهم ما لم يفهم هو ؟

الجواب : كلا ، لماذا ؟

لأن عمرا لم يقل شيئا ، والفهم إنما يكون لمعنى يدرك ، فإذا كان الكلام لا معنى له يدرك ؛ فإنه لا يفهم منه شيء ، ولذلك كان من الإنصاف لمن لا يفهم من الكلام المتناقض شيئا ألا نقول : إنه لم يفهم ؛ لأنه ليس هنالك شيء يفهم ، ثم هو لم يفهمه ، ولكن إذا قلنا : إنه لم يفهم – أعني الكلام المتناقض – ؛ فهذا يوحي بأن هنالك شيئا يمكن أن يفهم ؛ لكنه عجز عن فهمه ، لكن الواقع أنه ليس هنالك ما يفهم، لذلك اختار علماؤنا ذلك التعبير الدقيق فقالوا : إن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمحالات العقلية ، ولم يقولوا : إنه لا يقدر عليها ؛ لأنه ليس بشيء يفعل أصلا ، فهذا المستحيل معدوم .

انظر الآن في كل الأمثلة التي يستدل بها على أن مفهوم القدرة على كل شيء مفهوم متناقض كما ضربوا لذلك الأمثلة السابقة ، فلننظر فيها مثلا مثلا :

إذا كان المقصود مثلا بتربيع الدائرة أن تجعل خطوطا فيكون عندنا شكل مربع ، يعني أن نأخذ الخط الذي تكون منه محيط الدائرة لنجعله شكلا مربعا ؛ فهذا أمر عادي يقدر عليه أي أحد من البشر ، وأما إذا كان المقصود به هو أن تجعل الشيء دائريا ومربعا في الوقت نفسه ؛ فهذا كلام متناقض ؛ لأن الشيء إذا كان مربعا فيلزم ألا يكون دائريا، وإذا كان دائريا فيلزم ألا يكون مربعا .

فهذا كما ترى كلام متناقض لو أريد .

قد لا يكون الأمر جليا هذا الجلاء بالنسبة لمسألة الحجر ؛ لكنك إذا تأملته وجدته هو الآخر كلاما متناقضا .

نقول : إن الله تعالى قادر على كل شيء ، فيقول لنا هذا المنكر لوجود الله : هل يستطيع ربكم أن يخلق حجرا لا يستطيع تحريكه ؟ وهو يظن أن سؤاله هذا يضطرنا إلى القول بأن الله ليس قادرا على كل شيء .

لا تحسب هذا إلقاء بشبهات ؛ فإن أخا لنا كريما أخبرني الآن قبل هذا المجلس أن هنالك محاضرا دكتورا في كلية من الكليات الشرعية سألهم هذا السؤال فقال : هل يستطيع الله أن يخلق حجرا لا يستطيع تحريكه؟

فقلت له : اجلس ستسمع الإجابة إن شاء الله ، وهذا من عجائب الموافقات ، وهو يدلنا على أن الله يثبتنا بمشيئته ورحمته في هذا الذي نحن فيه ؛ لأن لقائل أن يقول : هذه كلها من الشبهات التي يثيرها الملاحدة ، ولكنها ما زالت تزحف أو قل : تطير حتى وقعت على أولئك المخابيل من الذين يدرسون حتى في الكليات الشرعية ، وهم يسوقون بذلك لا من أجل أن يحل الإشكال فيه ، وإنما يلقون الشبهة ثم يفرون كالجبناء .

فالآن : هل يستطيع ربكم أن يخلق حجرا لا يستطيع تحريكه ؟ عندما يأتي الملحد بهذا السؤال يظن أن سؤاله هذا يضطرنا إلى القول بأن الله ليس قادرا على كل شيء ؛ لأنه يظن أننا مضطرون بنعم أو بلا ، وفي كلا الحالين يتحقق له ما يريد ، فإن قلنا : نعم يستطيع ؛ قال : إذا هنالك شيء

لا يستطيعه ، وهو تحريك هذا الحجر الذي خلقه ، وإن قلنا : لا ؛ قال : إذا هنالك شيء لا يستطيعه ، فهو ليس قادرا على كل شيء ؛ لكننا لن نجيب بهذا ولا بذاك ، بل نقول له : إن سؤالك ينطوي على تناقض ، فهو أمر مستحيل عقلا ، فقدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات ، وإنما بالممكنات العقلية ؛ لأن المستحيل عقلا هو ليس في الحقيقة بالشيء حتى يقال : إنه يقدر عليه أو لا يقدر عليه ، فالمستحيل عقلا هو المعدوم ، عدمه لذاته من حيث هي ، فإذا وجد ؛ فإنه لا يكون مستحيلا وإنما يصير ممكنا .

السؤال معناه : هل يستطيع القادر على كل شيء ألا يقدر على بعض الأشياء ؟!

هل يستطيع القادر على كل شيء أن يقدر على أن يحد من قدرته على كل شيء ؟!

هذا معنى سؤال الحجر الذي أتى به الحجر ، وهو سؤال متناقض كما مر ، فإذا سألنا هذا السؤال صفعناه على قفاه .

ثم إن حجرا لا يستطيع الخالق سبحانه تحريكه هو أمر غير متصور عقلا، لماذا ؟ لأن الخالق ما دام قادرا على كل شيء ؛ فمعنى ذلك أنه ليس لقدرته حد ، فافتراض حجر لا يستطيع الخالق تحريكه هو افتراض لمستحيل عقلا ؛ لأنه افتراض لوجود شيء يحتاج تحريكه إلى قدرة هي أكبر من القدرة التي لا نهاية لها .

هل يستطيع الإنسان أن يصنع شيئا ليبني مثلا بناء لا يستطيع تحريكه ؟ نعم ؛ لأنه لا استحالة عقلية في هذا السؤال .

الإنسان يصنع شيئا لا يستطيع تحريكه .

الذي جعل هذا ممكنا عقلا في حال الإنسان هو أن الإنسان لا يخلق المواد التي يركب منها ما يصنع ، فهو مثلا ينقل حجرا يستطيع حمله ، ثم يضيف إليه حجرا آخر مثله ، وهكذا ، فإذا تجمعت هذه الحجارة في بناء ؛ لم يقدر على تحريكه ؛ لأن تحريكه يحتاج إلى قوة فوق قوته .

أإذا بنى البناء بيتا يستطيع أن يحمله على كاهله ؟! أو أن يجعله على ظهر حمار ؟!

إذا ؛ فإذا تجمعت هذه الحجارة في بناء ؛ لم يقدر على تحريكه ؛ لأن تحريكه يحتاج إلى قوة فوق قوته ؛ لكن الخالق هو خالق كل شيء ، فلا يمكن أن يعجزه شيء .

فالإجابة يسيرة كما ترى ؛ لأن السؤال متناقض ، وكذلك في سائر هذه الشبهات التي يأتي بها أولئك القوم .

قال بعض الفلاسفة : إن أهم مقدمة يقوم عليها هذا الدليل : هو أنه لا بد لكل حادث من سبب ، ولكن ما الدليل على هذا ؟ لماذا لا تحدث بعض الأشياء بغير سبب ؟

مر من قبل أنه إذا لم يكن للحادث سبب ؛ فلا مناص من القول إما بأنه جاء من العدم المحض ، أو أنه خلق نفسه ، أو أنه أحدثه حادث مثله ، وقد مر بيان فساد القول بكل هذا .

لم يبق إلا القول بأنه لا بد للحوادث من أسباب ، ثم إنك تجد بعض القائلين بإنكار السببية هؤلاء حين يكون الأمر متعلقا بوجود الخالق ، هم من أكثر المتمسكين بالسببية ؛ حتى يكون الأمر لهم .

أما إذا كان دفاعا عن فاعلية الخالق أو عن خالقية الخالق العظيم ؛ فإنهم يردون قانون السببية ، فهؤلاء متلاعبون ، هؤلاء حمقى مخرفون ، وأكثرهم يعلمون أنهم ضالون مضلون .

{ من الخالق ؟ وما صفاته ؟ }

فإذا ؛ ثبت بالدليل العقلي كما ثبت بدليل الفطرة كما ثبت بدليل الهداية كما ثبت بدليل العناية كما ثبت بدليل الآيات كما ثبت بالدليل الخلقي فيما مر ذكره في الرد على الملحدين ، ثبت بهذا جميعه أنه لا بد من مسبب أو سبب لكل مسبب ، ولا بد للمخلوق من خالق ، ولا بد للموجود من موجد ؛ ولكن من هو الخالق ؟

الدليل العقلي أوصلنا إلى وجود خالق للكون ؛ فمن هو هذا الخالق ؟

إنه لا يمكن عقلا أن يكون شيئا غير الخالق الحق الذي تدركه الفطرة ، والذي دعت إلى عبادته رسل الله ، أي أن الخالق الذي أوصلنا إليه الدليل العقلي هو الخالق نفسه الذي يحدثنا عنه النص الديني : القرآن العظيم ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأن الله الذي خلق الكون وجعله دليلا على وجوده هو الذي أنزل الكتاب مصدقا لشهادة الكون ومفصلا لتلك الشهادة .

وإليك الأدلة على ذلك :

استنتجنا من وجود الأشياء الحادثة وجود خالق لها ، واستنتجنا بعض صفات هذا الخالق ، ويمكن أن نستنتج من تلك الصفات صفات أخرى هي صفات الخالق الحق جل وعلا .

من هذه الصفات :

صفة الخالقية : أنت تثبتها للسبب ، تثبتها للموجد ، تثبتها للمؤثر ، تثبتها للخالق ، فلا بد من أن تكون له صفة الخالقية ، وقد وردت في مثل قوله تعالى : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) } ، وقوله تعالى : { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } ، وقوله تعالى : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)}، وقوله تعالى : {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)} ، وقوله تعالى : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .

فإذا استنتجنا بالدليل العقلي وجود السبب ، ونستنتج أيضا بالدليل العقلي ثبوت صفة الخالقية له جل وعلا .

كذلك نستنتج صفة أخرى وهي كونه أزليا .

هنالك صفات أخرى يمكن استنتاجها عقليا من هاتين الصفتين وصفات يمكن استنتاجها من تلك الصفات المستنتجة .

صفة الأبدية :

مر من قبل البرهان الدال على أن صفة الأزلية تستلزم صفة الأبدية ، فالأول هو الآخر ، الأول الذي لا قبل له هو الآخر الذي لا شيء بعده ، وما سمي بالأزلية والأبدية في أمثال هذه الأدلة العقلية هما الصفتان الواردتان في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :{هو الأول والآخر} ، فالأولية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه : اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ .

فالأولية والآخرية هي الأزلية والأبدية ، وقد ورد في القرآن العظيم ، وورد تفسير في سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما مر .

فالله تعالى سابق في وجوده لكل موجود ، لأنه هو الذي أعطاه الوجود ، فهو بهذا المعنى أول ، وهو باق بعد زوال كل مخلوق زائل ، فهو بهذا المعنى آخر ، فأشار ربنا تبارك وتعالى بقوله : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) } ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : { اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ } .

إذا كان كل ما في الوجود ما عدا الموجود الأزلي حادثا ، وكان هو سببا لكل حادث ؛ فلا حادث يعتمد اعتمادا كليا على حادث غيره ، لا في مجيئه إلى عالم الوجود – أي في ابتداء وجوده – ولا في استمراره موجودا ، وإذا ؛ فكما أن الموجود الأزلي خالق الحوادث وموجدها ؛ فهو حافظها وراعيها ، وهذا معنى الربوبية ، فتستنتج أيضا صفة الربوبية ، فالله عز وجل خالق بمعنى أنه يكون الأشياء ويوجدها ، وهو أيضا رب وحافظ ومقيت ، بمعنى أنه الذي تعتمد عليه المخلوقات في استمرار وجودها ، وهذا هو المعني بآيات ؛ كقوله تعالى : { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ } ، وقوله تعالى : { وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)} ، وقوله تعالى : {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} ، وقوله تعالى : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) } . وإذا كان كل شيء سواه مخلوقا له ؛ فهو معتمد في استمرار وجوده عليه ، وهذا هو معنى صفة القيومية التي وردت في مثل قوله جل وعلا : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ، وقوله جل وعلا : { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ } ؛ لأن القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره .

كذلك تستنتج صفة الأحدية ، فالخالق الأزلي الأبدي القيوم لا بد أن يكون واحدا ، واحدا في ذاته وصفاته ، فلا ثاني له يماثله ، وواحدا في أفعاله لا يشركه في فعلها شيء ؛ لأنه لو شركه ؛ فإما أن يكون الأثر معتمدا عليهما معا بحيث إن أحدهما لا يستطيع الاستقلال به ، وفي هذه الحال يكون كل منهما عاجزا معتمدا في فعله على غيره ؛ لأن كلا منهما ما كان ليستطيع الفعل لو لا موافقة الآخر أو مساعدته ؛ لكن الدليل ساقنا من قبل إلى أن ما كان أزليا لا بد أن يكون قائما بنفسه مستقلا عن غيره ، وإذا ؛ فالذي يعتمد في فعله على غيره لا يكون أزليا ، بل يلزم أن يكون

حادثا ، وإما أن يضاد عمل أحدهما عمل الآخر ، وبذلك ومن باب أولى تنتفي عنهما صفة الأزلية .

هذا الدليل هو الذي سماه علماء المسلمين من قبل : دليل التمانع ، وقد قرره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى تقريرا موجزا وافيا فقال كما في {درء التعارض}{٩ / ٣٥٥ - ٣٥٧} :

وذلك أن هؤلاء النظار قالوا : إذا قدر ربان متماثلان فإنه يجوز اختلافهما ، فيريد أحدهما أن يفعل ضد مراد الآخر ، وحينئذ : إما أن يحصل مراد أحدهما ، أو كلاهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

والأقسام الثلاثة باطلة ، فيلزم انتفاء الملزوم .

أما الأول : فلأنه لو وجد مرادهما ؛ للزم اجتماع الضدين ، وأن يكون الشيء الواحد حياً ميتاً ، متحركاً ساكناً ، قادراً عاجزاً ، إذا أراد أحدهما أحد الضدين وأراد الآخر الضد الآخر . – فإذا نفذت إرادتهما معا ؛ لزم من ذلك وجود الضدين ، وهذا محال –

وأما الثاني : فلأنه إذا لم يحصل مراد واحد منهما ؛ لزم عجز كل منهما ، وذلك يناقض الربوبية.

وأيضاً فإذا كان المحل لا يخلو من أحدهما ؛ لزم ارتفاع القسمين المتقابلين ، كالحركة والسكون ، والحياة والموت ، فيما لا يخلو عن أحدهما.

وإن نفذ مراد أحدهما دون الآخر ؛ كان النافذ مراده هو الرب القادر، والآخر عاجزاً ليس برب ، فلا يكونان متماثلين .

فلما قيل لهم: هذا إنما يلزم إذا اختلفت إرادتهما، فيجوز اتفاق إرادتهما.

أجابوا بأنه إذا اتفقا في الآخرة امتنع أن يكون نفس ما فعله أحدهما نفس مفعول الآخر، فإن استقلال أحدهما بالفعل والمفعول، يمنع استقلال الآخر به، بل لا بد أن يكون مفعول هذا متميزاً عن مفعول هذا .

وهذا معنى قوله تعالى: {إذا لذهب كل إله بما خلق} [المؤمنون: ٩١].

وهذا ممتنع، فإن العالم مرتبط بعضه ببعض ارتباطاً يوجب أن الفاعل هذا ليس هو مستغنياً عن فاعل الآخر، لاحتياج بعض أجزاء العالم إلى بعض .

وأيضاً فلا بد أن يعلو بعضهم على بعض ، فإن ما ذكرناه من جواز تمانعهما ، إنما هو مبني على جواز اختلاف إرادتهما .

وذلك أمر لازم من لوازم كون كل منهما قادراً ، فإنهما إذا كانا قادرين ؛ لزم جواز اختلاف الإرادة .

وإن قدر أنه لا يجوز اختلاف الإرادة ، بل يجب اتفاق الإرادة ؛ كان ذلك أبلغ في دلالته على نفي قدرة كل واحد منهما ، فإنه إذا لم يجز أن يريد أحدهما ويفعل إلا ما يريده لآخر ويفعله ؛ لزم أن لا يكون واحد منهما قادراً ، إلا إذا جعله الآخر قادراً ، ولزم أن لا يقدر أحدهما إلا إذا لم يقدر الآخر .

وعلى التقديرين يلزم أن لا يكون واحد منهما قادراً ، فإنه إذا لم يمكنه أن يريد ويفعل إلا ما يريده الآخر ويفعله ، والآخر كذلك ، وليس فوقهما أحد يجعلهما قادرين مريدين ؛ لم يكن هذا قادراً مريداً حتى يكون الآخر قادراً مريداً .

وحينئذ فإن كان كل منهما جعل الآخر قادراً مريداً ؛ كان هذا دوراً قبلياً ، وهو دور في الفاعلين والعلل .

كما لو قيل : لا يوجد هذا حتى يوجده هذا ، ولا يوجد هذا حتى يوجده الآخر ؛ فإن هذا محال ممتنع في صريح العقل . اه

هنالك صفة أخرى نستنتجها مما مر تقريره بالدليل العقلي ، وهي صفة عظيمة الشأن ؛ لأنها ستكون المفتاح لما يليها من صفات ، والبرهان الحاسم على أن الموجود الأزلي الذي قادنا إليه البرهان هو الإله الذي يحدثنا عنه القرآن ، ولكن فلنبدأ بهذا السؤال : كيف تصدر المخلوقات عن ذلك الخالق الأزلي ؟

نعرف من تجربتنا طريقتين لصدور الحوادث ، فالأشياء الجامدة وبعض الأشياء الحية تصدر عنها آثارها صدورا طبيعيا أو قل : قسريا ، وأما بعض الأشياء الحية الأخرى – وأرقاها : الإنسان – ؛ فإن بعض آثارها تصدر عنها صدورا إراديا .

فهل تصدر الحوادث عن القادر صدورا قسريا يقتضيه خالقيته من غير شعور منه ولا تدبير ؛ أو أنها عنه بإرادته إن شاء فعل وإن شاء ترك ؟

كيف يمكن لهذه الحوادث المختلفة التي نشاهدها أن تصدر عن الخالق صدورا يقتضيه خالقيته من غير شعور منه ولا قصد ولا إرادة ؟

دعنا نحاول فهم ذلك ؛ بأن نأخذ مخلوقا واحدا ، وليكن الإنسان :

ولنتساءل : كيف أوجده الخالق ؟

إذا قلنا أن وجود الإنسان أمر تقتضيه خالقية الخالق ؛ فيلزمنا القول بأن الإنسان أزلي مع الخالق ؛ لأنه من المستحيل عقلا أن يوجد الشيء ولا يوجد معه الشيء الذي تقتضيه طبيعته ، لكننا نعرف أن عمر الإنسان ليس من الأزلية في شيء ، بل عمر لا يتجاوز بضع آلاف من السنين ؛ فكيف تأخر عن الخالق شيء تقتضي طبيعته وجوده ؟

قد يقال : إن طبيعته اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه من غير تقدم ولا تأخر ، لكن هذا قول من لا يتصور معنى الأزلية ولا معنى الاقتضاء ؛ لأننا إذا فرضنا الشيء موجودا من غير أن يوجد معه ما يقتضيه طبعه ؛ فكأنما فرضناه موجودا بطبع سوى طبعه ، وإذا لم نقل : إنه أمر يقتضيه طبعه ؛ فماذا نقول ؟

أنقول : إنه يحدث آثاره كما تحدث المخلوقات الطبيعية آثارها ؛ كالمطر ينبت الزرع ، والزرع الذي يخرج المطر ، والدفع الذي يحرك الحجر ، والضرب الذي يقتل وهكذا ؟ لكنك إذا تأملت هذه الأسباب الطبيعية وجدتها كما كان يقول علماؤنا : لا تستقل بفعل ، بل إن أفعالها كلها تعتمد على توفر شروط خارجة عنها ، فالمطر لا ينبت الزرع إلا إذا كان السحاب قد ساقه إليه ، وإلا إذا كانت درجة الحرارة مناسبة لتحول السحاب إلى قطرات ماء ، وإلا إذا كانت هناك جاذبية تسمح بسقوطه لا ببقائه معلقا في الهواء ، وإلا إذا كانت هناك أرض صالحة للزرع ، وإلا إذا كان فيها بذر صالح للإنبات ، وإلا إذا توفر له الأكسجين ، وهكذا وهكذا إلى ما لا يكاد يحصر من هذه الشروط والأسباب الخارجة عن نطاق الماء النازل من السماء .

فإذا قلنا : إن الخالق أيضا لا يخلق إلا بمثل هذه الشروط والأسباب الخارجية عن قدرته ؛ لم يعد هو الخالق الذي مر التدليل على وجوده ؛ لأن الدليل ساقنا إلى خالق هو خالق لكل شيء ، فمن التناقض أن نقول : إنه خالق لكل شيء ، ثم نقول : إنه لا يخلق إلا بشروط وأسباب خارجة عن إرادته .

من الذي خلق إذا تلك الأسباب ؟ وإذا لم يكن الخالق خالقا بالطبع ؛ فالمعنيين اللذين ذكرناهما – أي بهذا المعنى وهذا – ؛ فلم يبق إلا أن يكون خالقا بالإرادة ، وإذا فهذا الخالق مريد ، وهذا هو الوصف الذي ورد وصفه به في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} ، وقوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}، وقوله تعالى : {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)}، وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } ، وقوله تعالى : { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)} ، وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}، وقوله تعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} .

فصفة الإرادة لا بد من إثباتها لله تبارك وتعالى ، حتى الذين كانوا يثبتون وجود الخالق العظيم وينفون الصفات ، ويعطلون الله تعالى من كمالاته ومن صفاته ، لم يستطيعوا نفي صفة الإرادة ؛ لأنها لا بد أن يثبتها العقل ، وقد مر في كلام علماءنا المتقدمين أن الإرادة هي تخصيص كل ممكن بأحد وجوهه الممكنة .

كل ما تراه ممكن ، وخصص بوجه من وجوهه الممكنة في الوجود ، فالسماء هي السماء على هذا النحو ، لماذا كانت كذلك ؟ كان يمكن ألا تكون كذلك ، والأرض كذلك ، والشجر والحجر والجبال والدواب بل الإنسان ، لماذا وجدت على ما أنت عليه من حيث الطول واللون والفهم والذكورة إلى غير ذلك ؟ كان يمكن أن يكون أنثى لا ذكرا ، والأنثى كذلك ، كان يمكن أن تكون ذكرا ؛ فلم خصص هذا بالذكورية وخصصت تلك بالأنوثة ، وكذلك كان يمكن أن يكون هذا وهذا خنثى مشكلا أو خنثى غير مشكل ؟

فتخصيصه بهذا دليل على اتصاف الخالق العظيم بصفة الإرادة ، لذلك كانوا لا يستطيعون عنها فكاكا ، هم ينكرون سائر صفات الرب تبارك وتعالى ، فإذا قال لهم المثبتون من أهل السنة : هل

تنفون عن الله صفة الإرادة ؟ قالوا : لا ، نثبت لله صفة الإرادة ، فكان أهل السنة يأخذون بخناقهم ، إذا أثبتوا صفة الإرادة ؛ قالوا لهم : شبهتم قانونكم ؛ لأنهم كانوا يقولون لأهل السنة : أنتم إذا أثبتم لله السمع والبصر إلى غير ذلك من صفات الكمال الإلهي ؛ فأنتم مشبهون ، فكانوا ينفونها بزعم التنزيه ، فيقول لهم أهل السنة : هل تثبتون الله صفة الإرادة ؟ لا يمكن أن يقولوا : لا نثبتها ؛ لأن هذا الخلق كله يدل على صفة الإرادة لله تبارك وتعالى ، فيقول لهم أهل السنة : شبهتم ، فيقولون : كيف ؟

فيقول لهم أهل السنة : أثبتم لله الإرادة وقد أثبت الله الإرادة لكثير من خلقه حتى أثبتها للجدار {يريد أن ينقض فأقامه} ، فيقولون : لا ، إنما أثبتنا صفة الإرادة لله تبارك وتعالى على أنها إرادة لا كإرادة المخلوق ، فيقال لهم : القول في صفة من الصفات كالقول في سائر الصفات ، ونحن نثبت لله سمعا لا كسمع المخلوق ، وبصرا لا كبصر المخلوق ، فإذا ؛ صفة الإرادة يستدل العقل عليها بمجرد النظر في خلق الله تبارك وتعالى .

إذا كان مريدا ؛ فيلزم أن يكون عالما ؛ لأن الإرادة تستلزم العلم ، لأنها : تخصيص الممكن بوجه من وجوهه الممكنة ، فصفة الإرادة تستلزم صفة العلم ، كيف تريد ما لا تعلم ؟!

إن من يفعل شيئا بغير علم لا يقال : إنه أراده ، بل يستشهد بعدم علمه بما فعل على عدم إرادته له ، وما دام هذا الخالق هو الخالق لكل شيء ؛ فيلزم أن يكون عالما بكل شيء ، قال تعالى : {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} ، وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)} .

فإذا ؛ نثبت لله صفة الإرادة ، ولا بد من إثبات صفة العلم ، وعلمه بما في مخلوقاته من أشكال وألوان وأحوال يقتضي أن يكون سميعا بصيرا ، ولذلك فكثيرا ما يقرن القرآن الكريم بين صفتي العلم ، والسمع والبصر : قال تعالى : {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) } ، وقال تعالى : { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)} ، وقال تعالى : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)} ، وقال تعالى : { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)} .

وإذا كان عالما مريدا سميعا بصيرا ؛ فلا بد أن يكون حيا ؛ لأنه إذا لم يكن حيا ؛ لم يكن مريدا ، ولم يكن عالما ، ولم يكن سميعا ، ولم يكن بصيرا ، فصفة الحياة من لوازم هذه الصفات ، أي أن الشيء لا يمكن أن يكون مريدا عالما سميعا بصيرا ، ثم يكون مع ذلك ميتا ، أو يكون جمادا ، بل لا بد أن يكون حيا ، وأن تكون حياته أرقى أنواع الحياة ، قال تعالى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) } ، وقال تعالى : { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)} ،وقال تعالى :{ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)}.

هذا القدر من الصفات يكفي الآن لبيان أن الخالق الذي دلنا العقل على وجوده هو الخالق الذي دعانا الشرع للإيمان به وعبادته ، وهناك كثير من الصفات غيرها مذكورة في الكتاب والسنة الصحيحة .

وعليه ؛ فإن كل محاولة لجعله مادة من المواد أو كائنا من هذه الكائنات ، إنما هو شطط من القول ؛ لأن كثيرا من أولئك الضلال يسلمون بالدليل العقلي ، فيقولون : نعم ، سلمنا بأنه لا بد لكل مسبب من سبب ، سلمنا بأنه لكل موجود موجدا ، وأن لكل مخلوق خالقا .

فيقال لهم : وهذا الخالق من هو ؟

فأما المؤمنون ؛ فإنهم يمدون الخط على استقامته ويقولون : هذا الخالق الذي دلنا العقل بأدلته العقلية –كما مر – على وجوده له هذه الصفات ، فإذا رجعنا إلى كتاب ربنا وسنة نبينا ؛ وجدنا الصفات التي هدانا إليها العقل مذكورة لله تبارك وتعالى ، ووراء ذلك من الصفات ما قرره الله رب العالمين في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فلننتقل في الحديث من هذه الصفات إلى الذات الحاملة لهذه الصفات :

{ الحديث عن الذات الحاملة لهذه الصفات السابقة }

الأمور التي نتحدث عنها نوعان : نوع له وجود خارجي مستقل عن أذهاننا ، فهو موجود ؛ سواء علم الناس أو غيرهم من المخلوقات بوجوده أم لم يعلموا ، ونوع له وجود في أذهاننا ، ولا وجود له إلا في أذهاننا فقط ، وهذا لا يوجد إلا إذا وجدت الأذهان ، وليس هنالك من نوع ثالث ، وإنما هو العدم المحض .

مثال النوع الأول : هذه المخلوقات التي نشاهدها لها وجود خارجي مستقل عن أذهاننا ، من أناس وحيوانات وبحار وأنهار ، وما لا نشاهده ؛ كالمخلوقات التي تسكن في قاع البحار ، وكالمخلوقات التي أخبرنا عنها ربنا ولم نرها من ملائكة وجن وجنة ونار .

مثال النوع الثاني : ما يتعاورنا من أحوال نفسية من سرور وحزن ، وحب وبغض ، ورجاء ويأس ، وما نستحدثه بخيالنا من كائنات ؛ كالغول والعنقاء ، وما نتصوره من معان مجردة كالزيادة والنقصان ، فهذا يوجد في أذهاننا ، نحن نحس ونشعر بالحب والبغض ، وباليأس وبالرجاء ، وبالسرور وبالحزن ؛ ولكن أين هذا ؟! هل له وجود مستقل خارجي ؟! هذا إنما نحسه ولا يوجد في الأعيان ، إنما يوجد في الأذهان .

وما نتصوره من معان مجردة كالزيادة والنقصان ، وما نجرده من الموجودات ؛ كجنس المادة وجنس الإنسان ، أي : المادة التي لا تتصف بصفة من الصفات .

الإنسان الذي يشار إليه بالبنان ، الموجودات كلها ؛ سواء ما كان منها ذا وجود حقيقي موضوعي ، أو وجود ذهني ؛ لها خصائص تميزها عن المعدومات ، فالموجود سواء كان في الأعيان أو كان في الأذهان ؛ له خصائص تميز هذا الموجود عن المعدوم .

أهم هذه الخصائص : كونها توصف بصفات ثبوتية ، فالنهر عميق أو ضحل ، طويل أو قصير ، كثير التعرج أو قليله .

الفكرة التي في الذهن – وهي من الموجود في الأذهان – واضحة أو غامضة ، معقدة أو يسيرة ، حسنة أو خبيثة ، فالموجودات كلها تتميز إذا عن المعدومات بكون الأخيرة لا يمكن أن توصف بصفة ثبوتية ، فأنت لا تستطيع أن تصف المعدوم بصفة ثبوتية ، ويمكن أن توصف تلك المعدومات بما لا نهاية له من الصفات السلبية ، فإذا لم يكن الشيء موجودا بل كان معدوما ؛ أمكن أن نقول

عنه : أنه ليس بطويل ولا قصير ، ولا فوق ولا تحت ، ولا في هذه الجهة ولا في تلك ، ولا مادة ولا روح ، ولا تراه الأعين ولا تسمعه الآذان ، ولا تلمسه الأيدي ولا تشمه الأنوف ، ولا يتحرك ولا يسكن ، وهكذا وهكذا إلى ما لا نهاية له من هذه السلوب ، فهذا كله للمعدوم .

الموجودات الخارجية الموضوعية لها خصائص تميزها ليس عن المعدومات فحسب ، بل عن الموجودات الذهنية – إن صح أن تسمى تلك الموجودات الذهنية بالموجودات أصلا – .

مما يميزها : كونها لها ذوات تحمل صفاتها ، ولها صور تميز كلا منها عن غيره من الموجودات .

من أهم خصائصها : كونها مما يمكن من حيث المبدأ مشاهدته والإشارة إليه ، فهي بهذه الصفة كلها محسوسات ، وما لا يمكن مشاهدته على الإطلاق تحت أي ظرف من الظروف ، وبأي موجود من الموجودات ؛ فهذا لا وجود حقيقي له ، بل إما أن يكون عدما ، أو أن يكون أمرا ذهنيا مجردا .

وأما الموجودات التي لها واقع خارجي حقيقي ؛ فهذه هي التي يمكن أن تبصر بالأعين ، وأن يشار إليها حيث هي .

فماذا تقول الآن عن الخالق ؟

إنه لا يمكن أن يكون عدما ، هذا أمر بديهي ، وإذا لم يكن عدما ؛ فلا بد أن يوصف بصفات ثبوتية ؛ لأن العدم وحده هو الذي لا يوصف بالصفات الثبوتية ، وإنما يوصف بالصفات السلبية .

ولا يمكن أن يكون ذا وجود ذهني مجرد ؛ لأنه هو خالق الأذهان ، فوجوده سابق للأذهان .

لم يبق إذا إلا أن نقول : إنه ذو وجود خارجي حقيقي موضوعي ، وإذا قلنا ذلك ؛ لزمنا القول بأنه شيء كما أخبر عن نفسه ، فقال تعالى : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ } ، وأن له ذاتا تحمل صفاته ، وأن له صورة ، وأن له كيفا يتميز به عن مخلوقاته ، وهذا الكيف يتعلق بصفاته ، ونحن نثبت ذلك الكيف ؛ ولكننا نقطع الطمع عن معرفته وعلمه ، فليس معنى أننا نقول : نحن نعرف الصفة ونعرف معنى الصفة ، ولكننا نفوض الكيف إلى الله تعالى ؛ أنه ليس له كيف ، بل قولنا هذا : نفوض الكيف إلى الله ، دليل على أن للصفة كيفية ، ولكن نحن لا نعرفها بدليل قولي : ونفوض الكيفية إلى الله .

فإذا كان كذلك ؛ لزم إمكان رؤيته ، بل لزم أيضا إمكان الإشارة إليه كما فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن هذه صفات لازمة لكل موجود ، خالقا كان أم مخلوقا ، فما لا يتصف بها لا يكون موجودا حقيقيا ، دعك أن يكون خالقا ، وبعض الناس سيقف شعرهم من هذا الكلام ؛ كالأشاعرة والماتريدية والمعطلة وغيرهم ؛ لأن بعض الأفكار الفلسفية المادية وجدت طريقها مع الأسف إلى العقيدة الإسلامية منذ زمن بعيد ، فأفسدت على الناس فطرهم ، ثم أفسدت عليهم عقولهم ، فجعلتهم يأنسون إلى ما تنفر منه الطباع الفطرية ، ويقررون ما تنكره العقول السوية .

أصل هذه الفلسفة المادية التي تأثر بها الجهمية والمعتزلة من ناحية ، والمشبهة المجسمة من ناحية أخرى : أن الموجود حقيقة هو هذه المخلوقات المادية المشاهدة ، فإذا كان الشيء موجود ؛ فلا بد أن يكون مثلها ، وإلا فما هو بموجود .

مال المشبه إلى جانب إثبات وجود الخالق ، ولما كان الموجود عندهم – كما مر بحسب تلك الفلسفة – لا بد أن يكون مشابها لهذه الموجودات المخلوقة ، فقد شبهوا الله سبحانه بمخلوقاته ، فجعلوا صفاته من سمع وبصر وكلام ويد وعين مشابهة لصفات الأجسام الحادثة هذه ، قالوا : مع فارق في العظم والقوة ، فإلى هذا صار وذهب المشبهة .

وأما الجهمية ؛ فمالوا إلى جانب تنزيه الخالق عن مخلوقاته ؛ لكنهم لما اعتقدوا أن الموجود حقيقة لا بد أن يكون جسما كهذه الأجسام ؛ اعتقدوا أن كل صفة توصف بها هذه المخلوقات لا يمكن أن يوصف بها الخالق ، وإلا كان مشابها له ، فصار غلاتهم ينكرون كل الصفات الثبوتية للخالق ، أو يأولونها تأويلا يعطل معانيها ، ولا يصفونه إلا بالأوصاف السلبية ، فهم يقولون : لا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا يسار ، ولا أمام ولا خلف ، ولا موجود ولا معدوم ، إلى غير ذلك مما إذا وصف العدم به ؛ قيل : هذا هو العدم حقا ، ولا يوصف العدم بأبلغ منه .

وأما غير الغلاة منهم – وتندرج تحت هؤلاء جماعات كالأشاعرة وغيرهم – ؛ فجعلوا يفعلون هذا مع بعض الصفات دون بعض ، ينكرون أو يأولون من الصفات ما يرونه دالا على المشابهة ؛ كالذات والعين واليد ، ولكن ما لا يوصف إلا بالصفات السلبية إنما هو العدم – كما مر – .

لقد فر الجهمية من تشبيه الخالق بالمخلوقات ، فوقعوا فيما هو شر منه ، وهو تشبيهه بالمعدومات ، لذلك قال أهل السنة : إن المجسمة يعبدون صنما ، والمعطلة يعبدون عدما .

فهذا التصور الجهمي التعطيلي للخالق العظيم صار مع الأسف الشديد التصور الشائع الآن بين جماهير المثقفين من المنتسبين إلى الإسلام ، وإذا كان أصل البلاء إنما جاء من الفلسفة اليونانية المادية ؛ فإن هذه الفلسفة هي الإلف الفكري الذي ورثه الغرب ، وبنى عليه فلسفته المادية الحديثة ، وإذا كانت المادية القديمة هي الأصل الذي نشأت عنه المشكلة ؛ فإن المادية الحديثة هي الغذاء الذي يمدها اليوم بالحياة .

لقد تغلغل الفكر المادي المعاصر في تصورات الناس كما لم يتغلغل الفكر المادي الأول ، فصار جزءا من مفهوم العلم ، بل صار عند كثير من الناس- حتى المعارضين له – جزءا من مفهوم العقل ، لذلك صرت ترى المؤمنين المستمسكين بالدين الحق يصفون أصحاب هذا الاتجاه بالعقلانيين ، فجعلوا أولئك المعطلة النفاة آخذين بالعقل ، كأنما العقلانية والدين الصحيح لا يجتمعان .

أما أهل السنة السابقون ؛ فكانوا يسمونهم بأهل الأهواء ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن العقل لا يمكن أن سببا للضلال ، وإنما الذي يسبب الضلال هو اتباع الهوى ، فقالوا : هم أهل الأهواء .

مشكلة المعطل : أنه يريد أن يكون ماديا ، ويريد مع ذلك أن يكون مؤمنا بالله ، ولهذا يقع في تناقض لا مخرج له منه إلا باللجوء إلى التعطيل أو غير التعطيل .

إن ماديته تقتضيه أن يقول : إنه لا موجود إلا ما كان مركبا من هذه المادة ، فهذه ماديته تقضي بهذا ، وإيمانه يقتضيه القول بوجود موجود غير مركب من المادة ، فهو لا يريد أن يصف الخالق بأي صفة ثبوتية لأن هذا يجعله ماديا ، ولا يريد أن ينفي عنه صفة الوجود لأن هذا يتناقض مع إيمانه ، فيبقى مؤمنا بوجود شيء يصفه بأنه في كل مكان ، وأنه لا يحده زمان ولا مكان ، وأنه مطلق لا يشار إليه بالبنان ، ولا صورة له ، ولا يوصف بعلو ولا انخفاض ، ولا بكونه داخل العالم ولا خارجه ، وأنه لا يرى ولا يتكلم ولا يتحرك ولا يرى ، إلى غير ذلك من هذه السلوب .

أليس من حق الملحد المنكر لوجود الخالق أن يقول لأمثال هؤلاء : ما الفرق الحقيقي بيني وبينكم ؟ إنكم تصفون هذا المعدوم بكونه خالقا ، وأنا أقول : ما دام معدوما فليس هنالك من خالق ، لكن إذا اتفقنا على الحقائق ؛ فلا مشاحة في الألفاظ .

أما وقد ظهر أن هذا الموقف التعطيلي من صفات الخالق العظيم سبحانه ليس موقفا عقلانيا ؛ فقد آن أن يتبين الآن أنه ليس أيضا بموقف إسلامي ؛ لأنه يخالف صريح النصوص القرآنية والسنية ، ولأن تأويلاته تخالف قواعد اللغة التي نزل بها هذا القرآن المجيد وجاءت بها هذه السنة المجيدة الرشيدة ، فهو مخالف للعقل والفطرة والحس واللغة والنقل .

الصفات التي دلل عليها فيما مضى بالعقل والشرع يلزم أن تكون ثبوتية حقيقية .

العلاقة بين الذوات وبعض الصفات علاقة ضرورية ، أي: أنه إذا كانت هنالك ذات أو ذوات ؛ فلا جرم تكون لها صفات ، فإنه لا توجد ذات لا توصف بصفة ، فإذا وجدت الذات ؛ فلا بد من أن تكون الذات موصوفة ، هذا أمر حتمي يقضي به العقل ، على الأقل توصف بأنها موجودة ، وإلا فكيف تثبت ذاتا ولا تثبت لها الوجود ؟!

فإذا قال : هو وجود لا كالوجود في المخلوقات ؛ فيقال : وكذلك سائر الصفات .

أنه إذا كانت هنالك ذات أو ذوات ؛ فلا جرم تكون لها صفات ، فالصفات لا تكون مجردة عن الذوات ، ولا الذات تكون مجردة عن الصفات إلا في الأذهان ، وهذا ما مر ذكره كثيرا : أن هذا المطلق – أعني المطلق الكلي – هو الذي يوجد في الأذهان ولا يكون في الأعيان ؛ لأنه إن وجد في الأعيان ؛ صار من كونه موجودا في الأذهان إلى تحققه في الأعيان ؛ كالوجود ، فصفة الوجود تثبتها للخالق العظيم الذي أوجد كل موجود ، وتثبتها للموجودات ، هذه الصفة عندما تقول : أنا أثبت لله تبارك وتعالى هذه الصفة ؛ فيقال لك : ولكنها ثابتة أيضا للمخلوق ، فأنت تقول : أنا أثبت القدر المشترك أو ما يقال له {الكلي العام}، فهذا يكون متحققا في الأذهان لا متحققا في الأعيان ، فإذا ما صار وجود الخالق له ؛ كان على قدره ، فتكون الصفة على قدر الذات ، فيكون وجود الخالق العظيم على قدر ذاته ، وذاته ليس كمثلها ذات ، فوجوده ليس كمثله وجود ، ويكون

وجود كل موجود على قدره ، فالوجود للحجر سوى الوجود للنبات سوى الوجود للحيوان سوى الوجود للإنسان ، إلى غير ذلك من أصناف الموجودات .

إذا ؛ عندنا هذا القدر المشترك ، فهذا يثبته العقل ، وهو معنى قول أهل السنة : إننا نفهم المعنى ، يعني {الرحمن على العرش استوى} ، نحن نفهم ونعرف معنى الاستواء ، ولكن إذا قيل : استوى الرحمن على عرشه ؛ صار استواؤه له ، فيكون لائقا بذاته ، وكذلك إذا قال قائل : استوى الرجل على ظهر الدابة ، استوت السفينة على الجودي أو على الجبل ؛ فيكون استواء كل على قدر كل .

فالصفات تكون على قدر الذوات ، وأما أن تفرض ذاتا مجردة من الصفات ؛ فهذا لا يكون إلا في الأذهان ، ولا يكون في الأعيان ، أما الواقع المعاين ؛ فلا يعرف صفات مجردة ، ولا يعرف ذاتا مجردة من الصفات .

هذا ما يقضي به العقل ، وهذه هي الأدلة قد أدت بنا في نهاية الأمر إلى هذا السؤال – وهو : إذا كان هذا الكون مخلوقا لخالق ؛ فمن هو هذا الخالق ؟ – .

إذا ؛ الأدلة العقلية إلى ما يضم إليها من أدلة الفطرة وأدلة الآيات وأدلة الحس ، بل وأدلة الإجابة ، فدليل الإجابة يعرفه كل إنسان بتجربته : يقع في الضائقة فيسأل ربه ويتوجه إليه – ولو كان كافرا – ، فيأتي التفريج عنه ، وتأتي الإجابة له ، فيستدل بذلك على وجود الخالق العظيم .

فالدليل العقلي مضموما إليه ما مر من سائر الأدلة دلنا علة وجود خالق لهذه المخلوقات وموجد لهذا الوجود ، فيأتي السؤال : ومن هو الخالق ؟

هو الذي دلنا عليه الكتاب المجيد ، ودلنا على صفاته ، ودلنا كذلك نبينا صلى الله عليه وسلم على صفاته في سنته الشريفة .

فهذا هو المطلوب إثباته ، والحمد لله رب العالمين .

{منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية على وجود الخالق العظيم }

منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية على وجود الخالق العظيم هو المنهج الذي تقره الفطرة ، ويسلم له العقل ، ويشهد به الحس ، إلا أن الملحدين – كما هو معلوم – ينكرون أصلا أن يكون

القرآن من لدن ربنا جل وعلا لأنهم ينكرون وجود الباري سبحانه ، وبالتالي ينكرون الوحي ، وينكرون الرسالة ، وينكرون البعث ، وينكرون الجزاء .

في كتاب {العقيدة في الله} :

يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض ، ويقف بنا عند زهرات الحقول ، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها ، وهو في كلّ ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا ، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات ، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين ، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء ، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا.

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها ، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس ، ويلذه السمع ، ويستثير المشاعر والأحاسيس .

ولقد طالعت الكثير مما توصل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة يبينون أسرار الخلق ، ودلالة الخلق على الخالق ، فما وجدت في شيء من ذلك كلّه ما وجدته في القرآن من جمال وصف ، ووفرة علم ، واستثارة مشاعر ، وحسن توجيه ، ودقة استنتاج ، وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل الحكيم الحميد!!

تعال معي لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجاء الكون :

في الحبّة تلقى في التربة فتنفلق ، وتضرب بجذورها في التربة ، فيخرج من الحبّة الجامدة حياة تتمثل في سوق ، وأوراق ، وأزهار تفوح بالشذى ، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان .

وفي الإصباح وهو ينبلج ، وفي سكون الليل الساجي ، ومسير الشمس والقمر : { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) } [الأنعام: ٩٥-٩٦] .

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله ، والبرد كيف يكوّنه ويصرفه: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) } [النور: ٤٣] .

ويحدثنا الله عن فعله في الظلّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) } [الفرقان: ٤٥-٤٦]

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) }[آل عمران: ٢٦-٢٧] .

لا يكتفي القرآن بأن يرينا قدرة الله وهي تعمل في الكون ، وعلمه يحيط بالمخلوقات ، وتصريفه للشؤون المختلفة ؛ ولكنّه - مع ذلك - يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها .

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة: ٢٩] خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح ، وهذا ما سماه القرآن بالتسخير.

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار ، وإنّما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [لقمان: ٢٠] ، والنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) } [الأنعام: ٩٧] .

والأرض والسماء ، وإنزال الماء من السماء ، والسفن السابحة في البحر، والأنهار الجارية في جنبات الأرض ، والشمس والقمر ، وتعاقب الليل والنهار ... كلّ ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ

لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) }[إبراهيم: ٣٢-٣٤] .

عرّفنا القرآن بأنّ الله خلق هذا الكون وسخّره لنا ، فجعله متوافقاً مع جبلتنا ، وقدّره تقديراً تصلح به حياة الإنسان ، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربّه ، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه : { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) } [الرحمن: ٦٠] .

ولذلك فقد أفاض القرآن في ذكر النعم التي حباها الله عباده في ذوات أنفسهم : { قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) } [الملك: ٢٣] ، وكذلك جعلها مبثوثة في الكون من حولهم : { وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عليه} [الزخرف: ١٠-١٣] .

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس: ٥] .

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام ، وكذلك الخيل والبغال والحمير ، خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) } [النحل: ٥-٨] .

والبحر مخلوق لنا أيضاً ، وفي خلقه على ما هو عليه ما يحقق لنا الشيء الكثير : { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) } [النحل: ١٤] .

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع ؛ لينتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان ، ليتغذى به البشر ، ويكون لهم شفاء : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) } [النحل: ٦٨-٦٩] .

وقد حث القرآن عباد الله على النظر في آيات الله الكونية : الأرض ، والسماء، وما فيهما وما بينهما ، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين .

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك ، وقد يكون السير والنظر حسيّان ، فيسير المرء بقدميه ، وينتقل من بلد لآخر ، كما قد يكون النظر بالبصر ، وقد يكونان بالفكر والعقل .

وقد جاء الأمر في القرآن أمراً عاماً : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس: ١٠١] ، وقد يأتي أمراً خاصاً : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) [عبس: ٢٤] .

ويتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين ، ويقيم بها الحجة عليهم : { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) } [الأنبياء: ٣٠-٣٢] .

ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم ، فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها، وتتخذ آلهة من دون الله: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) } [النمل: ٥٩-٦٤] .

إنّ الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة للعبادة ، فالله وحده الخالق للسماء والأرض ، المنزل للماء من السماء ، والمنبت به الحدائق التي تسرّ النفس ، وتبهج النظر ، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسيّر خلالها الأنهار ، وثبتها بالجبال ، فهو المعبود الحق ، وغيره لم يفعل شيئاً، فلا يستحق أن يعبد من دون الله .

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين ، فقد استخدمه الرسل من قبل ، وأكثروا من الاحتجاج به، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش الملحد ، ويقيم عليه الحجة بهذا النوع من الاستدلال بحيث يخرس لسانه ويدهش فكره

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) }[البقرة: ٢٥٨] .

وهذا موسى كليم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون ، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه ، فيلجأ إلى التهديد والوعيد : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) } [الشعراء: ٢٣-٢٩] .

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل ، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩، ١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم إجابة الرسل حيث قالوا: (أفي الله شكٌّ فاطر السّماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم) [إبراهيم: ١٠] .

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله - سبحانه - فاطر السّماوات والأرض أي موجدهما وخالقهما.

الكفر مُستَنكَر مستعجب مع وضوح الأدلة ، ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يشي بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمَّ يميتكم ثمَّ يحييكم ثُمَّ إليه ترجعون) [البقرة: ٢٨] .

ويسأل في آية أخرى (يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم - الذي خلقك فسوَّاك فعدلك - في أي صورة ما شاء ركَّبك) [الانفطار: ٦-٨] .

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه ، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين وجحد الجاحدين : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) }[نوح: ١٣-١٨] .

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة ؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب ، وتفتحت واتصلت بالكون العجيب ، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل ، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية .

هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم ، وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف ، ولذلك نصّ القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) }[آل عمران: ١٩٠-١٩١] .

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون ؛ لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان ؛ بل نظروا إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه ، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال ، مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) } [الروم: ٢١-٢٤] .

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون ؛ أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب .

أما الكفار ؛ فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه ، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق : { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الروم: ٧] .

ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ؛ لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) } [يونس: ١٠] .

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) }[الأعراف: ١٨٥] .

{ دلالة الخلق على صفات الخالق العظيم }

إن الخلق يدل على الخالق وعلى صفات الخالق العظيم .

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع ، بديعة التكوين ، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه ؛ فلا بد أن ندرك بلا كثير تفكير أن صانعها يتصف بصفة الحياة ، بصفة العلم ، ونثبت له قدرة وإرادة ، إلى آخر تلك الصفات التي تنبأنا عنها تلك الآلة ، وهذا الكون يشي ويعرف بكثير من صفات الخالق العظيم ، فمن ذلك :

قدرته وعلمه ، هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع ، السائر وفق نظام دقيق لا بد أن يكون صانعه حيا قديرا عليما مريدا ، والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل ، وهذا النظام الكامل ؛ ليعرفنا بقدرته وعلمه : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)} ، ولا بد أن يكون العلم الذي يحكم هذا الكون علما شاملا كاملا : { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) } ، وهو حكيم ، بل هو الحكيم ، فالنظر في هذا الكون يشي بأنه محكم متقن ، قد وضع كل شيء منه في موضعه المناسب ، وخلق بالمقدار المناسب ، في غاية الجودة والإتقان ، قال تعالى: { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) } ، وقال تعالى : { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) } ، لذلك فإن الناظر المتبصر في خلق الله ؛ لا يرى إلا الكمال والإتقان ، ولو بحث عن عيب في الخلق ما وجده ، قال تعالى : { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)} .

ما ذكر من دلالة الخلق على بعض صفات خالقه يراد به التمثيل ، لا الحصر والاستقصاء ، وهو تمثيل يفتح الباب للاستدلال والبحث ، وإلا ففي الكون الكثير من الآيات الدالة على عظمة الله وعزته ، ولطفه وحكمته .

واستمع إلى الصفات الإلهية التي ذكرها الله في ختام كل آية من الآيات التالية : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) } .

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر في الآيات الكونية توجه إلى عبادة الله وحده ، فالله وحده هو الخالق المدبر المقيم للسماوات والأرض الرازق المحيي المميت ؛ لذلك فهو المستحق للعبادة دون سواه :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) } [البقرة: ٢١-٢٢] .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) } [فاطر: ٣] .

وبهذا الطريق أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة ، وعدم استحقاقها شيئاً من العبادة : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) } [لقمان: ١٠-١١] .

ولذلك فإنّه يذكّر خلقه بالآيات الكونية ، وتصريفه الأمور ، وتدبيره الشؤون ، ثم يعقب على ذلك في كثير من آي القرآن بقوله : (ذلكم الله ربُّكم) [الزمر: ٦] أي ذلكم الإله الذي يستحق العبادة دون سواه.

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) }[الزمر: ٥-٦].

فهذا هو مسلك القرآن العظيم ، وكل أحد عنده تجربته الخاصة فيما يتعلق بإجابة ربه إياه ، فما من واحد منا نحن المؤمنين بالله وحتى من كان غير مؤمن ، ما منا إلا من مرت فترة فيها شدة واضطراب وقلق توجه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ، وكله رجاء وأمل ، وإذا بالكرب يزول ، والشدة تنتهي ، ويجعل الله من بعد عسر يسرا ، ويعود الرخاء بعد الضراء ؛ ولكنك تجد قلوبا بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها ، وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحنة .

إن الأمر المسلم به : أنه ما نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر ، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى كثيرا فقال جل وعلا : {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)} ، وقال تعالى : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)} ، وقال تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)} ، وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ }، وقال تعالى : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)}.

وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا دعاه كائنا من كان ، حتى لو كان كافرا ما دام توجه إلى الله : { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}.

تفريغ خطب الجمعة كاملة للشيخ العلامة رسلان حفظه الله

شبكة تفريغ خطب العلامة رسلان